

مجلة

مجمع اللغة العربية بدمشق

« مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً »

مجلة محكمة فصلية



رجب ١٤٣٠ هـ

تموز ٢٠٠٩ م

مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق

مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً

أنشئت سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة لسنة ١٩٢١ م

المدير المسؤول: الأستاذ الدكتور مروان المحاسني، رئيس المجمع

لجنة المجلة

الدكتور محمد إحسان النص الدكتور عبد الله واثق شهيد

الدكتور محمد زهير البابا الأستاذ جورج صدقني

الدكتورة ليلى الصباغ الدكتور محمد مكّي الحسني الجزائري

الدكتور محمود السيد

أمين المجلة: الأستاذ محمود الحسن

العنوان البريدي: دمشق ص.ب ٣٢٧

البريد الإلكتروني: E-mail: mla@net.sy

أغراض المجلة:

إن أغراض المجلة مستمدة من أغراض المجمع الواردة في قانونه ولائحته الداخلية، وأبرزها: المحافظة على سلامة اللغة العربية، وجعلها وافية بمطالب الآداب والعلوم والفنون، وملائمةً لحاجات الحياة المتطورة، ووضع المصطلحات العلمية والتقنية والأدبية والحضارية، ودراساتها وفق منهج محدد، والسعي لتوحيدها في الأفطار العربية كافة.

خطة المجلة وشروط النشر فيها:

- ألا تكون البحوث والمقالات مستلة من أطروحة جامعية، وألا تكون منشورة من قبل.
- تنشر المجلة البحوث والمقالات التي ترد إليها بعد أن تخضع للتقويم.
- يفضل ألا يقلّ البحث أو المقالة عن عشر صفحات وألاً يزيد على ثلاثين صفحة من صفحات المجلة، وعدد الكلمات في الصفحة الواحدة لا يزيد عن (٢٥٠) كلمة.
- ترتيب البحوث والمقالات يخضع لاعتبارات فنية.
- ينبغي أن تكون البحوث والمقالات المرسلة إلى المجلة منضدة، ويفضل أن تشفع بقرص حاسوبي ليزري مسجلة عليه، أو مرسلة بالبريد الإلكتروني.
- البحوث والمقالات التي لا تُنشر لا تردّ إلى أصحابها.
- يرسل الكاتب الذي لم يسبق له الكتابة في المجلة، مع بحثه أو مقالته، سيرته الذاتية العلمية وعنوانه.
- تُعطى الحواشي أرقامًا متسلسلة من بداية البحث حتى نهايته. وتذكر حواشي كل صفحة في أسفلها.
- توضع الكلمات العربية (أو المعربة) قبل مقابلها الأجنبي عند ورودها أول مرة، نحو: تقانة (Technology)، حاسوب (Computer)، نفسية (Psychologic).
- من الضروري أن يعتني الكاتب بعلامات الترقيم: النقطة، الفاصلة، إلخ....
- ترسل البحوث والمقالات إلى المجلة على العنوان:

العنوان البريدي: دمشق ص.ب ٣٢٧

البريد الإلكتروني: E- mail: mla@net. sy

فهرس الجزء الثالث
من المجلد الرابع والثمانين
البحوث والدراسات

- ٦٢١ د. محمود السيد ابن رشد والضروري في صناعة النحو
٦٤١ د. ممدوح خسارة معاجم فصاح العامية وأثرها في التجديد اللغوي
٦٧٣ د. محمد رضوان الداية كتاب أعلام مالقة أو أدباء مالقة
٧١١ أ. هلال ناجي القصيدة المتداخلة
٧٢١ د. عمر الساريسي التشبيه الضمني في شعر العصر العباسي
٧٤٩ د. قحطان الفلاح جماليات التفكير والتعبير في مواظ الزهاد والفقهاء
٧٧٧ د. سعد الدين المصطفى التوجيه النحوي لمسائل خلافة في مجالس ثعلب

المقالات والآراء

- ٨٠٣ أ. سليمان العيسى هويي الشعرية
٨١٥ د. محمد مكي الحسيني الجزائري تذكرة بأهم أحكام توكيد الفعل بالنون
٨٢١ د. عيسى العاكوب مقارنة تحليلية بين الخطاب وعلم المعاني
٨٣٥ د. عبد الإله نبهان معجم النسبة بالألف والنون للدكتور أحمد مطلوب
٨٣٩ د. أحمد شوقي بنين معجم ألفاظ علم المخطوط العربي
٨٥٣ أ. ناصر توفيق الجباعي استدراك على الأصمعيات (ق ٢)

أبناء جمعية وثقافية

- ٨٧٥ حفل استقبال الأستاذ مروان البواب
- ٨٧٦ - كلمة د. مروان المحاسني
- ٨٨٢ - كلمة د. مكّي الحسني
- ٨٩٠ - كلمة أ. مروان البواب
- ٩٠٠ حفل استقبال الدكتور عمر شابسيغ
- ٩٠١ - كلمة د. مروان المحاسني
- ٩٠٧ - كلمة د. موفق دعبول
- ٩١٣ - كلمة د. عمر شابسيغ
- ٩٢٣ الكتب والمجلات المهداة إلى مكتبة المجمع في الربع الثاني من عام ٢٠٠٩

البحوث والدراسات



ابن رشد والضروري في صناعة النحو

أ. د. محمود أحمد السيد (*)

حياة ابن رشد

هو أبو الوليد العالمُ الفيلسوفُ محمدُ بنُ أحمدَ بنِ محمدَ بنِ رُشد الحفيدُ، تميّزًا له عن جده الفقيه، إذ كان يسمى أيضًا أبا الوليد محمدَ بنَ رشد.

ولد في قرطبة سنة ٥٢٠ هـ الموافق ١١٢٦ م، وتوفي بمراكش سنة ٥٩٥ هـ الموافق ١١٩٨ م، وهو من عائلة علمٍ وفقه، فجدّه فقيه وقاضٍ وإمام للمسجد الجامع بقرطبة، وتقلد والده أيضًا منصب القضاء.

درس في موطنه العلومَ الدينية حتى أصبح ضليعًا بها على مذهب مالك، كما درس الطب.

جاء إلى مراكش بدعوةٍ من خليفة الموحدين عبد المؤمن بن علي للمساعدة على إقامة مؤسسات تعليمية، وبقي في مراكش إلى خلافة يوسف بن عبد المؤمن الموحد، وقد تعرف في أثناء إقامته بمراكش بطبيب الخليفة الطبيب الفيلسوف ابن الطفيل، وحلَّ محله طبيبًا للخليفة.

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

تعرض لغضب الخليفة فُتفي إلى قرب غرناطة، ثم صفح عنه استجابة لنفر من وجوه إشبيلية، واستدعاه إلى مراكش حيث وافاه الأجل في العام نفسه عام ٥٩٥هـ، ودفن هناك أولاً، ثم نقل إلى مدافن أهله بقرطبة، وقد حضر الصوفي المشهور ابن عربي جنازته.

مكانته:

شَهِد جميعُ الذين ترجموا لحياته بالفضل والاستقامة والنزاهة وخدمة المصلحة العامة، ويقول عنه ابن الأبار «لم ينشأ في الأندلس مثله كمالاً وعلماً وفضلاً، وكان على شرفه أشدَّ الناسِ تواضعاً وأخفَّضهم جناحاً، وولي قضاءً قرطبة، فحُمدت سيرته، وتأثلت له عند الملوك وجاهةٌ عظيمةٌ لم يَصْرِفُها في تَرْقِيعِ حالٍ ولا جمعِ مالٍ، إنما قصرها على مصالحِ أهلِ بلادِهِ خاصةً ومنافعِ أهلِ الأندلسِ عامةً».

وقد ردد هذه الشهادةً جميعُ الذين ترجموا له، فقال ابن عبد الملك المراكشي: «كان على تمكن حُظوته عند الملوك، وعِظَم مكانته لديهم، لم ينفق جاهه قط في شيءٍ يخصه، ولا في استئجار منفعَةٍ لنفسه، إنما كان يقصِرُه على أهلِ بلده خاصةً، ومنافعِ سائرِ بلادِ الأندلسِ عامةً».

عاش ابن رشد خمسًا وسبعين سنة قضاها كلاًها في الدراسة والتدريس والبحث والتأليف، ومع أنه تولى قضاء إشبيلية ثم قضاء قرطبة، وتنقل بين المغرب والأندلس فقد بقي مشدوداً إلى مشاريعه العلمية، وكان ينشد وحدة الحقيقة وتكامل المعرفة.

لم يكن فيلسوف قرطبة يدّعي امتلاك الحقيقة، بل كان يرى أن الاجتهاد في النظريات كالاجتهاد في الفقهيات، يُعْرَضُ صاحبه للصواب والخطأ خصوصاً في المسائل الشائكة، ولذلك كان يطلب من قرائه أن يبعثوا له باعتراضاتهم وشكوكهم كتابةً كي يتمكن من مراجعة موقفه.

لقد كان ابنُ رشد مجدِّداً، لم يشرح في مجال الفلسفة أرسطو فقط، وإنما تجاوز الشرح إلى الاجتهاد الفلسفي الأصيل، مثلما تجاوز «ابنُ رشد الفقيه» الطريقة السائدة قبله في طرح مسائل الشريعة والعقيدة والعلم والفلسفة. وسيبقى ابنُ رشد نموذجاً للمثقف العربي المطلوب اليوم وغداً، المثقف الذي يجمع بين الأصالة والمعاصرة والتشبع بالروح النقدية وبالفضيلة العلمية والخلقية.

وكانت ثقافته موسوعيةً فهو الفقيه والفيلسوف والعالم والطبيب، يتبوأ مكانة مرموقة في تاريخ الفكر الإنساني، ونحن في أمس الحاجة حالياً إلى أفكار ابنِ رشد، إلى روحه العلمية النقدية الاجتهادية واتساع أفقه المعرفي، وانفتاحه على الحقيقة التي تبدت له، وربطه بين العلم والفضيلة على مستوى الفكر ومستوى السلوك سواءً بسواء، إنه مفكر وفيلسوفٌ عبقرى، كان له تأثيرٌ كبير في الثقافة العربية الإسلامية وفي الثقافة البشرية على وجه العموم.

والواقع يمثل ابنُ رشد في نشاطه الفكري التكامل الثقافي، ليس بين الثقافة العربية الإسلامية والثقافات الأخرى من الإغريقية واللاتينية فحسب، ولكن في الوقت نفسه في نطاق الفكر العربي الإسلامي نفسه، إذ إن مشاركاته الفلسفية مع الفلاسفة في المشرق العربي تعد هي الأخرى من المنطلقات الرئيسة للفكر العربي الإسلامي.

وفي ضوء ذلك لا يعد ابنُ رشد ملكاً للعرب والمسلمين وحدهم، وإنما هو ملكٌ للفكر الإنساني الذي أسهم فيه وشارك مع من شاركوا من الرجال العظام في مسيرة الحضارة الإنسانية.

يقول المؤلف جورج سارتون في كتابه «المدخل إلى تاريخ العلوم»: «إن ابنَ رشد كان من أكابر فلاسفة الإسلام، ولقد أثر بفلسفته أكثر من أرسطو نفسه، ودون ريب إن ابنَ رشد هو مؤسس الفكر الحر، فقد فتح أمام علماء أوروبا البحث والمناقشة على مصاريعها، وأخرجها من ظلمات التقليد إلى نور العقل والتفكير».

ويقول رام لاندو في كتابه «مآثر العرب في النهضة الأوربية»: «إن الفلاسفة الغربيين لا يمكن أن يصلوا إلى مستواهم الذي نراه اليوم لو لم يحصلوا على نتائج بحوث ابن رشد في الفلسفة».

مؤلفاته:

ألف ابنُ رشد في العقائد والفقهِ والفلك والطب. ومن مؤلفاته في الطب «الكليات» في سبعة أجزاء، وجملة رسائل وشرح لأرجوزة ابن سينا في الطب. ومن كتبه في الفلسفة «تهافت التهافت» في الرد على الغزالي «تهافت الفلاسفة»، والمقدمات في اثنتي عشرة مقالة، ووقف «ابنُ رشد» جزءاً كبيراً من جهوده لشرح أفكار أرسطو، فدرسها وشرحها شروحاً متفاوتة بين طويلة ومتوسطة وموجزة، ووصل عددُ هذه الشروح إلى ثمانية وعشرين شرحاً، لم يبق منها في العربية إلا القليل، وتكاد تكون تامة في ترجماتها اللاتينية.

وعُرفت مؤلفاته بطريق ما ترجم منها في مدرسة طليطلة بإسبانيا، أو باليرمو في صقلية، وشمل تأثيره الجامعات الناشئة في أوربا كجامعة باريس وجامعة بادوا والبندقية وبولونيا...

ومن مؤلفاته ما هو بالعربية مع ترجماتٍ إلى العبرية أو اللاتينية أو إليهما معاً، ومنها ما لم يبق منها سوى هذه الترجمات، ومنها ما ترجم إلى اللغات الحديثة.

وهناك من مؤلفاته ما طبع طبعاتٍ متفاوتة في قيمتها، ومنها ما لا يزال مخطوطاً. أما شروحُ ابنِ رشد على أرسطو وهي المؤلفات التي عُني بها المستشرقون أكثر من عنايتهم بغيرها، فقد جرى تصنيفها إلى ثلاثة أنواع:

الشرح الوجيز، والشرح الوسيط، والشرح الكبير

ولقد قام الدكتور محمد عابد الجابري بتصنيف مؤلفات ابن رشد في خمس مجموعات حسب الحقول المعرفية التي تتحرك فيها، وهي:

- ١- مؤلفات تعليمية
 - ٢- مؤلفات في الحقل الديني «الفقه والعقيدة»
 - ٣- مؤلفات في الفلسفة وعلومها
 - ٤- مؤلفات في الطب والعلوم
 - ٥- مؤلفات في العلم المدني «الأخلاق والسياسة».
- أما مؤلفاته التعليمية فتتميز بمحاصتين اثنتين:

الأولى: أنها أشبه ما تكون بالكتب المدرسية المخصصة للتعليم، فهي ملخصات، وبتعبيره هي «مختصرات»، وقد استعمل ابنُ رشد في عنوان هذه الكتب عبارة «الضروري في...» مما يدل على أنه كان يعي تمامًا طبيعتها التعليمية.

الثانية: والخاصة الثانية التي تطبع هذه المؤلفات وبالتحديد المنطقية والفلسفية منها، هي الشكوى من عدم توفر الحرية الكاملة زمن كتابتها لقول كلِّ ما يريد قوله، والتفصيل في القضايا التي تحتاج إلى تفصيل. ومن أشهر هذه المؤلفات الضروري في النحو، الضروري في أصول الفقه، الضروري في المنطق.

أما الضروري في النحو فقد ذكره صاحب الذيل والتكملة، وأشار إليه ابن الأبار وغيره، ويقول الجابري في كتابه «ابن رشد سيرة وفكر» الصادر عن مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت عام ٢٠٠١: «لم يُعثر حتى الآن على أي مخطوطة منه حسب علمنا «أي عن الضروري في النحو»، وليس ثمة ما يدعو إلى الشك في تأليف ابن رشد في النحو هذا المختصر، خصوصًا وقد شهد له أصحاب التراجم بأنه كان ذا حظ وافر من علوم اللسان العربي» فلا غرابة إذن أن يؤلف في النحو، بل لا يستبعد أن يكون هذا الكتاب من أول ما ألف.

ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن ابن رشد كان معاصرًا لابن مضاء القرطبي الذي تولى قضاء قرطبة على عهد أبي يعقوب بن يوسف، واستمر فيه إلى وفاته زمن يعقوب المنصور، فليس ثمة شكٌ إذن في معرفة ابن رشد لابن مضاء القرطبي صاحب كتاب «الرد على النحاة» الذي هو دراسة نقدية للنحو العربي غيرُ مسبوقة، وفيه يدعو إلى إلغاء العوامل والقياس في النحو، ومع أن كتاب ابن رشد سابقٌ زمنيًا لكتاب ابن مضاء الذي يرجع تاريخُ تأليفه إلى سنة ٥٨٠هـ، أي إلى ثلاثين سنة بعد كتاب ابن رشد، فنحن - والكلام للحاجري - لا نستبعد أن يكون فيلسوفُ قرطبة قد اتجه هذا الاتجاه، ومعلوم أن انتقاد ابن رشد للقياس في مجال «علم الكلام» كما في مجال «الفقه» وإبطال ابن مضاء للقياس في النحو، يعبر عن اتجاه واحد في التفكير يرجع إلى ابن تومرت وابن حزم.

ولدينا الآن تحقيقان لمخطوط «الضروري في صناعة النحو»، أولهما من إعداد وتحقيق باب ولد هارون ولد الشيخ سيدي وتقديم الدكتور محمد ولد عبد الحي، وقد صدر في نواكشوط بموريتانيا عام ٢٠٠٠ والثاني من تحقيق ودراسة الدكتور منصور علي عبد السميع من جامعة حلوان، وتقديم الدكتور محمد إبراهيم عبادة من جامعة الزقازيق وصدر بالقاهرة عام ٢٠٠٢ عن دار الفكر العربي، أما النسخة المحققة في نواكشوط فقد أصدرتها الشركة الإفريقية للطباعة والنشر والقرطاسية.

وصف المخطوط ومنهج التحقيق:

المخطوط المحقق في القاهرة نسخة مصورة عن المخطوط الموجود في مكتبة الشيخ سيديا - الخاصة بموريتانيا، يكتنيتها مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي ضمن مجموع، يبدأ الضروري من الورقة ١٦/ب، وهي في ستين ورقة، إذ تنتهي بالورقة ٧٦/أ، ومسطرتها سبعة عشر سطرًا، وعدد كلمات السطر الواحد يقع بين تسع

كلمات وثلاث عشرة كلمة، وخطها مغربي، ما ضبط منها بالشكل وقع منه خلط كثير، كتبت عناوين الأبواب والفصول بحجم أكبر، لا تعقيبات في النسخة، وهي مرقمة بالأرقام المغربية، ولا يُعرف على وجه الدقة من نسخها، ولا زمان نسخها، وتبدو فيها آثار الرطوبة.

أما منهج التحقيق فكان على النحو التالي:

- أعدت كتابة المخطوط وفق القواعد الإملائية الحديثة مع مراعاة علامات الترقيم.
- تخريج الآيات بذكر اسم السورة ورقم الآية، وتخريج الآيات من مظانها مع ذكر القارئ.
- تخريج الأشعار ونسبها إلى أصحابها ما أمكن ذلك، واستكمال المبتور منها.
- تخريج ما ورد من أثر ومثل من مظانه.
- التعريف بالأعلام.
- شرح بعض الألفاظ التي تحتاج إلى بيان وتفسير لغوي.
- الرجوع بالآراء والأقوال إلى أصحابها.
- التعليق على بعض الأقوال والآراء والمسائل بما تحتاج إليه من تعليق.
- الرجوع إلى تلخيصات ابن رشد لكتاب المنطق الأرسطي عند الحاجة إلى ذلك.
- إعداد فهرس عامة للآيات والأثر والشعر والمثل والأعلام والقبائل والمذاهب والموضوعات ومصادر الدراسة والتحقيق.
- المحافظة على صورة النص كما ورد عن المؤلف، فلم يتدخل المحقق فيه إلا بالقدر اليسير الذي لا يغير منه شيئاً.

الدواعي إلى تأليف الكتاب

يشير ابنُ رشد إلى أمور أساسية كانت دافعاً إلى تأليف كتابه «الضروري في صناعة النحو» وتتلخص في البنود التالية:

١- **مبالغة النحاة:** فالنحاة - من وجهة نظره - بالغوا في مصنفاتهم، فادخلوا فيها من التعريفات والتعليقات مما لا يحتمله علم النحو، يقول في ذلك: «وصار النحاة يتكلفون من إعطاء أسباب الكليات التي يضعونها في هذه الصناعة فوق ما تحتمله الصناعة».

٢- **تقصير النحاة:** فالنحاة - من وجهة نظره - قصروا في اتباع منهج دقيق يقوم على بيان حصر لأنواع الإعراب، فيقول: «ولم يسلكوا في حصر قوانين الإعراب والمعربات طريقاً من الطرق الصناعية، ولا سيما قداماؤهم، وأما المتأخرون فقد تجدهم سلكوا في ذلك بعض السلوك». كما أنهم قصروا في بيان الجمل التي تختص بكل نوع وأسباب ذلك فحدادوا عن تمثل منهج شامل يخلص بهم إلى تقسيم النحو على الوجه الصحيح، كما أن التقصير تمثل في عدم بيان الحكمة في اختصاص نوع ما بحكم، وهذه الحكمة هي التي رام النحاة الوقوف عليها، فلم يوضحوها كل الإيضاح»، وتمثل التقصير أيضاً في قسمتهم غير الحاصرة التي أفسدت عليهم المنهج.

٣- **عدم دقة النحاة في تنظيمهم للمادة العلمية:** فمصنفات النحاة في زمانه، إما أنها تفرّق بين الأشياء (المسائل والأبواب) التي يجب أن تُجمع في إطار واحد، وإما أن تجمع بين متفرقات، الروابط بينها واهية.

٤- **مخالفة الأصول المنهجية:** ويقول في هذا الصدد: «وقد يستعمل أهل هذه الصناعة القياس فيما جهل سماعه، إنهم يقيسون المجهول على المعلوم، وهو ضعيف، وربما أفرطوا حتى يردوا السماع بالقياس».

ويذكر ابن رشد أن تقصير النحاة كان مدعاةً لتصنيفه كتابًا يستظهر فيه المنهج الدقيق - من وجهة نظره - والقسمة الحاصرة التي لا تداخل فيها فيقول:

«وهذا هو السبب الذي دعانا إلى وضع شيء في هذه الصناعة، وإلا فما كنا نضعه، لأن الصناعة الموجودة عند نحويي العرب في زماننا هذا قد استوفت جميع أجزاء هذه الصناعة لكن على المجرى الصناعي»، ثم لا يكتفي بذلك بل يعلل له، ولقد أدرك ابنُ رشد صعوبة كتب النحو وغموض بعضها أو تقصيره، أو أن كثيرًا منها لا تصلح إلا لمن أتقن العلم، ولا تصلح للمتعلم المبتدئ الذي أثقلوا كاهله بما «يتكلفون في ذلك من الألفات التي يسمونها إعرابًا» «ويأخذون الولدان بحفظها» أو ربما كان ذلك إشارةً منه إلى المصنفات النحوية المنظومة مثل أرجوزة اليشكري المتوفى في القرن الرابع وهي قرابة ثلاثة آلاف بيت، وأرجوزة الحريري «ملحة الإعراب» المتوفى سنة ٥١٦ هـ وهي في ثلاثمئة وسبعة وسبعين بيتًا، وأرجوزة الشنتمري المتوفى بعد سنة ٥٥٣ هـ، وغيرها...».

وهذه الأرجوزات في نظره عسيرٌ المأخذ مما يصعب على الولدان الناشئة استحضاؤها، وهذا ما دفعه إلى التيسير الذي قصد به أن يكون أسهل تعليمًا وأشدّ تحصيلًا للمعاني.

ويقول ابنُ رشد في تقديمه لكتابه «وينبغي أن نستفتح القول في ذلك بالأشياء التي جرت العادة أن تُستفتح بها كلُّ صناعة يرام تعلُّمها على المجرى الصناعي، فإن الاستفتاح بها نافعٌ في التعلم، وهي أن يُخبرَ أولاً ما عَرَضَ هذه الصناعة، وثانيًا ما منفعتهَا، وثالثًا ما أقسامُهَا، ورابعًا النحو المستعمل في تعلُّمها، وخامسًا مرتبتهَا من العلوم في التعلم، وسادسًا نسبتها من سائر العلوم، وسابعًا ما يدل عليه اسمها، وثامنًا معرفة من وضعها».

ويركز ابن رشد على الأمور الكلية أي الأساسية في كتابه إذ يقول: «إن الصناعة هي التي تحيط بأمر كلية يصل بها الإنسان إلى الغرض المطلوب من تلك الصناعة»، وهذه الكليات تمثل منهجه العام تاركًا الجزئيات لمرحلة تالية أو لمستوى أعلى علميًا لمن أراد التخصص.

ويعلل وجهة نظره قائلاً: الكلياتُ أعرفُ عندنا وأسهل من الجزئيات، ولذلك إذا وجدنا في أمرنا قولاً كلياً حاضراً فرحنا به، ولم نخرج على الجزئيات، فالجزئياتُ لكثرتها مرهقةٌ للذهن، مكدةٌ له، مشتتةٌ إياه، أما الكليات فمحدودةٌ معدودةٌ يحصرها الذهن ويستجمعها سريعاً، فهي «نافعة للمتذكر ونافعة للمبتدئ، بالنظر في الصناعة، لأنه يسهل عليه بذلك علمها، فإن اقتصر عليها كفته».

والواقع يعد منهجُ ابن رشد منهجاً تربوياً في تقديم المعرفة واكتسابِ الضروري من أي علم، ويصرح بذلك قائلاً: «الأفضل في تعليم الولدان أن يلقي إليهم أولاً الأقاويل الكلية، ويؤخذوا بحفظها، فإذا أرادوا الكمال في الصناعة أخذوا بتفاصيلها».

محتوى كتاب «الضروري في صناعة النحو»:

يجيء عنوانُ الكتاب انسجاماً مع عناوينٍ أُخرٍ تحيّرنا ابن رشد وهي: «الضروري في المنطق، والضروري في السياسة، والضروري في الفقه» وهي سلسلةٌ توخى ابن رشد من تأليفها الوقوفَ على الأساسيات في هذه الميادين.

وكان أبو نصر الفارابي من قبل المتوفى سنة ٣٣٧هـ قد أبان أن علم اللسان عند كل أمة ينقسم إلى سبعة أجزاءٍ عظمى: علم الألفاظ المفردة، وعلم الألفاظ المركبة، وعلم قوانين الألفاظ عندما تكون مفردة، وعلم قوانين الألفاظ عندما تكون مركبة، وعلم قوانين تصحيح الكتابة، وعلم قوانين تصحيح القراءة، وعلم قوانين تصحيح الأشعار».

وقد وضع ابنُ رشدِ النحوَ العربي ضمن الأقسام الأربعة الأولى. أما الثلاثة الباقية التي أشار إليها الفارابي وهي: «علم قوانين تصحيح الكتابة، وقوانين تصحيح القراءة، وقوانين تصحيح الأشعار» فليست من الضروري في صناعة النحو، بل هي من الكمالي.

وهكذا نجد أن ابنَ رشدِ قد حصر قضايا النحو للمتعلم في أربع قضايا وهي:

١- أشكال الألفاظ المفردة وأنواعها: كمعرفة المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث والتصغير والنسبة.

٢- أشكال الألفاظ المركبة: ويعرض لأشكال تركيب الألفاظ كتركيب القول الخبري، وسائر الأقوال المركبة، وما يلحقها من تقديم وتأخير، وذكر وحذف، وزيادة ونقصان... إلخ.

٣- أشكال الألفاظ الزائدة على أشكال بنيتها، وهي عنده ثلاثة أقسام:

معرفة شكل أطرافها الأولى كهمزتي الوصل والقطع، والألف واللام.

معرفة شكل أطرافها الأخيرة، ويدخل فيه علم الإعراب والبناء والتقاء الساكنين والوقف.

ج- معرفة شكل أوساطها إن كان لها شكل، ولم يضرب لذلك مثلاً وهو كالتصغير والتكسير وغيرهما.

٤- معرفة قوانين الكلام المركب من هذه الألفاظ.

وأعاد ابنُ رشدِ النظرَ في قسمة كتابه وترتيبه فجعله في جزأين:

الأول في الألفاظ المفردة: ويعرض فيه لشكل التثنية والجمع، والتذكير والتأنيث، وشكل الإخبار عن المتكلم والحاضر والغائب.

والثاني في الإعراب والمعربات.

ورأى أنه قبل البدء بهذين الجزأين لا بد من التقديم لهما، وبذلك أصبح الكتاب على ثلاثة أجزاء، ثم أضاف جزءاً رابعاً هو ما يفني من معرفة أشكال الألفاظ المفردة، ومن معرفة أشكال أطراف الكلام التي لا تسمى إعراباً. وبذلك يصبح التصور الأخير للإطار الذي يكون عليه كتاب «الضروري في صناعة النحو» متمثلاً في:

الجزء الأول: في المقدمات

الجزء الثاني: في الألفاظ المفردة

الجزء الثالث: في الإعراب وقوانينه

الجزء الرابع: فيما يفني من معرفة أشكال الألفاظ المفردة، ومن معرفة أشكال أطراف الكلام التي لا تسمى إعراباً.

أما الجزء الأول وهو في المقدمات فقد جعله في قسمين أولهما في معرفة أجناس الألفاظ الأولى المفردة التي منها يتألف الكلام، والثاني في معرفة الكلام المركب من هذه المفردات وأجناسها الأولى.

وفي معرفة أجناس الألفاظ الأولى المفردة يذكر تعريف الألفاظ المفردة من حيث هي الاسم والفعل والحرف، ويعرف كلاً منها، ثم يذكر أنواع الألفاظ من حيث هي أسماء «اسم شخص، صفة، مصدر» وضمائر، وإشارة، وموصول، وفعل، وحروف، والفعل يقسم إلى ماض وحاضر ومستقبل.

وإذا كان الباب الأول من القسم الأول يشمل الألفاظ الأولى التي منها يتألف جميع الكلام المركب متمثلة في الاسم والفعل والحرف فإن الباب الثاني يشتمل على خمسة فصول:

الأول: في أنواع الأسماء «اسم علم، اسم جنس، صفة، مصدر، مشتق، اسم ذات، نكرة، معرفة... إلخ».

الثاني: في أنواع المضمرة «مستتر، منفصل، متصل، ضمائر الرفع، ضمائر النصب، ضمائر الجر...».

الثالث: في أنواع المبهمة «أسماء الإشارة وما تلحقها».

الرابع: في الأسماء الموصولة المذكرة والمؤنثة وفي حال التثنية والجمع.

الخامس: في أنواع الفعل «الماضي، والحاضر، والمستقبل».

أما مواد القول فهي عنده ألفاظ مفردة أو جملة تامة، وأن الأسماء في الألفاظ المفردة إما أن تكون فيها الأشكال، أو لا توجد فيها الأشكال، وأن الأسماء التي فيها الأشكال إما أن تدخلها كلُّ الأشكال مثل الأسماء الصحيحة والمنصرفة، أو لا يدخلها إلا نوع واحد أو نوعان كالأسماء المنقوصة والمنوعة من الصرف، وأن الأسماء التي لا توجد فيها الأشكال هي الأسماء المقصورة والمبنية، وهي لا تفهم إلا بقرائن الأحوال.

أما الجملُ التامة وما اتصل بها فهي الكلام الخبري والأمر والنهي والنداء والاستفهام، وهي صنفان: الأوَّلُ الجملُ الخبرية التي تحتل الصدق والكذب، والثاني الجملُ الإنشائية التي لا تحتل الصدق ولا الكذب.

والجمل الخبرية تأتي على أشكال ثلاثة:

أ- مبتدأ وخبر

ب- فعل وفاعل

ج- فعل ونائب فاعل

ويطلق عليها الجمل البسيطة، وتتضمن علاقةً إسنادٍ واحدة بين المسند والمسند إليه، وهي بذلك تمثل الجملة النواة أو الجملة الأساسية. والجملة البسيطة تُقَيَّدُ بالحروف والأفعال، وتقيَّد بمقيدات لفظية ومقيدات معنوية.

والجملُ الخبريةُ عنده هي جملٌ أوَّل وهي التي تحتوي على قول واحد تام، وجملٌ ثوان وهي مركبة من الأوَّل وتحتوي على قولين تامين. والجملُ البسيطةُ تشتمل على تركيب إخبار فقط مثل المبتدأ والخبر: زيدٌ قائمٌ، والفعل والفاعل مثل: قام زيدٌ، والفعل ونائب الفاعل مثل ضُرب زيدٌ، كما تشتمل الجمل البسيطة على الأمر فقط أو النهي فقط.

وتُقَيَّدُ الجملُ البسيطةُ «المبتدأ والخبر» بالحروف: إن وأخواتها، ما النافية، لا النافية، وبالأفعال «كان وأخواتها، ظن وأخواتها»، وبالأسماء حيث تكون التقييدات معنويةً ولفظيةً، وتكون التقييدات المعنويةُ اسمًا محضًا بالصفة مثل زيدٌ العاقل، وبالإضافة كنتييد الشيء بغيره: غلام زيد، أو الجنس بنوعه: هذه عشرون درهمًا، والنوع بمادته: هذا حاتمٌ حديدًا، كما تكون التقييدات المعنويةُ اسمًا غير محض كالمشتقات، ويعمل المشتق عمل الاسم فيخفص مثل: هذا ضاربُ زيدٍ، كما يعمل عمل الفعل فينصب مثل: هذا ضاربُ زيدًا، أو يرفع مثل: هذا قائمٌ أبوه.

أما التقييدات اللفظيةُ فتكون إما تخصيصَ عموم كالاستثناء والاستيفاء كبدل بعضٍ من كلِّ، وبدل الاشتمال، وإما تَعْمِيمَ ما يحتمل الخصوص كالأسماء المؤكدة للجموع مثل: شاهدت القوم كلَّهم أجمعين، وإما لتحقيق المعنى نفسه مثل: رأيت أحاك نفسه وعينه، وإما إرداف اسم باسم على طريق البيان كأن يكون واقعًا موقعَ الصفة وليس بصفة كعطف البيان، أو باسم لا يقع موقع الصفة كالبدل المطابق مثل: مررت بزيدٍ أحيك.

وإذا انتقلنا إلى تقييدات الجمل البسيطة الفعلية فيحددها بظرف الزمان كأن يقول: خرج زيدٌ يوم الجمعة، وبظرف المكان مثل: قام زيدٌ أمامك، وبحرف جر كقمت في الأمام، وبالمصدر: خرجت خروجًا، وعلّة الفعل الغائية: خرج زيدٌ طلبًا للمعروف، وقد يقيد باللام مثل: خرج زيدٌ لطلب المعروف، وتقييد الفاعل بالصفة ويقصد الحال مثل: جاء زيدٌ راكبًا، والمفعول به «مفعول واحد، ومفعولين وثلاثة مفاعيل»، والتمييز المنقول: تصبب زيدٌ عرفًا.

أما تقييد الجملة البسيطة بالأفعال فقد أشار إلى ظن وأحواتها: ظننت زيدًا قائمًا، وحسبت الجؤ باردًا، وكان وأحواتها وكاد وأحواتها، ونعم وبئس وحبذا: نعم الرجل زيد، وبئس الخلق الكذب، وحبذا النصر.

وبعد فراغه من الأخبار المقيدة بالأفعال ينتقل إلى الأخبار المقيدة بالحروف وهي: إن وأحواتها، ما الحجازية، لا النافية للجنس، ويذكر قوانينها، ثم يضيف إليها «ما التعجيبة».

وإذا كان ابنُ رشد جعل الجمل على قسمين: الأول والثواني، وأن الأول هي الجمل الخبرية البسيطة، والثواني هي التي تتركب من قولين تامين فإن الجمل الثواني عنده هي:

١- إحدى الجملتين تلزم الثانية جوابًا لها كالشرط وجوابه والقسم وجوابه ولو ولولا ولما

٢- إحدى الجملتين تقع موقع الاسم المقيد من الجملة الأولى البسيطة كجملة المفعول وجملة الحال وجملة الصفة.

٣- ارتباط جملتين بحرف عطف كأن يصرح بالجملتين معًا إذا اختلفت الأخبار كما في قولنا قام زيد وجاء عمرو، أو بحذف أحد الخبرين من الجملة المعطوفة كقولنا قام زيد وعمرو.

ويضيف إلى الأنواع الثلاثة السابقة جنسًا رابعًا، وهو المركب من جملتين من جنسين مختلفين مثل الأمر وجوابه، والنهي وجوابه، والاستفهام وجوابه. وثمة جزء في كتاب «الضروري في صناعة النحو» خُصَّص للأفعال من جهة إعرابها وبنائها، ومن جهة علامات إعرابها في رفعها ونصبها وحزمها، ثم ذكر قوانين نصب المضارع وقوانين حزمه في الجمل الخبرية والجمل الشرطية وفي جواب الطلب والأقاويل الأمرية والنهيية.

أما المصطلحات والتعريفات عند ابن رشد فيقول محقق الكتاب في دراسته له: أن ابن رشد لم يخالف النحاة كثيرًا في تعريفاته ومصطلحاته، إذ نجده يتابعهم في كثير من الحدود والتعريفات، مادام ذلك غير ضار بالصناعة - على حد قوله - فإنه تفرد بمجموعة من المصطلحات التي لم تشع في كتب النحويين كالاسم المستقيم والاسم المائل.

أما ما يقصده ابن رشد هنا من مصطلح «الاسم المستقيم» فيبدو في قوله: «إنا نجد الأسماء من حيث هي جزء كلام مفيد صنفين: صنف هو متعد من أن يكون مضافًا إليه، وهو في الألفاظ نظير الأشياء الموجودة بذاتها، وسواء كان مفردًا أو مضافًا إلى اسم آخر، موصوفًا بوصف هو هو، وهذا هو الصنف الأول من الأسماء في كل لغة، وقوم يسمونه الاسم المستقيم».

ويتميز الاسم المستقيم عنده بعدة أشياء:

- ١- أنه جزء من كلام مفيد، أي لا يُستغنى عنه.
- ٢- أنه نظير الأشياء الموجودة بذاتها.
- ٣- أنه يكون مفردًا أو مضافًا موصوفًا بوصف هو هو.
- ٤- أنه يكون مضافًا لا مضافًا إليه.

والاسم لا يوصف بالاستقامة من عدمها إلا بعد تركيبه في جملة، فالاسم المستقيم على ذلك يكون:

مبتدأ

خبراً

فاعلاً

تابعاً لواحد مما سبق (صفة، توكيداً، بدلاً، معطوفاً).

ويرى أن الاسم المستقيم هو المرفوع في كلام العرب.

أما الاسم المائل فيستعمله ابن رشد مقابلاً للاسم المستقيم، وهو المنصوب والمجرور من الأسماء.

ويستعمل ابن رشد مصطلح التصريف ويجعله مساوياً للإعراب، أما الاسم المبني فهو غير المتصرف، ويخلص إلى أن الاسم غير المتصرف - المبني عنده - هو الاسم المستقيم الذي يلزم حالة الرفع. أما الاسم المتصرف، فهو الاسم الذي يكون في حالة نصب أو جر وهو الاسم المائل.

ومن المصطلحات التي استعملها الأقاويل المركبة والكلام المركب والألفاظ المركبة، والكلام عنده هو كل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه وهو الذي يسميه النحويون الجمل.

وعندما عرض ابن رشد لأنواع «ما» ذكر «ما» المولدة، وهي التي يعرفها النحاة بالزائدة، ويذكر مصطلح الجمل الجزئية عند حديثه عن صلة الموصول، وفي حديثه عن الضمائر يذكر أنها تدل بشكلها وبنيتها على الوجوه الثلاثة:

الوجه الأول: إخبار المتكلم عن نفسه، وهو الذي منه القول.

الوجه الثاني: الإخبار عن الحاضر (المخاطب)، وهو الذي إليه القول.

الوجه الثالث: الإخبار عن الغائب، وهو الذي فيه القول.

وفي تعريفاته لأقسام الكلام يعرف الاسم بأنه لفظ يدل على معنى غير مقترن بزمان محصّل، ويرى أن خاصته المعنوية أن يكون خبراً ومخبراً عنه، واللفظية أن يدخل عليه التنوين والألف واللام التي للتعريف.

أما الفعل فيعرفه بأنه لفظ يدل على معنى مقترن بزمان محصّل.

والحرف عنده لفظ يدل على النسب التي تكون بين الأسماء أنفسها، وبين الأسماء والأفعال، ولذلك قيل في حدّه: إنه لفظ يدل على معنى في غيره.

ويستعمل ابن رشد نوعاً آخر من التعريف، وهو التعريف بالقسمة، وأول من تكلم عن التعريف بالقسمة أفلاطون، وقد لقي هذا النوع من التعريف رواجاً عند العرب، إذ يرى الفارابي أنه ينفع في سهولة الفهم.

وأمثله التعريف بالقسمة عند ابن رشد كثيرة ومبثوثة في تضاعيف الكتاب، يستعملها في تحديد الأنواع وما يندرج تحتها، منه قسمته للأسماء فهي مظهره ومضمرة ومبهمه وموصولة، ومنها قسمته للضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة، وقسمته للفعل، والأقاويل المركبة.

ومن الأمثلة على التعريف بالقسمة قسمة الفعل، فقد قسم ابن رشد الفعل إلى نوعين مخالفاً النحاة في قسمة الأفعال من جهة الزمان إلى أنواع ثلاثة: ماض ومضارع وأمر، أما هو فقد حصر الأفعال في الماضي والمستقبل، وعرف الماضي بأنه «الذي ليس أوله تاء ولا ياء، ولا ألفاً، ولا نوناً.. وهو غير معرب، مبني على الفتح». أما المستقبل فهو عنده «الذي في أوله أحد تلك الحروف الأربعة «أنيث»، وشكل المستقبل والحاضر واحد في لسان العرب، فإذا أرادوا تحليله للاستقبال أدخلوا عليه السين أو سوف».

ويرى الدكتور منصور علي عبد السميع في دراسته لكتاب ابن رشد أن ابن رشد

تأثر تأثيراً كبيراً بالمنطق الأرسطي في عمل المقاييس والقضايا المنطقية.

وأول هذه الأمور ما استعمله من مصطلح الاسم المستقيم والمائل، وكذلك تنطبق على الفعل والكلمة عند المناطقة. فيقال: كلمة مائلة وهي الفعل الماضي أو المستقبل، والكلمة المستقيمة هي الفعل الدال على الزمان الحاضر، ومعرفة المائل والمستقيم نافع في عمل المقاييس وذلك أنه كثيراً ما توجد مقاييس أجزاءً مقدماها مائلة فلا يبين منها أنها منتجة حتى ترد مستقيمة.

وثانيها القضايا المنطقية إذ تتكون القضايا من الأقاويل التامة، والجازم منها على وجه التحديد، وهو المتصف بالصدق أو الكذب سواء كان بسيطاً أو مركباً، أما غير الجازم مثل الأمر والنهي الذي لا يتصف بالصدق أو الكذب فإنه لا تتكون منه قضايا منتجة.

ثم يخلص إلى القول إن ابن رشد عرض للألفاظ المفردة والألفاظ المركبة، ثم ذكر قسمة الألفاظ المركبة من كلام تام وغير تام، والتام يقسم إلى أول وثوان، ثم يعرض للأول البسيطة وما يعرض لها من تقييدات تخص الاسم أو الفعل، وكذلك الجمل الثواني وما يعرض لها من قوانين، ثم استوفى ذلك بذكر أحكام الأسماء والأفعال والأقاويل التي لم تنتظم في الأجزاء السابقة، فجاء الكتاب محكماً في منهجه وتقسيم مادته.

وأخيراً نخلص إلى القول:

١- إن كتاب «الضروري في صناعة النحو» لابن رشد يقع في إطار النحو الوظيفي، إذ إنه يركز على الكليات أو الأساسيات التي ينبغي للمتعلم أن يتزود بها حتى يقرأ ويتحدث ويكتب ويستمع، فيتمثل ويفهم ما يستمع إليه فهمًا صحيحًا، ويعبر شفاهياً وكتائياً بأسلوب خال من الأخطاء.

وتجدر الإشارة إلى أن ثمة آخرين ركزوا على هذه الأساسيات في تراثنا اللغوي من أمثال خلف بن حيّان الأحمر البصري في كتابه «مقدمة في النحو» وأبي جعفر النحاس النحوي في كتابه «التفاحة في النحو».

٢- إن ثمة فائدة في الاطلاع على بعض التقسيمات التي تضمنها كتاب «الضروري في صناعة النحو» وعلى التصنيفات التي اعتمدها، وهذه التصنيفات تساعد على الفهم.

٣- إن في بعض المصطلحات التي اعتمدها ابن رشد خروجًا عن المؤلف في النحو، وقد تأثر في وضعها بالمنطق وأقيسته، إلا أنها للتوضيح في الأعم الأغلب.

٤- إن الثقافة الموسوعية لابن رشد قد ساعدته على وضع الضروري في صناعة النحو، إذ إنه ركّز على مفاتيح علم النحو والأمور الأساسية فيه في منأى عن الشذوذات والاستثناءات والمماحكات والتأويلات، فجاء كتابه إسهامًا فعليًا في صرح القواعد النحوية.

معاجم فصاح العامية وأثرها في التجديد اللغوي

د. ممدوح محمد خسارة^(*)

مقدمة: العامية في تراثنا اللغوي

العامية أو لغة العامة عند القدماء هي التَّعْيِير الذي أدخلته العامَّة من العرب على اللغة العربية الفصحى، من لَحْن في الإعراب أو تغيير في بنية الكلمة الصرفية أو الصوتية، أو في دلالتها، أو في بناء الجملة كأن يقال (سَيِّ) بدل سَيِّدِي، و(تُخْمَة) بسكون الخاء بدل تُخْمَة بفتحها، و(مالِح) بدل مِلْح لما يغلب عليه طعم الملح، و(هَمْ فَعَلْتُ) بمعنى فَعَلْتُ أيضًا^(١) وأن يقال (فصل الربيع) بدل فصل الصَّيْف، وأن يقال (فصل الصَّيْف) بدل فصل القيظ^(٢) وهي لا تختلف كثيرًا عمَّا يعده المحدثون عاميةً، أو لهجة عامية. ولكن إذا كان القدماء قد خلطوا بين العامِّي والمولَّد وجمعهما في سلَّة واحدة، فإننا ننأى بأنفسنا عن ذلك، فنعدُّ كلاً من المولَّد والعامي نوعًا قائمًا برأسه.

وبهذا المفهوم الذي قدمنا للعامية أي التغيير الذي يُدخَل على ما تعارف أهل اللغة

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

(١) السيوطي - المزهري في علوم اللغة ١: ٣٠٩ - ٣١٥.

(٢) ابن منظور - لسان العرب: ربع.

فصاحته، فإن جذور العامية قديمة في تراثنا اللغوي وتمتد إلى ما قبل عصر المؤلدين. ومن أبرز مظاهرها وتحلياتها عند القدماء:

- ذاك الذي لحن في حضرة الرسول ﷺ، فقال لأصحابه: «أرشدوا أحاكم فإنه قد ضلّ». (٣)

- وذاك الذي جاء إلى زياد والي البصرة يشكو أخاه قائلاً: «أصلح الله الأمير، تُوفيَّ أبانا وترك بنونا... فقال زياد: توفي أبانا وترك بنونا!!! ادع لي أبا الأسود، فقال: ضع للناس الذي كنت قد نهيته عنه» (٤). وكان زياد - في بعض الروايات - نهى أبا الأسود عن أن يضع علم النحو.

- ومن مظاهرها ما اصطاح اللغويون على تسميته (شذوذاً أو لغة رديئة أو لغة قبيلة بعينها)، فقد كانت لغات بعض القبائل، أي طريقتها في أداء بعض الألفاظ، نوعاً من عامية ذلك العصر، ما دام مفهوم العامية عندهم هو التغيير. (٥) أليست لغة قيس في يا أبي: (يابَ ويابة)، ولغة ربيعة في تأنيث (فَعْلان) بالهاء، نحو (فَرَحانة)، هي مما نعدّه اليوم عامياً؟

- بل إن بعض علماء اللغة كانوا يتوكّون على العامية في بعض عباراتهم - حتى العلمية منها - من ذلك ما جاء في تهذيب اللغة: «قال أبو العباس [عن كتاب العين للخليل]: (ذاك كتابٌ مَلاً عُدد)، وحقُّه عند النحويين (مَلاً عُددًا)، ويعني بذلك أن فيه فساداً» كفسادِ العُدَدِ وضَرَّ آكليها». (٦)

(٣) ابن جني - الخصائص ٢: ٨ و ٣: ٢٤٦.

(٤) ابن قتيبة - عيون الأخبار ٢: ١٥٩.

(٥) السيوطي - المزهري ١: ٣١٠ - ٣١١.

(٦) الأزهري - تهذيب اللغة ١: ٢٩.

وقد أورد صاحب لسان العرب نحو سبع وثمانين كلمة نسبها إلى العامية صراحة، مثل قولهم مِعْوَجَّة بدل مُعْوَجَّة، والقارص - للبارد - بدل القارس.^(٧)

فإذا أضفنا إلى هذه الكلمات التي وُصفت صراحة بأنها عامية، الكلمات التي وُصفت بأنها مولدة، والمولدة عندهم من العامي - وليس هو كذلك عندنا - كدنا أن نقول بشيء من التعميم: إن جذور العامية بعيدة في تراثنا اللغوي، وإن على اختلاف في الدرجة، لأن العرب لم تكن قد ساحت في الأرض بَعْدُ واحتكَّتْ باللسنة مغايرة أثرت فيها وتأثرت. ولكن ما إن جاء القرن الهجري الثالث حتى كان للعامية مستوى من الخطاب اليومي الشفاهي ينصح الجاحظ بالتزامه في بعض السرد الأدبي حيث يقول: «إذا سَمِعْتَ نادرة من نوادر العوامِّ ومُلْحة من ملح الحشوة والطَّعام فإياك أن تستعمل فيها الإعراب، أو تتخيَّر لها لفظًا حسنًا، أو تجعل من فيك مخرَجًا سرِّيًا، فإن ذلك يُفسد الإمتاع، ويخرجها عن صورتها وعن الذي أريدت له».^(٨)

١) حركة التأليف في تصحيح العامي وتفصيله في القديم:

إن انتشار اللهجات العامية منذ القرن الهجري الثاني، وتحوُّف اللغويين من أن تنال من مكانة الفصحى، وأن تزامها، وهي لغة التنزيل الكريم، والجامعة للأمة، دفع أولئك اللغويين إلى التصدي لتلك الظاهرة في محاولة للحدِّ من ذيوها وانتشارها. ومن أهم تلك المؤلفات:

١- كتاب ما تلحن فيه العوام للكسائي (١٨٩هـ).

يضم هذا الكتاب عددًا من الظواهر اللغوية الشائعة عند العوام في طريقة نطق الكلمات وضبطها. وهو يسرد الألفاظ العامية لعصره في الكتاب سرِّدًا كيفما اتفق ودون

(٧) ابن جني - الخصائص ٢: ٨ و ٣: ٢٤٦ ولسان العرب: عوج.

(٨) الجاحظ - البيان والتبيين: ١١١.

ترتيب أو تقسيم. ومن أمثلة ذلك قوله: «ولا تقول تحرّص، قال تعالى: ﴿إِنْ تَحْرَصْ عَلَىٰ هٰذِهِمُ﴾ [النحل: ٣٧] وتقول: نَفَدَ المال والطعام بكسر الفاء»، وكان العامّة كانت تقول (نَفَدَ) بفتح الفاء، وغالبًا ما يبدأ بالصواب ثم يثني بالكلمة المِلْحُونَة. (٩)

٢- إصلاح المنطق لابن السكّيت (٥٢٤٤هـ).

وما يعنيه بالمنطق هو النطق واللفظ. وقد حظي الكتاب بتقدير واهتمام كثير من اللغويين. وهو جارٍ على طريقة (قُلْ ولا تَقُلْ)، نحو: «تقول: ما لهُ دارٌ ولا عِقَارٌ، ولا تَقُلْ عِقَارٌ... وتقول: هو خِصْمِي، ولا تَقُلْ خِصْمِي... وهو عِرْقُ النِّسَاءِ ولا تَقُلْ النِّسَاءِ». (١٠)

٣- كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة (٥٢٧٦هـ).

وقد جاء الكتاب في أربعة أقسام، خصّ القسم الثالث منه بتقويم لسان العامّة: «ويضم الكتاب - إضافة إلى ما سجّلته كتب الفصيح واللحن - ما شاع في عصره من ألفاظ ملحونة على ألسنة الكتّاب وأقلامهم، كخلطهم مثلاً بين النّصّب والنّصب، فالأولى هي الشّرُّ، والثانية هي التّعَب. (١١)

٤- لحن العوامّ للزبيدي (٥٣٧٩هـ).

يمثل هذا الكتاب أول إسهام للأندلسيين في حركة التصحيح اللغوي وإصلاح لحن عامة الأندلس لعصره. وهو يبدأ بذكر اللحن ثم يُتبعه الصواب، ولكن دون التزام الترتيب الألفبائي مما يُصعّب الإفادة منه. ومن تصحيحاته: «يقال للشجر في الجبال عِرْعار، وهو عِرْعر... ويقولون لما بيع من المتاع سلعة، وهي سلعة بكسر أوله، ويقولون: الآذان،

(٩) د. محمد حسن عبد العزيز - مصادر البحث اللغوي: ٢٧٢.

(١٠) المصدر السابق: ٢٧٤.

(١١) ابن قتيبة - أدب الكاتب: ٢٠٧ - ٢١١.

والصواب الأذان». (١٢) «ويقولون بين الأمرين فرّق والصواب فرّق» (١٣) «ويقولون رَجُلٌ لَعَوِيٌّ والصواب لَعَوِيٌّ». (١٤)

وعلى الإجمال فقد أُلّف في إصلاح لغة العامّة ورَدّ اللحن حتى عام (١٠٨٧هـ) نحو تسعة وأربعين كتاباً بحسب قائمة أعدّها الدكتور رمضان عبد التواب، (١٥) علماً بأن ثمة قوائم أخرى لكتب التصحيح اللغوي يصل فيها العدد إلى نحو الستين. (١٦)

٢) معاجم فصاح العامية في القديم:

إن المغالاة في تتبع العامي وتخطئته على حقّ أو باطل، حمل بعض اللغويين على اتخاذ منحى جديد في التأليف اللغوي يرمي إلى إنصاف بعض الكلم العامي الذي نُبِز باللحن أو الخطأ دون وجه حقّ. وهكذا بدأت تظهر مؤلفات جديدة تُنصِّف لذلك الكلم المظلوم لتصحيحه وإعادة الاعتبار إليه. وبالطبع فقد جاء هذا المنحى من التأليف متأخراً عن المنحى الأول أعني منحى التصويب والتخطئة، بنحو ثلاثة قرون، بعد أن لاحظ لغويون أن بعض مُصنِّفات التصحيح اللغوي تجاوزت حدود ما هو مقبول من التصحيح إلى ما هو غير مقبول من التشدّد والإعنات. ومن أهم هذه المؤلفات في المنحى الإنصافي الجديد:

١- تثقيف اللسان وتلقيح الجنان لابن مكي الصقلي (٥٠١هـ):

يعد هذا الكتاب من أوائل المؤلفات التي حاولت الدفاع عن فصاح العامية، فقد ضم كتابه خمسين باباً صغيراً، أفرد منها بابين للدفاع عن كلام العامية:

(١٢) الزبيدي - لحن العوام: ٤٨ - ٤٩.

(١٣) المصدر السابق: ٢٨٥.

(١٤) المصدر السابق: ٢٩٢.

(١٥) د. رمضان عبد التواب - لحن العامية والتطور اللغوي: ٩٧ - ١٠٠.

(١٦) د. محمد ضاري حمادي - حركة التصحيح اللغوي في العصر الحديث: ١٦ - ١٨.

الأول: باب ما جاء فيه لغتان استعمل العامة أفصحهما بخلاف الخاصة. وفيه: «يَضُمُّ المتفصِّحون السين من السَّم والفتح أفصح. ويقولون ما دلالتك بكسر الدال، والدلالة بفتح الدال كما تقول العامة أفصح»^(١٧).

والثاني: باب ما فيه العامة على صواب والخاصة على خطأ: ومما جاء فيه: «يقول المتفصِّحون العَسَل واللَّبَن بالإسكان، والصواب العَسَل واللَّبَن... وكذا قولهم عَرَفْتُ مُرَادَكَ وَصَبَرْتُ لأمر الله، والصواب عَرَفْتُ وَصَبَرْتُ كما تقول العامة»^(١٨). وإذا صحَّت هذه الأقوال عن خاصة عصره، فيبدو أنهم كانوا إلى الضَّعْف والركاكة ما هم. ولكن الذي يُهمنا في هذه الأقوال أن ابن مكِّي الصَّقَلِي كان أول من أشار إلى فصاح العامية في تراثنا اللغوي القديم. ويلحظ استعمال المؤلف كلمة: (المتفصِّحون)، وكأنها تعريض بمن يُخطئ الناس بلا تَبَيُّتٍ ولا دليلٍ كافٍ.

٢- المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان لابن هشام اللخمي (٥٧٧هـ):

وهو الكتاب الثاني في الانتصاف لفصاح العامَّة. وقد تضمَّن ثلاثة أبواب في هذا السياق هي:^(١٩)

- باب في الردِّ على الزُّبيدي في كتابه (لحن العوام).
 - باب في الردِّ على ابن الصَّقَلِي في كتابه تثقيف اللسان وتلقيح الجنان.
 - باب ما جاء عن العرب فيه لغتان فأكثر واستعملت العامة منها أضعفها.
- وطريقة ابن هشام اللخمي أن يَبْدَأُ بقول الزُّبيدي، بكلمة (قال) أي الزبيدي، ثم يعقِّب عليه مبتدئاً بعبارة (قال الرِّاد)، ومن ذلك:

(١٧) ابن مكِّي الصَّقَلِي - تثقيف اللسان: ١٩٧.

(١٨) المصدر السابق: ١٩٨.

(١٩) ابن هشام اللخمي - المدخل إلى تقويم اللسان: ٥ مقدمة المحقِّق.

- «قال: ويقولون للحظير في الدار (حَيْرٌ)، والصواب حائرٌ.. قال الرّاد: قال الخليل بن أحمد وأكثر الناس يسمّونه الحَيْرُ». (٢٠)

- «قال: ويقولون للطين الذي يُخْتَم به (طابع)، والصواب طابع بالفتح. قال الرّاد: حكى ثعلب أنه يقال للذي يُطَبَع به طابع وطابع بكسر الباء وفتحها». (٢١)

- «قال: ويقولون (نَبَلَةٌ) لواحد النَّبَل، وذلك خطأ.. قال الراد: حكى ابن جنّي أن واحد النَّبَل نَبَلَةٌ». (٢٢)

وقد تعقب ابن هشام اللخمي الأندلسي أبا بكر الزبيدي في خمسة وستين موضعاً، مما خطأً فيه الزبيدي العامّة، وردّ عليه وجوّزها. (٢٣) كما تعقّب ابن مكّي الصّقليّ فيما خطأً فيه العامّة والخاصّة في اثنين وستين موضعاً. (٢٤) ويلحظ أن هؤلاء اللغويين الثلاثة من الأندلس.

٣- بحر العوامّ فيما أصاب فيه العوامّ لرضي الدين بن الحنبلي (٩٧١هـ):

يعد هذا الكتاب أوسع وأدق ما كُتِب في فصاح العامية. ويبدو أن هذا اللغوي الذي يعود نسبه إلى ربيعة، كان مولعاً بهذا الضرب من الموضوعات، فله كتابان آخران يدوران في فلکها «هما (عقد الخلاص في نقد كلام الخواصّ)، وفيه ردٌّ على الحريري في كتابه (دُرّة الغواص في أوهام الخواص) وكتاب (سهم الألاحظ في وهم الألفاظ) ويصحح فيه أوهاماً وقع الناس فيها». (٢٥)

(٢٠) ابن هشام اللخمي - المدخل إلى تقويم اللسان: ١٦.

(٢١) المصدر السابق: ٢٠.

(٢٢) المصدر السابق: ١٩.

(٢٣) المصدر السابق: ١١ إلى ص ٤٥.

(٢٤) المصدر السابق: ٤٦ إلى ٧١.

(٢٥) ابن الحنبلي - بحر العوامّ: ٢٧ (المقدمة).

ولما كان ابن الحنبلي لغويًا حليبيًا تادفيًا، فإن معظم كلماته تدور حول ما يتداوله العامة في بلاد الشام، لذا جعل بعضهم عنوان الكتاب (بحر العوام فيما أصاب فيه العوام من أهل الشام).

جاء هذا الكتاب «مشملاً على ما يعتقد الجاهل أو الناس أنه من أغلاط عوام الناس، وليس في شيء من العَلَط». (٢٦) ويُلمح من كلمة (الجاهل) تعريضٌ ببعض الخاصة من المخطئين. ومنهج المؤلف أن «يقدم ما يشيع على ألسنة عوام عصره، ثم يُنص على كونه لغة أو لهجة قبيلة بعينها، أو يفسره تفسيرًا ما»، (٢٧) على النحو التالي:

- «ومن ذلك [أي مما أصاب فيه العوام]: أبٌ وأخٌ، بتشديد الباء والخاء في أبٍ وأخٍ». (٢٨)

- «ومن ذلك قولهم (عَطْشَانَةٌ) ومثله سَكْرَانَةٌ، وهي لغة بني أسد» (٢٩) أي في تأنيث الصفة المشبهة (فَعْلَان) بالياء.

- «ومن ذلك قولهم: فُلَانٌ يَشْرَبُ وَيَطْرَبُ، بكسر المُنَّاة التحتانية التي هي إحدى حروف المضارعة.. وهي لغة». (٣٠)

- «ومن ذلك قولهم: هُوَ فَعَلَ وهي فَعَلَتْ» (٣١) بتضعيف الواو الياء، وهي لغة.

- «ومن ذلك قولهم (مُحَّم) في (مَعَهُم)، فقد وقع في التصريح بأن الخاء قد تبدل من الهاء بعد عين أو حاء». (٣٢)

(٢٦) ابن الحنبلي - بحر العوام: ٩٥.

(٢٧) المصدر السابق: ٢٧ (المقدمة).

(٢٨) المصدر السابق: ٩٦.

(٢٩) المصدر السابق: ٩٩.

(٣٠) المصدر السابق: ١٠٠.

(٣١) المصدر السابق: ١٤٤.

(٣٢) المصدر السابق: ١٦٣.

ويلحظ أن هذه الكلمات التي أوردناها كلها مما يشيع في لهجة عامة الشام إلى يومنا هذا.

وغالبًا ما يسند المؤلف رأيه بأقوال أئمة اللغة كالخليل وابن جني وابن مالك.

٤- دَفَعُ الإِصْرَ عن كلام أهل مصر للشيخ يوسف المغربي (١٠١٥هـ):

«وذكر المؤلف سبب تأليف الكتاب مرات متعدّدة متشابهة، وذلك هو دَفَعُ ما يوجّه إلى العامية المصرية من نقد، وإثبات أنّ ما ينطق به أهل مصر، صَحِيحٌ عَرَبِيٌّ، أو قريب من الصّواب». (٣٣)

لم يَحَقِّقْ مُقَدِّمُ الكتاب وناشره هذا الكتاب كاملاً، فما قدّمه نُسخةٌ مُصَوِّرةٌ عن مخطوط الكتاب. ولكنّه - وإن لم يَحَقِّقْ الكتاب بتمامه كما وعدنا - استخلص الكلمات التي يَدْفَعُ عنها المؤلفُ الإِصْرَ ويعُدّها صحيحةً، وقد رَبَّهَا أَلْفَبَائِيًّا، وهي ليست كذلك في الأصل.

بلغت هذه الكلمات نحو (١٤٠٠) كلمة. ونحن، وإن كنا لم نقف تمامًا على منهجه في البحث والتأليف، لأن الكتاب لما يَحَقِّقُ كلّه، نخلص من مراجعَةِ دليل كلماته إلى أن المغربيّ:

- يرى جواز صيغة (اتَّفَعَلَ) الفاشية في مصر في نحو قولهم (اتَّرَسَمَ).
- يقبل القلب المكاني في كلمة (اسْتَنَّانِي) بمعنى تَمَهَّلَ عليّ أو انتظرني.
- يقبل الكلمات التي لم ترد في المعاجم مما شاع على ألسنة العامة نحو كلمة (البُرْغَل).
- يقبل الإبدال اللغوي كما في كلمة (بَعَزَقَ) المبدلة غالبًا عن بَعَثَقَ.
- يقبل الزيادة غير القياسية تمامًا في الأفعال من نحو قولهم (شَعَّلَل) بمعنى أَشْعَلَّ أو اشتعل.

(٣٣) يوسف المغربي - دفع الإصر عن كلام أهل مصر: ١٢ (مقدمة المحقق).

- يقبل ما حَرَفْتَه العامة كثيراً نحو (جداية) بمعنى (بجاني).
- يقبل الكلمات المعرَّبة من نحو (خاتون) للسيدة ذات القدر. (٣٤)
- ولكن الغالب على الكتاب الكلمات الصحيحة أو التي لها وَجْهٌ مقبول في العربية. وإذا كان كتاب المغربي (دفع الإصر عن كلام أهل مصر) لم يصل إلينا محققاً، فقد وصل إلينا مختصره الذي هو (القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من كلام العرب)، لمؤلفه محمد بن أبي السرور (١٠٨٧هـ) والذي حققه السيد إبراهيم سالم (٣٥).

٤) معاجم فصاح العامية في العصر الحديث:

نشطت حركة التّصنيف المعجمي في فصاح العامية في العصر الحديث. وكان وراء هذه الحركة دوافع مشروعة غالباً وهي ردُّ الاعتبار إلى الفصيح من كلام العامّة ممّا تتحاماها الخاصّة بتوهم عاميته، وتتواصى بالعدول عنه إلى بدائل أخرى، وهي حركة نَصَبُ في إطار التجديد اللغوي وتيسير التواصل، لأنَّ «الكشف عن الألفاظ الفصيحة وتثبيتها لا يقلُّ أهمية عن إصلاح الألفاظ الفاسدة المحرّفة». (٣٦)

وأهم معاجم فصاح العامية في العصر الحديث ما يلي: (٣٧)

١- تهذيب الألفاظ العامية للشيخ محمد علي الدسوقي:

وقد جعله المؤلف في أقسام: قسم للعامّي الفصيح، وقسم للقريب من الفصيح، وقسم للدخيل. يقع الكتاب في جزأين، ويُعدّ أوفى وأدق ما كتب في موضوعه. (٣٨)

(٣٤) المصدر السابق - دليل كلمات الكتاب في الفهرس.

(٣٥) محمد بن أبي السرور - المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من كلام العرب. تح السيد إبراهيم سالم - دار الفكر العربي - القاهرة - ١٩٦٢م.

(٣٦) عن د. محمد قاسم الزوكاني - مقاييس التصحيح اللغوي - ٥١٢ (رسالة دكتوراه).

(٣٧) نستعرض في هذه الفقرة أسماء المعاجم وستأتي مناقشة مضمونات بعضها في الفقرة اللاحقة.

(٣٨) صدر عن مطبعة الواعظ - القاهرة - ط ٢، ١٩٢٠م.

- ٢- معجم رَدِّ العامي إلى الفصيح للشيخ أحمد رضا: (٣٩) ويقع في نحو (٦٠٠) صفحة، قدم له الشيخ سليمان ظاهر عضو المجمع العلمي العربي بدمشق.
- ٣- القول الفصل في رَدِّ العامي إلى الأصل: لشكيب أرسلان. والغالب فيه عامية لبنان. (٤٠)
- ٤- معجم فصاح العامية لهشام النحاس، (٤١) وقد وضعه محفوراً بما كانت قدّمته لجنة اللهجات في مجمع دمشق إلى مجمع اللغة العربية بالقاهرة في دورته السادسة والأربعين عام ١٩٨١م، في قائمة تضم مئة كلمة من فصاح العامية، كما ذكر في مقدمته. ويقع الكتاب في نحو (٦٠٠) صفحة.
- ٥- معجم فصيح العامية لأحمد أبو سعد: ويقع في نحو (٥٠٠) صفحة. (٤٢)
- ٦- معجم الألفاظ العامية ذات الحقيقة والأصول العربية للدكتور عبد المنعم سيد عبد العال. (٤٣) ويقع في نحو (٧٠٠) صفحة.
- ٧- المعجم الدلالي بين العامي والفصيح للدكتور عبد الله الجبوري. وتغلب فيه عامية العراق. (٤٤)
- ٨- معجم العامي الفصيح من كلام أهل الشام للدكتور رضوان الداية. (٤٥)
- ٩- ويمكن أن يعد من هذا القبيل مجموعة الكلمات التي نشرها المجعي المرحوم (شفيق جبوري) في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق في مقالات تحت عنوان (بقايا

(٣٩) صدر عن دار الرائد العربي - بيروت - ط ٢، ١٩٨١م.

(٤٠) صدر عن الدار التقدمية - بيروت - ط ١، ١٩٨٨م.

(٤١) صدر عن مكتبة لبنان - ناشرون - بيروت، ١٩٩٧م.

(٤٢) صدر عن دار العلم للملايين - بيروت - ١٩٩٠م.

(٤٣) صدر عن دار البحوث العلمية - الكويت - ١٩٧٢م.

(٤٤) صدر عن مكتبة لبنان ناشرون - بيروت - ١٩٩٨م.

(٤٥) صدر عن دار الفكر - دمشق - ٢٠٠٤م.

الفصاح)، والتي توالى نشرها متباعدة منجّمة منذ سنة ١٩٤٢م إلى سنة ١٩٧٣م. وهي كلمات كانت تعرّف له ويعرضها على القاموس المحيط أو يلتقطها منه، ويقارن بها ما شاع لدى العامّة منها. لكنه لم يصنّفها ألفبائياً، إلا أنه كان يشرح الكلمة ودلالاتها وتطوّر هذه الدلالة بتوسّع، وكأنه بحث في تاريخ الكلمة. ومن تلك الكلمات: (فَنَك، جماش، دجّ كلامه، جحّ، كبس، نَفَش، العراضة، نَهْنَة...).

١٠- ويمكن أن يعد من هذا القبيل بشيءٍ من التسوّح معجم المستشرق دوزي (تكملة القواميس العربية) الذي ذكر فيه الألفاظ العربية التي لم ترد في سائر المعجمات. وكثير من تلك الألفاظ المستدرّكة هي مما ورد في كلام العامة، منه ما له سند لغوي سليم، ومنه ما ليس كذلك، ولكن دوزي عدّه استدرّكاً على ما في المعاجم العربية. ولا بدّ من التنبيه إلى أنه صنّفَت معاجم للهجات العامية البَحْتَة زعم أصحابها أنها ممّا يخدم العربية الفصحى، ولا نراها كذلك.^(٤٦)

٥) المآخذ على المعاجم الحديثة لفصاح العاميّة:

لا شكّ في أن معظم تلك المعاجم أدّت دوراً حسناً في النهضة اللغوية وأسهمت في الحفاظ على فصاح عاميّتنا. ولكنها لم تخلُ من مآخذ كان لها أثر سلبيّ في التثقيف اللغوي، وأظهر تلك المآخذ:

١- التّمحّل في تفصيح بعض الكلم أي ردّه إلى الفصيح:

عمد بعض المصنّفين إلى إسباغ صفة الفصاحة على بعض الكلم العامي دون سند أو دليل، مما يوهم القارئ بصواب ذلك الكليم بخلاف الواقع. ومن ذلك:

أ - ما ذُكر من أن (الأوضة) بمعنى الغرفة، عربية مشتقّة من (أض إلى أصله أي

(٤٦) منها: أصول العامية لحسن توفيق العدل، الدليل إلى معرفة العامي والدخيل لرشيد عطية،

معجم الألفاظ العامية للدكتور أنيس فريجة و...

رجع)،^(٤٧) مع أن الكلمة من لغة مغايرة، وكذا كلمة (فَنَش) بمعنى طَرَد من الخدمة، التي رَدَّها بعضهم إلى (فَنَش إذا استرَحَى في الأمر).^(٤٨) وكلمة (البَنك) وهي المصرف، رَدَّها إلى (البَنك وهو أصل الشَّيْء).^(٤٩)

ب- ومن هذا التمثُّل ما ذهب إليه بعضهم من رَدِّ كلمة (جَقَر) العامية، وكذا رَدِّ كلمة (جَقِم) بمعنى مشاكس إلى (شَكِم)، بالإبدال في الكلمتين،^(٥٠) ومن المتعالم أن الجيم والقاف لا تتعاقبان في العربية. ومنها كذلك كلمة (النَّرْفَزَة) التي يعيدها بعضهم إلى (رَفَز العَرَقُ إذا نبع)، مع أنها تعريب الكلمة الفرنسية (Nervosité) أي حالة عصبيَّة.^(٥١) ولعل من هذا أيضاً رَدِّ كلمة (الشَّرَاطِيط) وهي القطع المشقوقة من القماش إلى (الشماطيط) وهي القطع المتفرقة من الخيَل، مع أنها قد تُرَدُّ إلى ما هو أقرب متناولاً كأن تُرَدَّ إلى الشرط بمعنى الشَّقِّ.^(٥٢)

٢- الخروج عن النظام الصوتي العربي وخرق الهجاء العربي:

يُعدُّ هذا المأخذ أخطر ما وقعت فيه بعض معاجم فصاح العامية. ذلك أن رغبة بعض المصنِّفين الجاحمة والخطئة في تقريب الكلمة العامية إلى القارئ، وتقديمها على الصورة التي تنطقها عليها العامَّة في بلده أو محيطه، أغرَّتهم بأمرين:

الأول: وَضَعُ رموز للحركات التي ليست في العربية الفصيحة، كأنَّ يرمزوا إلى الضمَّة

(٤٧) د. عبد الله الجبوري - المعجم الدلالي بين العامي والفصيح: ٥.

(٤٨) المصدر السابق: ١٣٠.

(٤٩) المصدر السابق: ١٣.

(٥٠) أحمد رضا - قاموس رد العامي إلى الفصيح: ١٠٢.

(٥١) المصدر السابق: ٥٤٩.

(٥٢) المصدر السابق: ٢٨٨.

المفخّمة بالرمز() نحو كلمة (روضة).

والثاني: أن يُدخلوا أحرفًا جديدة على الهجاء العربي، فأدخلوا ثلاثة أحرف تنويحًا على الجيم هي (ج) بثلاث نقاط، و(ج) بنقطتين و(ج) بهمزة تحتها، ليميزوا بين نطق الجيم. كما أدخلوا ثلاثة أحرف تنويحًا على القاف وهي (ق) بنقطتين تحتها، و(ق) بهمزة فوقها ليميزوا بين نطق القاف همزةً أو كافيًا مجهورة كالكاف الفارسية.^(٥٣)

لقد وقع هذا المصنّف، في خطأين قاتلين: هما خرق النظام الصوتي العربي كما ذكرنا، ثم التّفعيد لكتابة العاميّة، فكأنه يمدّ يدًا لمن يدعو لتجذير العاميّة لغة، لأن كتابة أي لهجة وتفيعيدها يعني تحولها إلى لغة مستقلة سوف تنفصل عن أمّها الأصليّة طال الزمن أم قصر. إننا ننكر أشدّ الإنكار مثل هذا الانحراف اللغوي وندفعه بما أوتينا.^(٥٤) ولقائل أن يقول: ولكن كيف نقرب هذه الكلمات لنطقها العامي؟ والجواب أن ذلك يكون بالاستعانة بعبارة مفسرة كأن نقول: يُعطّش بعضهم الجيم ويُروّيها آخرون. أو (قاف تنطق كالكاف المجهورة...) وهكذا، وهذه هي طريقة العرب القدماء في تقريب النطق، كما في الإماله أو التفخيم أو التمييز بين أنواع الهمزة المحقّفة أو المخفّفة أو بين بين.

ويجدر التنبّه إلى أن هذا التغيير في نطق بعض الأحرف كالقاف والجيم والأحرف اللثوية، ليس عامًّا في الوطن العربي، فما يُعيّر في بلد عربي قد يُنطق على أصله في بلد آخر، فإذا كنا في دمشق نبدل الثاء (تاءً) فإن أهل الجزيرة في الشام، وأهل الخليج ينطقونها من مخرجها الصحيح، وإذا كنا في دمشق نبدل القاف همزة، فإن أهل جبل العرب القريب من دمشق ينطقونها من مخرجها الصحيح، وإذا كنا في الشام نميل كسرة الباء في نحو (بيروت)، فإن أهل بيروت أنفسهم لا يميلونها.

٣- التّرويح للعامي للبحث والمرتجل والدخيل:

(٥٣) د. عبد المنعم سيد عبد العال - معجم الألفاظ العامية ذات الأصول العربية: ٢١ - ٢٣.

(٥٤) لمزيد من التفصيل ينظر: د. ممدوح خسارة - منهجية تعريب الألفاظ في القلم والحديث: ٤٤.

من المعروف أن لكل بحث مزالق قد يقع فيها الباحث إن لم يكن دائم اليقظة والتنبُّه للغرض الأساسي من بحثه، فلا تغريه الرغبة في تضخيم البحث وتوسيعه في الخروج عن ذلك الهدف، وقلَّما نجح باحث من هذا المحذور، لأنه، وقد تعب في جمع مادة بحثه، يصبح ضنيناً بأن يذهب بعض هذا الجهد هدرًا فلا يفيد منه في مؤلَّفه لا سيما إن كان معجمًا، ممَّا يجزُّه إلى الخروج عن الهدف والإساءة من ثمَّ إلى بحثه. هذا إذا افترضنا حسن النيَّة - ونحن نقدِّمه دائمًا - ولكن قد يكون ذلك الخروج متعمدًا لأغراض يخفيها الباحث عن القارئ. وقد وجدنا من هذا القبيل - أعني الرَّجَّ في الفصيحة بكلمات ليس منها بِضَرْبٍ من التكثرِ وادعاء الاستقصاء - الكثير، ممَّا فتح باب العربية لكل ما هبَّ ودبَّ من الكلم، لإيهام القارئ أنه من فصاح العامية. ومن ذلك:

أ - عدُّ كلمات عامية بحتة في الفصح. ونعني بالعامية البحتة ما ليس له جذر في العربية أو غَيْرُهُ العامة تغييرًا لا يُلمح معه أصله، مثل كلمة (مُبْطَبْطُ) بمعنى مُتَرْفٍ ومُتَأَنِّقٍ، ومثل (بَجْم) بمعنى هَمَلٍ في قولهم (جماعة بَجْم)، وليست كذلك في المعجم العربي.^(٥٥)

ب - إقحام المعرَّب والدَّخِيل في عداد العامي الفصح. والمعروف أن من الكلم الأعجمي ما عُرِّب على طريقة العرب فصار جزءًا من لغتهم، ومنه ما بقي على حاله فبقي دخيلًا، فَعَدُّ كُلِّ من النوعين عاميًا ليس صحيحًا، فمن الأول (بوليسة التأمين أو الشَّخْن)، وقد دخلت المصطلحات الجمركية والمالية معرَّبة. ومن الثاني كلمة (فَنَش) بمعنى أنهى عمله أو طرده، التي ما زالت دخيلة من الإنكليزية. وقد يُقال وما يمنع أن تكون (فَنَش) معرَّبة، وهي قد جاءت وفق النظام الصوتي العربي؟ نقول: إنما يُعَرَّب ما ليس له مقابل في العربية أو عند شيوعه شيوعًا مطلقًا، وليست هذه الأخيرة منها.^(٥٦)

ج - ومن إدخال المرتجل في عداد العامي الفصح قولهم: (شَوْبَش والشَّوْبَاش)

(٥٥) شكيب أرسلان - القول الفصل في رد العامي إلى الأصل: ٣٧.

(٥٦) د. عبد الله الجبوري - المعجم الدلالي بين العامي والفصح: ١٣٠.

بمعنى إعلان ما يُهدى للعروسين وتحيّة المهدي. (٥٧)

٤- إقحام العبارات العامية الملحونة في عداد الفصح:

من الواضح أننا عندما نبحث في فصاح العامية، فإنما نعني بذلك الكلمات المفردة لا العبارات والتراكيب، لأن العبارات والتراكيب لا تشكو من تغيير طفيف في بنية الكلمة حرفاً أو حركةً، وإنما تشكو من خروجها عن النظام النحوي، إعراباً وتركيباً، ولكن بعضهم أدخل العبارات الملحونة في معجمه، مما يوهم القارئ أن لها وجهاً من الصحة يُسوِّغ استعمالها على تلك الشاكلة، ومن ذلك قوله: (حالة فلان يتأسّي... أو الأسّي ما يبتسّي)، (٥٨) فأدخل الباء على الفعل. ومن المعروف أن النظام النحوي أثبت أركان المنظومة اللغوية، فلا يصح المس به حتى للتمثيل. نعم وردت عبارات عند القدماء تطابق تماماً ما في عامية المعاصرين، فهذه لا بأس في ذكرها، نحو قولهم للجائع: (نقّت عصافير بطنه) أو قولهم لمنكر المعروف (ملحّه على ذئله)، ذلك أنها سليمة نحويًا ودلاليًا.

٦) نحو معجم مقبول لفصاح العامية:

إذا كانت معاجم فصاح العامية والتفصيح اللغوي ممّا يُسهم في الحفاظ على اللغة، لأن فصاح العامية جزء مهمّ من اللغة، والحفاظ عليها - من ثم - حفاظ على اللغة. فقد قامت تلك المعاجم بتلك المهمة إلى حدّ ما. ولكن ما شاب بعضُها من شوائب وما أخذ عليها من مأخذ جعلنا نترسّم شروطاً وضوابط يُحسّن بمعاجم الفصاح والتفصيح الأخذ بها أو مراعاتها. ومن هذه الضوابط:

١- الالتزام بالكلم الفصح مما أوردته معاجم اللغة:

(٥٧) د. عبد المنعم عبد العال - معجم الألفاظ العامية ذات الأصول العربية: ٣٣٤.

(٥٨) د. محمد رضوان الداية - معجم العامي الفصيح: ٣٤.

فلا يجوز أن نَعُدَّ من فصاح العامية إلا الكلمات التي ورد ذكرها في المعاجم اللغوية أو في نصوص أدبية ولغوية موثقة لعلماء وأدباء، وتدليلاً على صحة الالتزام يجب ذكر الكلمة كما وردت في المعاجم مَضْبُوطَةً، وما وَرَدَ حولها من دلالات النص، ثم عرض الكلمة العامية المعاصرة على الكلمة المعجمية ودلالاتها، فإذا تطابقتا لفظاً وفي بعض الدلالات كان ذلك علامة على صحتها وفصاحتها، أما أن يقول باحث: (هي كذلك في اللغة)، دون ذكر النص المعجمي أو اللغوي فذلك ما يخل بالبحث ويُلبَّس على السَّمْع. ومن ذلك ما ذُكِرَ من أن «العُْبُّ فراغٌ بين الثُّوبِ والجسد... وهو يصلح لأن توضع فيه بعض الأشياء».^(٥٩) نَعَمْ، هذه الدلالة صحيحة وللکلمة دلالات أخرى من العامية، ولكنها ليست في لسان العرب ولا القاموس المحيط. وكذا قوله: «شَرَّشَ: ضَرَبَ جَذُورًا فِي الْأَرْضِ أَي أَقَامَ وَلَمْ يَبْرَحْ... فِي الْمَعَاجِمِ الشَّرَّشُ أَعْرَابِيَّةٌ سَرِيَانِيَّةٌ». ^(٦٠) نعم، هذه الدلالة صحيحة والكلمة من العامية ولكنها ليست في لسان العرب ولا القاموس أصلاً. أجل نحن لا ننكر أن الكلمتين - كما ذكرنا - شائعتان في الشام بدلا لتيهما الواردتين، ولكنَّ عَدَّهْمَا فِي الْعَامِي الْفَصِيحِ يُوْهَمُ أَنَّهُمَا فَصِيحَتَانِ. ونحن لا ننكر أيضاً ضرورة تفصيح أمثال هذه الكلمات وإدخالها العربية، ولكن ذلك في هذا العصر هو حَقُّ المؤسسات اللغوية - على ما قد يُقال فيها - وليس حَقُّ الأفراد.

ثم إن عبارة (وهي في المعاجم كذا...) التي يعلِّلون بها فصاحة بعض الكلمات وصحتها عبارة غامضة، فلا ندري ما تلك المعاجم وما مَدَى موثوقيتها، فإذا ذكر (دوزي) مثلاً «بَحَّشَ: ثَقَّبَ»،^(٦١) فلا يعني هذا أنها دخلت المعاجم العربية، لأن (دوزي) أراد أن يستدرك على المعاجم العربية ما شاع في العامية المعاصرة وفق منهج وصفي يرى

(٥٩) د. محمد رضوات الدَّاية - معجم العامي الفصيح: ٣٥١.

(٦٠) المصدر السابق: ٥٦٩.

(٦١) دوزي - تكملة المعاجم العربية: ١: ٢٤٩.

أن اللغة هي ما يتداوله الناس دون النظر في سلامة الكلمة أو صحتها لغويًا. ونحن لا نقلل من جهد دوزي وعمله، ولكن كلماته تصلح لأن تكون مادة للبحث فيما يمكن قبوله في اللغة العربية المعاصرة، أو تجويزه ولكن بعد دراسة كل كلمة على حدة، ومن ذلك، أي النسبة إلى المعاجم دون ثبوت، قول بعضهم: «يَحْنُ بمعنى حَزَرَ...»^(٦٢) وحرَقَص بمعنى غَلَى على النَّار^(٦٣)»، وهي ليست كذلك في المعاجم. وربما لا ينسئ لنا أن نقف عند هاتين الكلمتين لولا أن المؤلف سمى كتابه (القول الفصل في ردّ العامي إلى الأصل)، مما يوهم القارئ أن ذلك هو الأصل.

لكن هذا لا يُلغِي حقيقة أن هناك كلمات حَزَفَتْها العامّة وأدخَلت عليها تغييرًا في الأحرف أو الأصوات أو الدلالة. كما أن هناك كلمات شائعة في العاميّات العربية، بعضها من اللغات الجزيرية في بلاد الشام وبعضها من اللغة القبطية في مصر، وبعضها من اللغة الأمازيغية في المغرب العربي، فهل نتجاهلها وقد صار بعضها مما لا غنى عنه ودخل لغة التعليم والإدارة أحيانًا؟

نقول: في مثل هذه الحالة نرى أن يلجأ الباحث إلى واحدة من طريقتين:

الأولى: أن يقسم معجمه قسمين: يخص الأول منهما بفصاح العاميّة التي لا تغيير فيها وتستعمل بلفظها ودلالاتها أو التي فيها تغيير لا يخرجها عن الفصاحة كأن تكون لغة من لغات العرب. ويخصّ القسم الثاني بما هو قريب من الفصيحة أو شبيه بها، أو مما ليس له أصل في العربية ولكنه شائع شيوعًا طاغيًا، ليقف القارئ على الحقيقة. وهذا ما ذهب إليه الشيخ محمد علي الدسوقي في معجمه القَيِّم (تهذيب الألفاظ العاميّة). ففي الجزء الأول (ما هو صحيح من أقوال الناس ويُظنُّ أنه عاميٌّ) ذكّر كلمات مثل:

(٦٢) شكيب أرسلان - القول الفصل في رد العامي إلى الأصل: ٤١.

(٦٣) المصدر السابق: ٩٣.

(العَرْدَةُ وهي سوء الخُلُق)،^(٦٤) (والشُّقْدُف: مَرَكَبٌ معروف في الحجاز)،^(٦٥) (وشَكَيْتُ لَغَةً فِي شَكْوَتْ).^(٦٦) وفي الجزء الثاني (ما هو محَرَّفٌ وأصله عربي)، ذكر كلمات من مثل: (تَعْبَانٌ وأصله تَعَبٌ)^(٦٧) (وشَقْلَبُهُ بمعنى صَرَعَهُ مُبَدَّلَةٌ من سَقْلَبُهُ)^(٦٨) (وخرابة وأصلها خَرَبَةٌ).^(٦٩)

والثانية: أن تُمَيِّزُ الكَلِمَةَ العامية القريبة من الفصيحة أو الشبيهة بها، بوضعها بين حاصرتين [] تنبيهًا على أنها ليست فصيحة بَحْتَةً، وأن يُشار في الشرح إلى أن تفصيحتها مَنُوطٌ بالمؤسسات اللغوية.

أما الكلمات الشائعة من لغة جزيرية ونحوها، وليس لها أصلٌ في المعاجم، فلا تورد في المِثْنَ أصلاً، بل في الحاشية، إخراجًا لها من صُلْبِ المَعْجَم. وهذه الطريقة هي التي اعتمدها في (معجم فصاح العامية من لسان العرب).^(٧٠)

٢- ضبط المدخل والكلمات الشارحة صَرَفًا وصَوْتًا:

ينظر القارئ عَامَّةً إلى المعاجم على أنها مَصْدَرٌ وَمَرْجِعٌ يُحْتَكَمُ إليه، وهذا ما يُحْمَلُ المعجميِّ مسؤولية خطيرة تجاه لغته وتجاه القارئ. ومنعًا للْبَسِ والخَلْطِ، لا بدَّ من ضَبْطِ المداخل والكلمات الشارحة بدقة صوتًا وصَرَفًا. ومن المعروف أن النظامين الصوتي والصرفي هما أثبت أركان منظومة اللغة العربية، ويفضل هذا الثبات اتصل حاضر اللغة

(٦٤) محمد علي الدسوقي - تهذيب الألفاظ العامية ١ : ١٠٤ .

(٦٥) المصدر السابق ١ : ٩٧ .

(٦٦) المصدر السابق ١ : ٩٧ .

(٦٧) المصدر السابق ٢ : ١٩ .

(٦٨) المصدر السابق ٢ : ٢١ .

(٦٩) المصدر السابق ٢ : ١٧ .

(٧٠) معجم في قيد التنضيد والطبع.

بماضيها، كما أن نظامها الصرفي وثيق الصلة بنظامها الدلالي، لذا يجب على مصنف معجم الفصح أن يلتزم الدقة ما أمكنه ذلك، لأن إهمال ضبط كلمة مثل (تبان) قد يجعلها تُقرأ (تَبَان) بفتح التاء، و(تُبَان) بضمها، ولكل منهما دلالة مغايرة تماماً عن الأخرى. وكذا كلمة (الحراق) مثلاً، فعدم ضبطها مدعاة للتلبيس هل هي (حَرَّاقٌ أم حُرَّاقٌ)، ولكل دلالة مختلفة.

كما لا بدّ من الإشارة إلى التّغيير الصّوتي إن وقع في الكلمة، لا ليلتزمه القارئ، بل ليعرف نطقه السليم له إن هو أراد التزام الأصل وتصحيح لغته، وهو ما نسعى إليه. لكن ضبط التغيير من مثل الإمالة أو التفخيم، أو تغيير المخارج كما يقع لحرفي القاف والجيم وغيرهما، لا يكون بإضافة رموز جديدة كما اقترح بعضهم للإمالة أو التفخيم، ولا بإضافة رموز لأحرفٍ جديدةٍ في العربية من نحو الفاء بثلاث نقاط وغيرهما، وإنما يكون الضبط بعبارات مُوضحة على طريقة القدماء كأن نقول مثلاً بالحاء المهملة أو الشين بثلاث نقاط، أو بإمالة الفتحة في نحو (بديت)، أو تفخيم الواو في نحو (الجمّلون). لأن إضافة رموز وأحرف إلى الهجاء العربي هو خرقٌ للبنية الصوتية التي هي من أركان النظام الصوتي العربي، كما يسهم في تقعيد العامية مما يمهد لتحويلها إلى لغة، وهذا ما يجب علينا دفعه بكل حزم كما ذكرنا آنفاً.^(٧١) وإذا فُتح باب الرموز للحركات والأحرف المغيرة في كل لهجة عربية، فسنبصح أمام أشكال من الكتابة العربية بعدد اللهجات المحلية، وفي هذا تمزيق للعربية أي مُمزّق.

٣- عدُّ لغات العرب أي لهجاتها القديمة كلّها حُجّة والقياس عليها فيما

شاع من كلام العامة.

(٧١) لمزيد من التفصيل يُنظر د. ممدوح خسارة - منهجية تعريب الألفاظ في القديم والحديث:

مما يَحْسُنُ بمعاجم فصاح العامية أن تُعَدَّ لغات العرب أو لهجاتها كلها مقبولةً، فلا تخطئ ما جاء موافقاً لواحدة منها من الكلم العامي.

- فإذا أجاز الحجازيون وهذيل تسهيل الهمزة، جاز لنا أن نقيس عليها تسهيل العامة لها في نحو (راس بدل رأس، وشان بدل شأن وضوى بدل ضوؤاً).

- وإذا أجازت تميم فك الإدغام، جاز لنا أن نتقبَّل ما تُفك العامة إدغامه من نحو قولهم: (ثوب ماحِج) بدل ماح، أي مُنَجَرِد اللون.

- وإذا أجازت تميم إبدال الظاء ضاداً في كلمة (الضَّهْر) بدل (الظَّهْر) لم يجوز لنا إنكارها على العامة.

وإذا أثت طيئ وأسَد الصفة (فَعْلان) على (فَعْلانة) فقالت (فرحانة وحرزانة) بدل فَرَحَى وحرزَى، لم يصح لنا إنكارها على العامة.

- وإذا أبدلت ربيعة الذال دالاً في كثير من مفرداتها فقالت (الدَّكْر) بدل الدَّكْر لم يجوز رُدُّها عند المعاصرين.

على أن ننبه دائماً على أن هذه لغة قبيلة بعينها، وليست اللغة العربية العدنانية القياسية، وأن ننبه على أننا نقبل في فصاح العامية المرجوح والمفضول ولكن في مستوى الحديث اليومي الشفاهي، أما في المستوى البياني الكتابي فلا يقبل إلا الراجح والأقيس وبذلك يتفاضل الخواص.

ومع أننا نرى أن لغات العرب كلها حجّة، وأن المتكلم وفق واحدة منها مُصيب، لكنه مُخطئ لأجود اللُّغَتَيْن^(٧٢)، وأنه لا يمكن أن نحمل الناس كلهم على الأجود والأفصح، فإننا حفاظاً على وحدة اللسان العربي والعمل على قياسية القواعد النحوية واللغوية علينا أن ننبه دائماً على استعمال الأفصح إن أمكن، لأن

(٧٢) ابن جني - الخصائص ١: ٤١١.

غرضنا في معاجم فصاح العامية أن نرتفع بمستوى الخطاب اليومي الشفاهي إلى مستوى الخطاب البياني الكتابي ما أمكننا ذلك. في معاجم فصاح العامية لا يصح لنا ردُّ كلمة على أنها لغة رديئة أو لُعيَّة ما دام العامة يستعملونها، ولكن يحق لنا أن نوجّه إلى صيغة أقيس. ولا يجوز لنا أن نكون أضيق عطناً ولا أحرص من شيخ العربية الأول الخليل بن أحمد الفراهيدي عندما قال له رجل: «أخبرني عمّا وضعت مما سميت عربيّة، أيدخل فيه كلام العرب كله؟ فقال: لا، فقال: كيف تصنع فيما خالفتك العرب فيه وهم حجة؟ فقال: أحمل على الأكثر وأسمي ما خالفني لغات». (٧٣)

ولكن مما يؤسف له أن التصحيح اللغوي في هذه الأيام صار - إلا في حالات قليلة - مهنة من لا مهنة له من المتعلمين والمتقنين، فهذا مدرّس يُصعّف ما لا يحفظ، وذاك موجه في الثانويات يخطئ ما لا يتفق ومعرفته المحدودة، وآخر أستاذ جامعي يبغى - بتشدّده وتصبّغه - إلى التميّز سبيلاً، مع أن التصحيح اللغوي إفتاء، فكما لا يجوز لأي دارس علم شرعيّ أن يفتي في أمور الدين، كذلك لا يجوز لأي دارس للعربية أن يفتي في أمورها، يجب أن تُترك هذه المهمة للمؤسسات اللغوية التي أدّى تقصيرها في واجباتها إلى أن يتصدى للتصحيح اللغوي من يعرف ومن لا يعرف. وكثيراً ما كان يشكو طلبتنا في المقابلات الشفهية والاختبارات من أنهم باتوا في حيرة من أمرهم لتضارب فتاوى اللغويين وأشباههم.

٤- عدُّ الاشتقاق اللغوي بظواهره الأربع: الإبدال والقلب والإلحاق والنحت عند المعاصرين مقبولاً في أشباه فصاح العامية، كما في قول بعض العامة

(كَبْتَل الطَّيْن) والأصل (كَتَل)، وقولهم (الدَّغْمَرَة) لهضم الحقوق مقلوبة من (العَدْمَرَة)، وقولهم: (جَعَوَدَ الشَّعْر) بمعنى (جَعَدَهُ) إلحاقاً للثلاثي (فَعَل) بالرباعي المجرّد (فَعُول) على مثال (جَهَرَ وَجْهَهُ). نقول أشباه الفصاح، لأن تفصيح اشتقاق المعاصرين مرهون بتقرير المؤسسات اللغوية العربية، بخلاف اشتقاق القدماء الذي يُعدُّ فصيحاً كقولهم: (أَزَّ وَهَزَّ، وَدْهَشَ وَشُدَّ)، فإذا أُقِرَّت اشتقاقات المعاصرين صارت من الفصاح، وأعْظِم بالاشتقاق اللغويّ منجماً ثراً للتنمية اللغوية. ولكننا نرى أن إقرار اشتقاقات المعاصرين اللغوية مشروعٌ في حالتين:

أ- ضرورة الاصطلاح العلمي. فللعلميين الحق في استعمال هذه الظواهر اللغوية، فإذا أجازت الضرورة الشعرية أن يقول الشاعر (منا) ويعني بها (منازل)^(٧٤)، و(الحجبي) ويعني بها (الحمام)^(٧٥)، فالضرورة الاصطلاحية العلمية بالأولى.^(٧٦)

ب- في حال الشيعو المطلق. ونعني بالمطلق، شيعو الكلمة المشتقة لغويّاً في معظم الأقطار العربية لا في قطر واحد أو قطرين منها فقط، وهذا ما يتطلب دراسة كل كلمة على حدة.

ويلاحظ أننا اشترطنا هاتين الحالتين لتجوز الكلمات التي يؤدي إليها الاشتقاق اللغوي بأنواعه عند المعاصرين، دون الاشتقاق الصرفي، لأن هذا الأخير قياسيٌّ ولا حاجة لإقرار ما يؤدي إليه، كما يذهب بعض المتشدّدين الذين لا يجيزون منه إلا ما ورّد عن العرب في معاجمهم، وكأنّ المعاجم حوت كُلاً ما قالته العرب، وكأنهم لم يسمعوا قول أبي عمرو بن العلاء: «ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو وصل إليكم

(٧٤) د. عبد الحفيظ السطلي - العجاج حياته ورجزه: ٤٥٦.

(٧٥) المصدر السابق: ٤٥٤.

(٧٦) د. محمد هشام الخياط - المصطلحات ونظرية الضرورة العلمية - الموسم الثقافي الأردني السابع: ٣٨.

كلُّه لوصل إليكم علمٌ كثيرٌ». (٧٧)

٥- قبول التطور الدلالي للكلمات:

من المعروف أن النظام الدلالي - في كل اللغات - أكثر أركان المنظومة اللغوية قابلية للتطور، ويندر أن نجد كلمة واحدة باقية على دلالتها الأصلية الأولى، فقد عمل المجاز في معظم الكلمات عمَله فَعَيَّر معناها، دون أن تَنَبَّت الصلة بينها وبين دلالتها الأصلية القديمة. لقد أحدثت المصطلحات الإسلامية فتحًا جديدًا بإعطاء الكلمات العربية الجاهلية معاني! لم تكن لها، كالحجَّ والجهاد والشَّهادة والعامل والحُسبة... مما حمل أحمد بن محمد الرازي (٢٢٨هـ) على تصنيف كتابه (الزينة في الكلمات الإسلامية). ولو وَقَفْنَا في تفسير الكلمات عند دلالتها القديمة لجمدت اللغة، (فالمعهد) عندنا غير المعهد عند القدماء، و(الإذاعة) عندنا غيرها عندهم... وصار التطور الدلالي في عداد البديهيَّات التي لا تحتاج إلى دليل. والمطلوب من معاجم فصاح العامية أن تفتح بابها للدلالات الجديدة، فإذا كانت الدلالة الجديدة للكلمة جليَّة الصلة بالدلالة القديمة عُدَّت من الفصاح، كما في كلمات من مثل (جامعة، هيئة، نَقْد، غَوَاصَة...) وإذا ابتعدت عنها كثيراً عُدَّت من أشباه الفصاح التي يحتاج تفصيحها إلى إقرار المؤسسات اللغوية من مثل (مكوك) لسفينة الفضاء و(التَّصَّاب) بمعنى المحتال.

٧) أثر معاجم فصاح العامية في التجديد اللغوي:

إن المآخذ التي ذكرت على بعض معاجم فصاح العامية لا تقلل كثيراً من الأثر الإيجابي الذي تركه هذه المعاجم في حركة التجديد اللغوي التي ترمي إلى تيسير تعاطي العربية تواصلًا وأداءً، ومن أهم هذه الآثار:

١- ردُّ الاعتبار إلى الكلمات الفصيحة التي تستعملها العامة وتتحامها

(٧٧) ابن سلام الجهمي - طبقات فحول الشعراء ١: ١٧.

الخاصة لتوهم خطئها.

إن ما يدعو لاستبقاء فصاح العامية أمران:

الأول: أن شيوع الكلمة من علامات فصاحتها، فمن شروط الفصيح في كتب البلاغة خلوه من الغرابة. وشيوع اللفظ بين القوم يجعله أهلياً لا غريباً. إن اللغويين يجهدون في إرساء وإشاعة الكلمات الفصيحة في كلام الخاصة وطلاب العلم، فهل يجوز أن تُبعد ما قد شاع منها وانتشر؟ أليس في هذا بُعدٌ عن الصواب وخروج عن المنطق السليم؟

الثاني: أنه إذا أبعدها من عامية العرب فصاحتها لتوهم خطئها، فكم سنحرم لغتنا من المفردات السليمة، وكم سيبقى لنا من لغتنا؟ إننا إذا سايرنا المتشددين الذين سمّاهم ابن مكي الصقلّي (بالمتفصّحين)، فلن يبقى لنا من لغتنا إلا غريبها ومخبوء معاجمها. وإذا كنا نسعى إلى إحياء القديم غير المتداول، أليس الأحرى استبقاء المتداول السليم والباقي على قيد الحياة؟ إنه لو جمعنا ما ورد في معاجم فصاح العامية من كلمات لأزيت على الألفين أو ثلاثة الآلاف، ما عدا مشتقاتها، فإذا طرّدنا هذه الكلمات من جمى اللغة، فكم سيبقى للعامة؟ علماً بأن مفردات العامة أو ما يسمّى مُعجمها لا تزيد على هذا العدد. ولا يجوز أن ننسى أن العامية هي التي احتضنت الفصحى وحافظت على صلتنا بها في أوقات الشدائد وأعصر الانحدار، فعندما تعرضت الفصحى في الجزائر لمحنة الفرنسة وحُرّم تعليمها، نهضت العامية الجزائرية بمهمة الحفاظ على الهوية الجزائرية، إذ العامية ما هي إلا مستوى من مستويات الخطاب اللغوي القومي.

إن الحفاظ على فصيح العامي هو حفاظٌ على ثروة لغوية لا يكلفنا نشرها شيئاً. ومما يزيد في تمسكنا بفصاح العامية أن معظم تلك الكلمات شائع في كثير من الأقطار العربية، وأمامي الآن معجمان من قطريين عربيين، وفي نظرة عَجلى لما جاء في حرف

الهمزة فيهما نجد أنهما يتفقان في نحو ٨٠% من مادتهما. أي إن هذه الكلمات تمثل القاعدة الأساسية للتفاهم بين عوامّ العرب، فإذا خسرت هذه القاعدة بمحاربة مفرداتها السليمة فسوف يضطر العامة العرب إلى ترجمان. إن الاحتفاظ بفصاح عاميتنا يعني - ببساطة - ألا نترك عربيتنا تتأكل بأن يُؤخذ الصالح منها بجريرة الطالح.

٢- رفع مستوى لغة الخطاب اليومي الشفاهي وتقريبه من مستوى لغة الخطاب البياني الكتابي:

إن الوصول إلى مستوى من الخطاب اليومي الشفاهي قريب من مستوى الخطاب البياني الكتابي وردم الهوة بين لغة الشفة ولغة القلم - كما هي الحال في اللغات المتقدمة - يقوم على أمور:

- الأول:** استبقاء المفردات الفصيحة في العاميات العربية وتبرئتها مما وُصِفَتْ به من خطأ.
- والثاني:** تهذيب المفردات القريبة من الفصيحة في العاميات وفق قواعد العربية، واستعمالها في الحديث اليومي، فما أيسر أن تشدّب كلمة (تار أو طار) وتعاد إلى أصلها (تأر)، أو أن تُهدّب عبارة (جلتُ الدائن على فلان) إلى (أحلّته على فلان).
- والثالث:** عزو العامية بالمفردات الفصيحة المعجمية، إذ إنَّ تطعيم لغة الحديث اليومي بمفردات سليمة جديدة سوف يرفع من مستوى تلك اللغة ويعمل على شيوعها. ونلاحظ - برضا وسرور - أن مفردات فصيحة كثيرة بدأت تغزو العامية وتصبح جزءاً منها، فليس بإمكان أي متحدث بالعامية الاستغناء عن مفردات فصيحة من مثل (بريد، طيارة، إسعاف، حادث، طابع، الدور، الجريدة..). ولعلّ هذا ما كان يرمي إليه الشيخ عبد الله العلابي في قوله: «ونحن نقترح ترقية العامية، على معنى غزوها بالمفردات الفصحى، وفي الواقع فإنني أرى شيئاً من هذا أتى عَرَضاً بانتشار الصحافة العربية، حتى

بدت العامية العربية أفصح من عربية (الجبرتي) الفصحى التي استعملها لغة تأليف،^(٧٨) على حدّ عبارته.

ولعلنا واصلون بذلك إلى مستوى من الخطاب اليومي الشفاهي يرتفع عن ركافة العامي البحث وينأى عن غرابة بعض الفصيح ونَعَسْره.

٣- رَصْدُ النُّطُورِ الدَّلَالِيِّ لِلأَلْفَاظِ العَرَبِيَّةِ وَالتَّمْهِيدُ لِتَأْصِيلِهَا:

إن الباحث في فصاح العامية ومعاجمها سوف يرى أن كثيراً من الكلمات العامية الفصيحة قد اكتسبت معاني جديدة ودلالات تناسب والعصر الذي نعيش، وصارت بدالاتها الجديدة مما لا غنى عنه لحسن التواصل بين أبناء الأمة. وواجب تنمية اللغة وتطويرها يفرض علينا دراسة تلك المفردات كُلِّ على حدة، وفي ضوء علم الدلالة وسنن العربية في التوليد والتسمية. وإذا كان ليس من حقّ واضعي معاجم الفصاح أن يقرروا قبول الدلالات الجديدة للألفاظ العربية، فإنّ من واجبهم تسليط الضوء على هذه الدلالات والطلب إلى المؤسسات اللغوية دراسة تلك الألفاظ ودالاتها المستحدثة في إطار المنظومة اللغوية العربية، وإقرار ما يمكن إقراره وردّ ما لا يتوافق وقوانينها. ونحن ذاكرون بعضاً من الكلمات الشائعة بدلالات في العامية لم يذكرنا المعجم بها، مما لا بُدّ من إقراره، ومن هذه الدلالات الجديدة:

- جاء: «التَّعْتِيمُ: السَّيْرُ فِي العَتَمَةِ» وتطورت دلالتها فصارت بمعنى إخفاء الأمر والتكتم عليه، وكذا بمعنى جعل الشيء أسود قائماً.

- جاء: «الدَّالِيَةُ: المُنْحَنُونَ [الدولاب] تديره البقرة.. والدَّوَالِي عنب أسود غير حالك.» والعامية تستعملها اليوم لشجرة العنب أو لما يُعَرَّش عليه العنب.

(٧٨) عبد الله العلايلي - مقدمة لدرس لغة العرب: ٩٨.

- جاء: «الشَّهْرَةُ: ظهورُ الأمر في شُنْعة». ولكنها تطلق اليوم عند العامة والخاصة بدلالة مغايرة، فهي ظهور الشَّيْءِ عامَّة، لا سيما فيما هو مرغوب.

- جاء: «الْفَرْعُ: القِسْمُ» ويلحظ أن الكلمة تغيرت من حيث البنية فصارت (الْفَرْع) بسكون الفاء، ومن حيث الدلالة، إذ صارت تعني عند العامة والخاصة العُصْن من الشجرة، وهو ما لم يذكره اللسان.

- وجاء: «الكُفَّةُ والتَّكْلِيفَةُ: المشقَّةُ والتَّحْمُلُ» ولكنَّ لها عند العامة والخاصة من المعاصرين دلالةً أخرى لا سيما في ميدان الاقتصاد والإنتاج، فهي ما يُنْفَقُ على السَّلعة لإعدادها للاستهلاك.

- وجاء: «الرُّزْقَةُ: البِياضُ حيثما كان.. والرُّزْقَةُ: حُضْرَةٌ في سواد العين... وماءٌ أزرق: صافٍ». ولكن العامة والخاصة لا تعرف الرُّزْقَةَ بياضًا، بل هي لون السماء الصافية أو لون البحر.

فهل يجوز لنا أن نترك هذه المفردات لدلالاتها القديمة فقط؟ وهل يصحُّ التواصل بتلك الدلالات بين العرب اليوم؟ لا أعتقد جازمًا أن ذلك ممكن. وإن تتبع مفردات العامة وفصاحتها هو الذي وقَّفنا على هذه المفارقات.

٤- معرفة الفجوات المعجمية في لغتنا واستدراكها:

في المعاجم اللغوية العربية فَجَوَات، أي نقص في كلمات لا يمكن الاستغناء عنها، إذ صارت - شئنا أم أبينا - من صميم اللغة.

ومعظم هذه الكلمات مما دَخَلَ العربية العدنانية من أحواتها اللغات الجزيرية في الشام كالآرامية والفينيقية والنبطية، أو من القربة لها كالقبطية في مصر، والأمازيغية في المغرب العربي. ومن أمثلة ذلك:

- ليس في لسان العرب (فَرَم) بمعنى قَطَعَ.

- ليس فيه (البُرْعُل) للقمح المسلوق المحروش.
- ليس فيه (أدار) بمعنى أشرف على الأمر وسأسته.
- ليس فيه (القشّ) بمعنى عيدان القمح والشعير المكسّرة.
- ليس فيه (جَبَل) بمعنى خلط الماء بالتراب لصنع الطّين أو خلط الماء بالرمل والإسمنت ونحوه.
- ليس فيه (مَكُوك) بمعنى البكرة أو أداة الحياكة.
- ليس فيه (النَّقْد) بمعنى الورق أو المال المنقول.
- ليس فيه (سَتَل) بمعنى غرس نَبْتَةً.

وغير ذلك كثير مما غدا ضرورة يستحيل الاستغناء عنها، حتى إنّ بعض المعاجم اللغوية المعاصرة فتحت الباب لبعض تلك الكلمات؛ فقد أورد المعجم الوسيط (فَرَم بمعنى قطع، والنَّقْد بمعنى العُملة الورقية، وسَتَل، بمعنى زرع نَبْتَةً)، ولكنه - على جرأته الحميدة - لم يورد كلمات من مثل: (جَبَل) و (مَجْبَل) على شيوعها وضرورتها، ولا كلمة (كَشّ) بمعنى طَرَدَ وطَيَّرَ كقولهم (كَشّ الذبابَ والحمامَ)، ولا كلمة (سَلْحَة) للشوب الداخلي للمرأة، ولا (وَضَب) بمعنى هيأَ وأعدَّ على شيوعها الطاغوي في مصر، ولا كلمة (كَحَتَ اللُّؤُن) بمعنى جَرَدَ وبأخ...

إن تَتَبَعَ الكلمات الشائعة في العامية فصيحها ومغلوطها هو الذي يظهر لنا هذه الفجوات التي يجب سدّها، فهل يمكنه أحدٍ اليوم الاستغناء عن الكلمات التي دكّرنا أنّها ليست في لسان العرب. وبالطبع - كما كرّرنا - ليس من حق المعجمي الفرد أن يُعَدَّ أمثال هذه الكلمات من الفصاح، ولكن من واجبه أن يضع بين يدي المؤسسات اللغوية ما شاع، ومما تدعو ضرورة التواصل إليه، وأن يمهد لتفصيحها وأن يدعو لفتح أبواب المعاجم اللغوية المعاصرة لها ما دامت لا تتعارض وأصول المنظومة اللغوية العربية أو خصائصها.

٥- تبين الصيغ الصرفية الجديدة الشائعة في عامية العصر:

إن تتبّع العامية فصاحها ومغلوطها هو الذي يقفنا على الصيغ والأبنية الشائعة في العصر الحديث، ومعرفة الوجهة التي تأخذها العامة في توظيف الأبنية الصرفية والإفادة منها. وذلك للنظر فيها وإقرار ما له وجّه في العربية وردّ ما لا وجه له، ومن ذلك:

أ- يشيع الآن في العامية بناء (فَعْلان) صفة مشبّهة كثيراً، نحو (تَعبان) وفصيحتها تَعَبٌ ومُتَعَبٌ، و(مَرَضان) وفصيحتها مَرَضٌ ومريضٌ ومارضٌ. والمعروف أن هذا البناء يكثر فيما يدلُّ على الامتلاء والخُلُوّ وحرارة البطن مما لا يكون داءً نحو (شَبَعان وجَوْعان وظمان) ويؤخذ من الأفعال اللازمة على وزن (فَعِل).
ب- كما يشيع في العامية بناء (فَعِل) بكسر الفاء، صفة مشبّهة مُعَيَّرَةٌ عن (فَعِل) بفتح الفاء. نحو (وَلَدٌ جَرِكٌ وشابٌ نَشِطٌ)، ومعروف أن هذا البناء مما يدلُّ على الخَفَّة والفرح والحزن مثل (فَرِحَ وقَلِقَ)، ومعروف كذلك أن كسر الحرف الأول من لغة بعض القبائل، وليس له نظير في الفصيحة إلا (إِبِد) للأتان الولود كُلُّ عام.

ج- ويكثر في العامية إلحاق الفعل الثلاثي المجرد (فَعَل) ببناء (فَوَعَلَ) نحو: (فَوَمَع الصَّحْنُ، وجَوَزَف الأَرْضَ) على مثال (صَوَمَع البناء: دَقَّقَ رأسَهُ).
د- ويشيع في العامية بناء (فَعَلَل أو فَعَعَلَ)، وذلك بتحويل بعض الأفعال الثلاثية المجردة إليه نحو (فَرَفَحَ من فَرِحَ، وزَهَزَهَ من زها)، مع أن هذه الصيغة لم تسمع إلا في أربعة أفعال في العربية منها: دَرَبَ ودَزَدَبَ إذا ضَرَبَ، ودَهَعَ بالشَّيْءِ ودَهَدَعَ إذا زَجَرها.

هـ- ويميل العامة كثيراً إلى استعمال بناء (تَمَفَعَلَ) من مثل (تَمَرَجَلَ وتَمَرَّى) قياساً على نحو (تَمَسَّكَنَ وتَمَنَّدَلَ).
وغير هذه الأبنية كثير، والذي يدلُّنا عليها هو تتبّع فصاح العامية. وهي تنير أمام اللغويين إشكالية القياس على النادر في حال شيوعه في لغة المعاصرين. إن معاجم فصاح العامية تُظهر شيوع أبنية واختفاء أخرى، وتضع اللغويين والمؤسسات اللغوية أمام مسؤولية قرار الإباحة أو المنع.

وغير هذه الأبنية كثير، والذي يدلُّنا عليها هو تتبّع فصاح العامية. وهي تنير أمام اللغويين إشكالية القياس على النادر في حال شيوعه في لغة المعاصرين. إن معاجم فصاح العامية تُظهر شيوع أبنية واختفاء أخرى، وتضع اللغويين والمؤسسات اللغوية أمام مسؤولية قرار الإباحة أو المنع.

٦- التثقيف اللغوي:

تعدُّ المعاجم اللغوية القديمة كالصَّحاح واللسان وتاج العروس ينابيع ثرَّة للتثقيف اللغوي، لما انطوت عليه من قواعد وفوائد متناثرة في شتى علوم العربية. حتى شُغل كثير من اللغويين المعاصرين بالبحث بين متونها، فبعضهم استخرج قواعد صرفية، وآخر أحكاماً نحوية، وثالث ضوابط بلاغية وهكذا... لأن المعجمي غالباً ما كان يدل على صحَّة ما اختاره أو ما ذهب إليه محتجاً بقواعد اللغة وأصولها.

وهذا ما جرَّت عليه بعض معاجم فصاح العامية إذ يعتمد المصنّف في تسويغ بعض الكلم أو تقريبه من الفصحى، على سنن العربية لا سيما خاصية الاشتقاق اللغوي من إبدال وقلب وإلحاق ونحت. أو على لغات العرب أو على القراءات القرآنية، ومن الأمثلة على ذلك:

أ - تُسْتَحْضَر قاعدة الإبدال اللغوي لتسويغ كلمة العامية (بَعْرَق) بمعنى بَدَّد وِبَدَّر ما بيده، حيث أبدلت الثاء في (بَعْرَق) زايًا، وهي للمعنى نفسه.

ب- يشار إلى قاعدة القلب المكاني لتقريب كلمة مثل (الأهبل) العامية إذ هي - على الأرجح - مقلوبة عن (الأبله) للدلالة نفسها.

ج- ولا بُدَّ من ذكر قاعدة الإلحاق لتفسير انتقال الفعل (شَمَّ) إلى صيغة (شَمَّشَم) وهو إلحاق الثلاثي المضعف بالرباعي (فَعَّلَل)، وهو مقيس عند بعضهم.

د - ولا غنى عن التعريف بقواعد المجاز في العربية لتعليل إطلاق العامة (الجُبِّ) على شجرة التين أو الرَّمَان، وأن ذلك يعود لقاعدة تسمية الشيء بمكانه أو موضعه. والأصل أن (الجُبِّ) هو الحفرة التي يغرس فيها العنب، ولكنهم سمَّوا (شجرة التين) باسم موضعها قياساً على تسمية أهل المجلس (مَجْلَسًا).

هـ- والتذكير بجواز الاشتقاق من أسماء الذوات ضروري لتقريب كلمة (مُتَلْتَل) أي

مُكَوِّمٌ ومجتمع مثل التَّل وهو الكومة. وكذا جواز الاشتقاق من المَشْتَقَّ أو الاشتقاق المرَّكَّب، لتصويب كلمة (تَمَرَّجَح) المشتقة من (المَرْجوحة) التي هي بدورها مشتقة.

و- ولا يُعَلَّلُ كسر أول المضارع عند العامَّة في نحو (تَفْهَمُ وَتَحْسِبُ) إلا بالإلماح إلى لغة بعض القبائل التي تكسر أول المضارع والتي ما زال من آثارها كلمة (إِخَال). وكذا لغات العرب في تخفيف الهمز وتحقيقه...

ز - والاحتجاج بالقواعد الصرفية في جواز تصحيح عين الأجوف سبيلٌ لتصحيح كلمة (مَرْبِئَةٌ) لوعاء صب الزيت والقياس (مزاة) و(مَرْبِئُونَ) حملاً على مديون.

وغير ذلك كثير مما يضطرُّ المعجمي للجوء إليه. نعم، قد لا يصحُّ دائماً ما يذهب إليه مُصَنِّفُو المعاجم في تعريب العامي من الفصح، ولكن الاحتكام الدائم للقواعد اللغوية الصرفية والدلالية، وتفعيل الأصول النحوية من قياس وتعليل واحتجاج، كل ذلك يشكل ثقافة لغوية يفيد منها قارئ معجم فصاح العامية، وهذا ما يجعلها وسيلة من وسائل التثقيف اللغويِّ لغير المختصِّين بالعربية على الأقل.

وعلى الإجمال فإن معاجم فصاح العامية ذات أثر فعَّال وحميد في الحفاظ على الصحيح من كَلِمِ العربية وألفاظها، وفي فَتْحِ الباب للمولِّد السليم من مستلزمات العصر، وفي إغناء المعاجم اللغوية بالدلالات المتطوِّرة المستجدة... وأهم من ذلك أنها أهم وسيلة لتقريب مستوى الخطاب اليومي الشفاهي من مستوى الخطاب البياني الكتابي.

كتاب: أعلام مالقة أو: أدباء مالقة

(تعريف و مراجعة)

د.محمد رضوان الداية(*)

التفت الأندلسيون، من مرحلة مبكرة من مراحل حياة الإسلام في الأندلس إلى وطنهم فسجلوا أحداثه وتواريخه، ووصفوا بلادهم في كتب الجغرافية والرحلات الداخلية، والتفتوا إلى علمائهم وأدبائهم وشعرائهم فسجلوا أخبارهم وأحوالهم وأسفارهم، ودوّنوا أسماء كتبهم ومؤلفاتهم، وألّفوا كما ألّف المشارقة كتبًا خاصة عن مدنهم الكبيرة، وأمصارهم ذات الأهمية^(١).

لقد كانت الأندلس صورة مصغرة، قائمة في القارة الأوربية، ممثلة للحياة العربية الإسلامية في وجوه نشاطها الفكرية والعلمية والحضارية، ووجوه إبداع أبنائها في الصنائع، والفلاحة، والمتاجر، وسائر ألوان النشاط الفعّال.

لقد كانت دولةً إسلاميةً فيها خصائص المشرق، وفيها جوانبها الذاتية عن فنونٍ وملامح وخصوصيات استقلت بها وصارت جزءًا من (الطابع الأندلسي) الذي تميّز به أهل ذلك القطر.

وقد أشار لسان الدين بن الخطيب في فقرة من مقدّمة كتابه (الإحاطة) إلى عددٍ من مؤلفات المشارقة عن المدن العربية الإسلامية وأحوالها وأخبارها وتراجم أهل الفكر

(*) باحث في الأدب والتراث الأندلسيين.

(١) انظر: الإعلان بالتبويخ لمن ذم التاريخ للسخاوي: ١٢١ وما بعدها.

والرأي والإبداع فيها، ومنها تاريخ مدينة بُخارى، وتاريخ أصبهان، وتاريخ نيسابور، وتاريخ همدان، وتاريخ هراة... وتاريخ بغداد، وتاريخ مكّة، وتاريخ دمشق في سردٍ طويل دل على معرفة واطلاع، ثم التفت لسان الدين فذكر من مؤلفات المغاربة والأندلسيين في مدّهم، مثل تاريخ تلمسان، وتاريخ فاس، وتاريخ بلنسية، وتاريخ البيرة، وتاريخ قلعة بني يحصب، وتاريخ قرطبة، وتاريخ المرية، وتاريخ مالقة^(٢)...

- وكان كتاب لسان الدين لهذا من كتب البلدان الأندلسية القليلة الباقية، وقد طبع في أربعة أجزاء^(٣)، وضاع كتاب صديقه ابن خاتمة الأنصاري^(٤) (مزيّة المريّة على غيرها من البلدان الأندلسية)، وفُقدت الكتب الأخرى في هذا الموضوع، إلا نسخة فريدة من كتاب يؤرّخ لمدينة مالقة.

وهناك كتب تتعلق بتاريخ مالقة^(٥):

- منها كتاب قديم لابن سعدان نقل عنه ابن القُرَظِيّ في كتابه: «تاريخ علماء الأندلس».

- وكتاب نقل عنه ابن حزم (الكبير) في رسالته في فضل الأندلس لأبي إسحاق بن تسلمة القبيبي.

- تقييد في أدباء مالقة، لأبي عمرو بن سالم المالقي (ت ٦٢٠ هـ).

- كتاب في موثقي مالقة وفقهائها لأبي الأهر السبتي المالقي (ت ٦١٢ هـ).

(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة ١: ٨١ - ٨٣.

(٣) حققه أ. محمد عبد الله عنان، وصدر عن مكتبة الخانجي بالقاهرة.

(٤) توفي سنة ٧٧٠هـ، وله ديوان حققته، وطبع أول مرة في وزارة الثقافة (دمشق) وطبعته الثالثة في دار الفكر، وله كتب أخرى.

(٥) يُنظر مقدمة د. عبد الله المرابط الترغي محقق (أعلام مالقة) ومقدمة د. صلاح جرار محقق

(أدباء مالقة)، والمصادر والمراجع في حواشيتها.

- الإعلام بمحاسين الأعلام من أهل مالقة الكرام لأبي العباس أصبغ بن علي بن هشام بن عبد الله بن أبي العباس المالقي (ت ٥٩٢هـ).
- ولهذا الكتاب ذيل ألفه القاضي أبو عبد الله محمد بن علي بن الخضر الغساني، من أهل مالقة، عُرف بابن عسكر.
- ومات ابن عسكر سنة ٦٣٦ هـ قبل أن يتم كتابه المشار إليه، فأتمه، من حيث انتهى، ابنُ أخته أبو بكر بن خميس.
- وأبو بكر محمد بن خميس من رجال القرن السابع، لم تذكر التواريخ الباقية سنة ميلاده ولا سنة وفاته، وقدّر محقق (أعلام مالقة) ولادته بالعقد الثاني من القرن السابع (فالقارئ غير كافية لتحديد ذلك بدقة) وأشار محقق (أعلام مالقة) ومحقق (أدباء مالقة) إلى أن ابن خميس كان حيًّا في العقد الخامس (سنة ٦٤٢هـ) وأن المعلومات عنه أو الإشارات المفيدة إليه انقطعت بعد ذلك.
- وقد ضاعت المؤلفات السابقة عدا ما ألفه ابن خميس، في المخطوطة الوحيدة التي عُثر عليها: «في العقد السادس من القرن الماضي في مدينة مكناس بالمغرب».
- وقد وصف المحققان الفاضلان هذه المخطوطة وصفاً سنمّر به في حينه، وذكرنا المسوّغات المختلفة التي حدثت بهما - كلٌّ على انفراد - إلى تحقيق المخطوطة، وتقديمها إلى القارئ، والإسهام في إضافة نص أندلسي إلى المكتبة العربية، هي في حاجة ماسّة إليه.
- والكتاب عن مالقة وأعلامها.
- و(مالقة) مدينة كبيرة، حظيت بأهمية متعددة الجوانب منذ بداية الفتح الإسلامي إلى أواخر أيام دولة بني الأحمر، أو دولة غرناطة، وكانت في أواخر المدن خروجا عن السيادة العربية الإسلامية في ذلك القطر، فقد أفل نجمها سنة: ٨٩٢ هـ

بعد كفاح مرير، ومقاومة مستميتة^(٦).

و(مالقة)^(٧) مركز ذو أهمية تجارية، وعسكرية، فهي ميناء على البحر المتوسط، في الجنوب الشرقي من الأندلس، وكان فيها دار صناعة شهيرة، وللمدينة أهمية زراعية وصناعية، تخص من ذلك - على كثرة خصائصها - زراعة التين واللوز، وصناعة الخزف وكانت تصدّرها - آنذاك - فتصل إلى الشام ومصر والهند وغيرها، وما يزال أهل الشام (دمشق والغوطين فيما أعرف) يسمّون الأوابي الخزفية بـ (المالقي)^(٨). وازدادت أهمية مالقة، من وجوه كثيرة، أيام دولة بني نصر (وهم بنو الأحمر) آخر دولة إسلامية في الأندلس.

وإلى جانب هذه الوجوه الحياتية والحضارية كانت مالقة مركزًا من مراكز العلم والفكر والأدب والشريعة وغيرها، وكانت حلقة مشتبكة العلائق بغيرها من المدن والبلدان الأندلسية، ومن هنا اهتم المؤرخون، وفيهم مؤلفو كتب التراجم بأعيان مالقة من أهل الرأي والتدبير والفقهاء، وسائر أمور العقيدة والفقهاء والأدب والشعر... إلخ وقد سبقت الإشارة إلى الكتاب الباقي عن (مالقة) ورجالها من التراث الأندلسي، وهو كتاب ابن خميس، وهذا موضع التفصيل فيه، ومراجعة طبعته، فقد صدر في عام واحد (١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م) مرتين:

(٦) انظر «نخاية الأندلس» لمحمد عبد الله عنان - الطبعة الثالثة: ٢٢٠.

(٧) مالقة (Malaga): انظر: الروض المعطار ٥١٧ ومعجم البلدان ٤٣:٥ ومفاخرة مالقة وسلا: ٧٦ ونفح الطيب ١: ١٧٣ ورحلة ابن بطوطة ٦٦٩ والآثار العربية الباقية: ٢٤٢ ورحلة الأندلس: ٢٥٣، ونبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر (ط) ٩٣ - ٩٥، ومعيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار للسان الدين بن الخطيب: ٨٧ - ٨٨.

(٨) لنا كلام طريف في الموضوع في كتاب: (معجم العادات والتقاليد الشامية) يصدر في سلسلة الموسوعة الشامية.

١- صدر عن دار الغرب الإسلامي، ودار الأمان للنشر والتوزيع، وعلى غلافه ما نصّه: «أعلام مالقة تأليف أبي عبد الله بن عسكر وأبي بكر بن خميس: تقسيم وتخرّيج الدكتور عبد الله المرابطي التّرعّي».

٢- وصدر عن دار البشير ومؤسسة الرسالة، وعلى غلافه ما نصّه: «كتاب أدباء مالقة المسّمى: مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار فيما احتوت عليه مالقة من الأعلام والرؤساء والأخبار، وتقييد ما لهم من المناقب والآثار، تأليف أبي بكر محمد بن محمد بن علي بن خميس المالقي المتوفى بعد سنة ٦٣٩ هـ، حققه وقدم له الدكتور صلاح جرار».

فقد اختلف عنوان الكتاب بين المطبوعتين، واختلف اسم المؤلف أيضًا، ولذلك أسباب نذكرها بإيجاز.

فالكتاب الذي نتحدث عنه هنا هو تنمة لكتابٍ بدأه ابن عسكر ووصل فيه إلى حرف الميم (بحسب الترتيب الأندلسي للحروف الهجائية)، ثم أمّمه ابن أخت القاضي ابن عسكر، وكتاب ابن عسكر، وتتمته لابن خميس هما تكملة لكتاب أبي العباس الأصبع بن علي المالقي.

وقد عدّ بعض الباحثين^(٩) هذه المؤلفات الثلاثة «مُدَوَّنَةً» في أخبار مالقة وتراجم علمائها وأدبائها: لها أصل، وتتمتان، أما الأصل فهو كتاب «الإعلام بمحاسن الأعلام من أهل مالقة الكرام لأبي العباس أصبع المالقي، وأما التتمتان فثانيتها تكملة للأولى، والأولى هي كتاب «الإكمال والإتمام في صلة الإعلام بمحاسن الأعلام من أهل مالقة الكرام» لأبي عبد الله محمد بن علي بن عسكر المالقي، ولهذا الكتاب عنوان آخر قد عُرف به أيضًا هو: «مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار

(٩) الدكتور إبراهيم بن مراد من كلية الآداب، والعلوم الإنسانية بتونس في مقدمة «مختارات من الشعر

المغربي والأندلسي لم يسبق نشرها» صدر عن دار الغرب الإسلامي، ص ٨٧ - ٨٨.

فيما احتوت عليه مالقة من الرؤساء والأخيار وتقييد ما لهم من المناقب والآثار» أما التتمة الثانية فهي تكملة لكتابة ابن عسكر هذا، فقد توفي ابن عسكر قبل إتمام الكتاب، متوسّطاً حرف الميم من حروف المعجم بحسب الترتيب الألفبائي المغربي الذي اتبعه في ترتيب تراجمه، فقام بإتمامه بعده ابن أخته أبو بكر محمد بن خميس المالقي، فأتمّ تراجم حرف الميم، وأضاف تراجم بقية الحروف^(١٠)، وأخرج عمله في كتاب مستقل لم نعثر له على عنوان خاص، إلا أن من المراجع ما يسميه «أدباء مالقة» و«تتميم ابن خميس» ومنها ما يسميه: «التكملة».

وقد أخذ الدكتور التزغني بما أخذ به الدكتور مراد، كما يبدو، فأثبت على الصفحة (٧١) من الكتاب تفصيلاً لم يُثبتته على الصفحة (٣) من صدر الكتاب فقال: «أعلام مالقة المسمى: الإكمال والإتمام في صلة الإعلام بمحاسن الأعلام من أهل مالقة الكرام أو: مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار فيما احتوت عليه مالقة من الأعلام والرؤساء والأخيار وتقييد ما لهم من المناقب والآثار تأليف أبي عبد الله ابن عسكر وأبي بكر بن خميس» وقد أشار إلى أن المراكشي وابن الخطيب جعلوا العنوانين: مطلع الأنوار والإكمال والإتمام لكتاب ابن عسكر^(١١).

أما الدكتور صلاح جَرّار فقد فصل بين العنوانين، وجعل العنوان الأول لكتاب ابن عسكر، والعنوان الثاني لكتاب ابن خميس، واعتمد على ما ذكره السخاوي في «الإعلان بالتوبيخ...» في معرض حديثه عن مدينة مالقة: «وعمل أبو عبد الله محمد

(١٠) وهي حروف «الصاد، فالعين والغين فالقاف فالسين فالشين فالهاء فالياء».

(١١) ابن عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة ٦: ٤٥٠ - ٤٥١ وابن الخطيب في الإحاطة ٢: ١٧٤، وأخذاً عن هذين المصدرين قال د. فروخ إن لكتاب (الإكمال والإتمام) لابن عسكر اسماً آخر هو: (مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار...). تاريخ الأدب العربي ج٦: ١٤٠ - ١٤١، ولم يورد الزركلي غير العنوان الأول (الإكمال...) ينظر الأعلام ٦: ٢٨١ فكأنه استغرب فكرة العنوانين.

بن علي بن خضر بن عسكر الغساني تاريخًا لم يكمله، فأكمله ابن أخته أبو بكر محمد بن علي بن خميس، وتسمّاه: «مطلع الأنوار...» إلخ.

ومن هنا رجّح الدكتور جرّار أن يكون ابنُ عسكر قد سمى كتابه «الإكمال والإتمام...» وأن يكون ابن خميس قد سمى كتابه «مطلع الأنوار...»^(١٢).

ولم يذكر الدكتور جرّار سبب تسميته كتابه: «أدباء مالقة» ثم فرّغ عليه العنوان الأصلي بحسب اجتهاده ومطالعه، ولعلّه استأنس بما صنعه صاحب (صلة الصلة) حين أشار إليه باسم (أدباء مالقة) على أنه أشار إليه باسم «التتميم»، وقال المحقق (جرّار إنّها تسمية من باب وصف الكتاب)^(١٣).

بقي شيء آخر في العنوان، فإن ما ثبت على الصفحة الأولى من النسخة المخطوطة الباقية هو: كتاب جُمع فيه بعض أخبار فقهاء مالقة وأدبائهم مما ابتدأ تأليفه الفقيه المتفتّن محمد بن علي بن خضر بن هارون الغساني المشهور ابن عسكر وقد كمله ولد أخته محمد بن محمد بن علي بن خميس لما عاجلته منيته وجمع في هذا الكتاب من سكن مالقة ودخلها أو اجتاز عليها، وجمالاً من أخبارهم وأدبهم ومحاسنهم ومراسلتهم وبلاغتهم وذكر من أخذوا عنه من فقهاء الأندلس وغيرهم^(١٤).

تراجم الكتاب ومادّته:

اتفق المحققان، على ما تؤيده الأخبار المتعلقة بالموضوع جملة، أن الكتابين، مستقلّان ولكل كتابٍ مؤلّف معروف، والكتابان معًا يفيدان من كتاب أصبغ ويُكمّلاه.

(١٢) أدباء مالقة: ١٨ - ١٩.

(١٣) أدباء مالقة: ١٩.

(١٤) من مطلع الكتاب: أعلام مالقة: ٧٣، وأدباء مالقة: ٤٥.

ثم اختلفا:

١- فقال الدكتور الترغبي في (أعلام مالقة)^(١٥): «يتأكد لنا... خلال نقول (صلة الصلة) أن كلاً من عمل ابن عسكر وابن خميس في أعلام مالقة كان مستقلاً عن الآخر، ومميّزاً عنه، وليس في الوضعية المختلطة كما انتهى إليه الموجود من أعلام مالقة».

٢- وقال الدكتور جرّار في (أدباء مالقة): «وخلاصة القول أن ما وضعه أصبغ بن أبي العباس، وأبو عبد الله بن عسكر وأبو بكر بن خميس هي كتب ثلاثة مستقلة وليست كتاباً واحداً، وإن كان اللاحق منها يتمم السابق، وقد اختار كل واحد من هؤلاء المؤلفين الثلاثة عنواناً لكتابه»^(١٦).

وساق المحقق أدلة على كون كتاب ابن خميس مستقلاً عما وضعه سابقاه.

ويخرج القارئ الباحث من وراء مقدمتي المحققين الفاضلين إلى رأيين

اثنين (وإن كان بينهما نوع من التداخل):

١- فالدكتور الترغبي في (أعلام مالقة) يقول: «وأخيراً فإن ما بين أيدينا اليوم من أعمال: أعلام مسائفة لا يضم إلا أبعاضاً من عمل ابن عسكر وابن خميس، وقد تجمّعت فيه - وفي نسق واحد - التراجم التي صاغها كل من الرجلين، فلا حدود تفصل بين عمليهما ولا تصميم تميز به تراجم الأصل من الذيل»^(١٧).

(١٥) أعلام مالقة: ٤١.

(١٦) أدباء مالقة: ٢١.

(١٧) أعلام مالقة: ٤٦.

٢- ولاحظ الدكتور جرّار في (أدباء مالقة) ما لاحظته د. التّرغّي من نسبة بعض التراجم إلى كتاب ابن عسکر، ووجودها بنصّها في كتاب ابن خميس^(١٨)، وقال ما نصه:

«ويدل هذا الملحظُ على أحد أمرين، أو كليهما:

- أولهما: أن المصادر المذكورة ترى في كتاب ابن عسکر وابن خميس شيئاً واحداً، ولا سيما أن كتاب ابن خميس متمم، في الحقيقة، لكتاب ابن عسکر.
 - وثانيهما: أن ابن خميس نقل في كتابه عن كتاب خاله ابن عسکر» انتهى.
- وقد بسط المحققان حُججًا لما اختار كل واحدٍ منهما من الموقف والرأي، ثم بنى كل واحد على ما اقتنع به، فجعل العنوان على وفق رؤيته، ونظرته.
- قلت:**

(أ) لا يسوغ أن يجعل لكتاب ابن عسکر عنوانان اثنان، وأن يُترك كتاب ابن خميس بلا عنوان، وقد ثبت أن السّخاوي نقل عن كتاب ابن خميس وذكر اسمه بدقة، وهو العنوان الذي قبّله الدكتور جرّار في (أدباء مالقة) وسجّله على الغلاف بعد عبارة: (أدباء مالقة).

(ب) قول ابن خميس في بعض التراجم من كتابه: «نقلتُ من خطّ خالي» أو «وجدتُ بخطّ خالي» وما شابه يُؤول على استفادته من بطاقاتِ كان ابن عسکر جمعها ليدخلها في كتابه، فأعجلته الوفاة عن إتمام ذلك، وإلا فإن المؤرخين لم يذكروا لابن عسکر كتاباً آخر في التراجم.

(ج) في ترجمة ابن عسکر في الإحاطة^(١٩) أنه ألّف كُتُبًا كثيرةً، وذكر منها: «الإكمال والإتمام في صلة الإعلام بمجالس^(٢٠) الأعلام من أهل مالقة الكرام».

(١٨) أدباء مالقة: ١٦، ترجم ابن الخطيب لأبي عبد الله بن فطيس في الإحاطة ٢: ٤٤٤، ونقل

عن ابن الزبير، الذي قال: ذكره ابن عسکر، والترجمة في (أدباء مالقة): ٦٣.

(١٩) الإحاطة ٢: ١٧٤.

وقال: «وله اسم آخر، وهو: مطلع الأنوار ونزهة الأبصار فيما احتوت عليه مألقة من الرؤساء والأعلام والأخبار، وتقيّد من المناقب والآثار»، وقال بعد ذلك مباشرة: «واخترتمته المنية عن إتمامه فتولّى إتمامه ابن أخته أبو بكر محمد بن خميس المذكور، وقد نقلتُ منه في هذا الكتاب».

يبدو لي، وهذا اجتهاد شخصي، أن ابن خميس حين تمم كتاب خاله ابن عسكر، على منهجه، مستفيداً من بطاقاته، جعل للجزء الذي اضطلع به عنواناً، وضم السّفرين بعضهما إلى بعض، ووضع العنوانين معاً على الغلاف الرئيسي: عنوان كتاب خاله، ثم عنوان كتابه وانتشر الكتاب (بجزأيه) بين الناس على تلك الحال، ولا يبعد أن يكون الكتاب نُسخَ وحده، أيضاً، وهذا يفسّر وجود النسخة الحالية المخطوطة من كتاب ابن خميس دون كتاب ابن عسكر.

ووضع السّفرين معاً في مجلد واحد سَوَّغَ لبعض الناقلين أن يذكروا ابن عسكر (فهو الأصل في تميم كتاب أبي العباس أصبغ) وهو الأكثر شهرةً أيضاً، وإن كان النقل من القسم الثاني من التتمة أي متن كتاب ابن خميس.

ويبقى القول الفصل رهن معلوماتٍ إضافية تظهر في مخطوطة جديدة من كنوز التراث العربي.

المخطوطة، وعمل المحققين في تحقيقها:

وصف المحققان الفاضلان المخطوطة، واستفادا من وصف من عاينها قبلهما وسجّل ملاحظاته عنها، وهي نسخة لم يُذكر فيها اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ (ويرجح الدكتور

(٢٠) كذا في الإحاطة، وصوابه: (بمحاسن)، وتحقيق كتاب (الإحاطة) ليس أكثر من قراءة أولية (مسودة) تحتاج إلى إصلاح كثير وإتقان شديد، وقراءة للمخطوطات متأنية، باختصار يحتاج الكتاب إلى تحقيق جديد متأن.

التزغني أن تكون من القرن العاشر الهجري^(٢١)، ويؤكد الدكتور جرّار بوجود عبارة «أعادها الله» بعد ذكر مدينة (مالقة) التي سقطت سنة ٨٩٢ هـ، وفي النسخة خرمٌ أو اثنان، وسقط من آخرها ورقات قليلة، في تقدير المحققين الفاضلين^(٢٢).

وإضافة إلى ما في المخطوطة من محو ونقص وطهي - كما يقول د. جرّار - فإن فيها تصحيحًا كثيرًا وسقطًا وتأكلًا في بعض الكلمات والأسطر وأخطاءً لغوية وإملائية^(٢٣).

وانطلاقًا من هذه الحقائق والمعلومات عن مخطوطة الكتاب، واستجابةً لعزيمة قويّة حثّت كل واحد فيهما - على انفراد - تصديًا مزوّدين بالهمة لتحقيق الكتاب، ووضعًا خطة العمل التي رأى كل واحدٍ فيهما أنّها تساعد على الوصول إلى تقديم النصّ محققًا، قريبًا من الصحة والسلامة أو هو صحيح سليم، فقال د. التزغني^(٢٤) بعد الإشارة إلى صعوبة النص وكثرة مشكلاته: «إلا أن إرادة الله في إخراج هذا النص وإحيائه وتيسير سبل نشره والاستفادة منه قد آذنت فيه بالعمل لهذا العبد الضعيف ليقترح مغالقه، وقربت إليه من الأسباب الإلهية والعليّة ليتجاوز موانعه وهيئات له من فضل الله كل الظروف من وقت وعلم وصحة لتكبر بجانبها آمال النجاح في بعث هذا الكتاب وإجراء قراءته».

ثم قال في الصفحة نفسها: «وقد استقام النص في النهاية بفضل الله...» إلخ.

(٢١) أعلام مالقة: ٥٢.

(٢٢) أعلام مالقة: ٥٢ - ٥٣، وأدباء مالقة: ٣٠ - ٣١.

(٢٣) أدباء مالقة: ٣١ وللدكتور التزغني كلامٌ مشابه ومُقارب.

(٢٤) أعلام مالقة: ٨.

وقد أُعِين الدكتور الترنغي في عمله بإهداء الأستاذ البحّاثة محمد المنوني نحو ثلث المخطوطة محققاً: «يشمل ٥٧ صفحة من الحجم الكبير، وهو الشطر الذي يمثّل الثلث الأول من الكتاب»، وقد سلّم الأستاذ المنوني الدكتور الترنغي، مع النسخة المذكورة: «دفترًا صغيرًا فيه بخطّ يده مختلف التعاليق وتخريج النصوص والهوامش التي تتطلبها القراءة العلمية للنص»^(٢٥).

ووصلت إليه «النسخة المخطوطة التي كتبها وخرّجها الفقيه محمد بوخبزة بخط يده»^(٢٦).

وقد أشار إلى ما وصل إليه من النسخ برموز كان يحيل عليها في الحواشي عند الاقتضاء.

وتحدّث د. جرّار عن تردده في الإقدام على تحقيق الكتاب «وقد وقعت كما وقع غيري في شرك التردد فكانت قوى نفسي تضعف كلما أعياني قراءة نص أو جملة...» إلخ، إلى أن قال: «فأمضيت عزمي وغالبت هوى نفسي وشحذت همتي، ووطّنت النفس على المضي في تحقيق المخطوطة واحتمال كل مشقة من أجل إنجازها ونشرها، وقد تم ذلك بعون الله وتوفيقه»^(٢٧).

- ولم يكن بين يدي د. جرّار سوى صورة المخطوطة المذكورة.

وقد استعان المحققان الفاضلان بعددٍ من المصادر، ورجعا إلى كتب التراجم التي استفادت من الكتاب المحقق، في مراجعة التراجم، وفي ضبط النصوص الشعرية التي وردت في أمكنة أخرى وخصوصاً كتاب: «مختارات من الشعر المغربي والأندلسي لم

(٢٥) أعلام مالقة: ٥٥ - ٥٦.

(٢٦) أعلام مالقة: ٥٣.

(٢٧) أدباء مالقة: ٧.

يَسْبِقُ نَشْرُهَا» الذي نقل فيه مصنّفه د. إبراهيم بن مراد عن مخطوطَةٍ في تونس استفادت من كتاب ابن خميس ونقلت عنه كثيراً.

- وقد اجتهد المحققان في ذكر المصادر التي ترجمت لرجال الكتاب أو أشارت إليهم، واختلف استيفاء أحدهما عن صاحبه في معظم المواضع.

- وضبط الدكتور التّرغي في (أعلام مالقة) الأشعار بالشكل دون الأسماء، وسرد التراجم، وضبط النصوص الشعرية ضبطاً أقل مما صنع في الشعر.

وكان الدكتور جرّار في (أدباء مالقة) أقلّ عناية بضبط النصوص الشعرية والشعرية من زميله، وقد تمرّ قطع كاملة لا ضبط فيها.

- أثبت د. التّرغي اختلافات قراءة النص (بين ما قرأه هو، وما قرأه أ. المنوي، وما قرأه الفقيه بوخبزة) على الغالب.

- عالج المحققان قضية اختلاف رواية الشعر (حين يوجد النص في موضع آخر «كتاب آخر» دون استيفاء منهما لذلك، وسأورد نموذجاً أو أكثر).

- خلا برنامج عمل المحققين الفاضلين:

(أ) من شرح الألفاظ، وإن كانت غريبة أو حوشية.

(ب) ومن إيضاح الإشارات، والتلميحات، التي كانت سائدة في أساليب الكتابة الفنية، وفي الشعر أيضاً.

(ج) ومن تخريج الشواهد الشعرية (إلا ما ندر).

وتحقيق هذه الأمور وأشابهاها يعين المحقق، وليس عنده إلا نسخة واحدة ويفتح له آفاقاً تعينه في حل عبارة مستغلقة، أو توجيه قراءة قلقة، وتسمح بتقريب النص المحقق إلى أصله القديم.

عدد تراجم الكتاب:

انتهى عدد التراجم في (أدباء مالقة) إلى: ١٧٣، وانتهى في (أعلام مالقة) إلى: ١٧٤. وسبب ذلك أن محقق (أعلام مالقة) أثبت الرقم ٦٤ لاسم "عبد الله بن محمد [بن عيسى الأنصاري المالقي] الذي سقطت ترجمته من النسخة مع عدد غير معلوم من تراجم حرف العين، لِحَرْم، أصاب النسخة، وقال في الحاشية: والمذكور هو أبو محمد بن المالقي المتوفى ٥٧٤هـ بمراكش.

وسكت في (أدباء مالقة) عن هذا الاسم، فاختلف الترقيم، ونقص عدد الأعلام المترجمين رجالاً واحداً.

في المراجعة:

وهأنذا أمرّ على جوانب من تحقيق الكتاب في نشرتيه: (أعلام مالقة) و(أدباء مالقة) فأضع ملاحظات في قراءة النص، وتخرّيج بعض الشعر، والتنبيه على بعض الإشارات والاقتباسات والنقول.

وملاحظات (محدودة) في المقارنة بين العملين، واقتراحهما، أو ابتعادهما عن حقيقة النص الذي يخرجانه إلى القارئ المتشوّق إلى التراث العربي عامة والتراث الأندلسي خاصة.

ولا بدّ، قبل ذلك، من التنويه بما صنع المحققان الفاضلان فإنهما - لا شك - قد بذلا جهوداً كبيرة، وعانيا معاناة شديدة.

ومن شكرهما على تقريب هذا الكتاب إلى الباحثين والدارسين، والمهتمين بالأدب وعصوره، ورجاله، وإن كان على هذه الحال، وأقول - بصدق - إن تحقيق (النص) اعتماداً على أصل واحد عمل مشكل، وهو لا ينصف المحقق، وإن كان الأصل الذي بين يديه جيداً، لكثرة ما يرد على المحقق من الآراء وألوان الاعتراض، فما بالك، والنص مشكل، أو هو نص صعب، والخطأ في التحقيق وارد، وهو متوقع، لطبيعة النسخة الباقية، وللمسؤوليات الكثيرة الملقاة على عاتق المحقق، أو المتصدي

للتحقيق، فإذا لم يصبر للتحقيق صبراً شديداً، طويلاً، ولم يحمل نفسه على الإنسان، والتدقيق، وقع فيما خاف منه، وخشي عواقبه.

في أول ترجمة من تراجم الكتاب نقراً، في الطبعتين: «محمد بن عمثيل العاملي» هكذا بتقديم الميم على التاء. وتكرر ذلك في سرد الاسم، في أثناء الترجمة، وورد الاسم في الحاشية في الطبعتين أيضاً بتقديم الميم: عمثيل.

وورد الاسم كذلك، في الطبعتين في ترجمتين أخريين (عمثيل) في (أعلام مالقة) ص ٣٤٥ و ٣٤٦، وفي (أدباء مالقة) ص: ٣٧١ و ص ٣٧٢.

وقد رجح المحققان إلى (الذخيرة لابن بسام) لتخريج بيتين من الشعر، ولم ينتبها إلى أن الدكتور إحسان عباس محقق الذخيرة، قد قرأ الاسم من المخطوطة على الوجه الصحيح^(٢٨)، وقال في حاشية الصفحة ٨٥٤: «ذكر ابن عسكر (كذا) في أدباء مالقة: ١٦٦ علي بن عمثيل وقال: من أشياخ مالقة... وذكر (ص: ١٩٠) سليمان بن عمثيل، وهو يرجع بنسبه إلى قبيلة عاملة... إلخ».

واشتهر في اللغويين عبد الله بن خليل بن سعد، وكان شاعرًا، كاتبًا، ومن كتبه: ما اتفق لفظه واختلف معناه «وكنيته: أبو العميثيل. (ت سنة ٢٤٠ هـ).

وللعمثيل معانٍ نقلها في اللسان (ع م ث ل)، وفيها: الضخم الشديد العريض، وهو من صفة الأسد، والجمل، والفرس والرجل...».

في ترجمة ابن الفخار (محمد بن الحسن بن كامل الحضرمي)^(٢٩) قطعة نثرية له في موضوع (الزرزور) أسوقها، كما وردت في (أعلام مالقة): ٨٨، وكما ضُبطت، على

(٢٨) الذخيرة ق ١ ج ٢ ص ٨٥٤.

(٢٩) أعلام مالقة: ٨٨ وأدباء مالقة: ٦٢.

أن الخطوط^(٣٠) من عندي لمتابعة النص ومقارنته.

«يسقط الطير حيث ينتشر الحب... وتُغشى منازل الكرماء.

لما كنت - أعزك الله - روضةً في الأدب طيبة الماء والعشب، وغدوت دوحاً في المجد، مورقة بالتهمم مثمرة بالجد، أوشكت طيور الثناء أن تنشر عليك قلاعاً وحامت عصافير الرجاء عليك عطاشاً وجياعاً، فوجدت بشارك الحب الكثير، والماء العذب النмир، فشربت والتقطت وانتفضت وترنمت، ولم تُرغُ بصرصرة الصقور حين غدت في الماء النмир، فهي مائلة على طي الأجنحة، مُثنيةً عليك بالألسنة المفصحة، قد جعلت أرائكها قصب الأراك، وبسطت دوانيكها فلم تقتنص بأيدي الفخوخ والأشراك، تتغنى من الطرب، وتتناشد بمخضرة القصب:

فيا لك من قبرة بمعمر خلا لك الجو فيضي واصفري

ونقري ما شئت أن تنقري^(٣١)

ولما قطع الآن إليك منها زُرْبِير^(٣٢)، له أبداً بالثناء عليك صغير، قُصَّ جناحه فهو نحوك حاذف، وحسن صباغهُ، فكلُّ قلبٍ عليه عاطف، رجوت أن تعيده وافر الجناح، صافراً يذكرك في الغدو والرواح» انتهى.

قلت:

(٣٠) في الأصل وضع كاتب المقال خطوطاً تحت بعض الكلمات، فطُبعت هنا بحرف ثخين! (المجلة).

(٣١) ديوان طرفة بن العبد: ١٥٧ - ١٥٨، نقلاً عن مجمع الأمثال للميداني ١: ١٣٩، والقطعة

سنة أبيات من الرجز، و (معمر) مكان، كما قال ياقوت في معجم البلدان.

(٣٢) الزرور: جنس طير من فصيلة الزروريات، أنواعه ستة فيها القواطع والأوبد، تعيش

جماعات، قوتها الحشرات وبعض الثمار، تتميز بريشها الأسود اللامع الرقط، وباستطالة

أجنحتها وبقصر أذنانها. (الموسوعة في علوم الطبيعة ٢: ٧٠٦).

١- كتب الناسخ البيت، وكأنه نثر فأعاده المحقق، ولكنه لم يخرجه، وهو مشهور، من شعر بشار بن بُرد^(٣٣) من قصيدة فحمة في مدح عقبة بن سلم، واستفاد الكاتب المترجم له من شعر بشار في درج الرسالة الزرزورية، وقد قال: «فوجدت بشارك الحب النثير».

٢- قوله من (أعلام) روضة في الأدب يقابلها في (أدباء): روضة في الأرض.

٣- التهمم والجد: يقال تهمم الشيء: طلبه، وتهممه: تحسسه ينظر أين هو، والجد بكسر الجيم معروف، ويبدو، من سياق الكلام، أن الكاتب أراد الهمم بالأمر، فشجره مجده: ورقها هم بفعل الخير (كالعطاء لذلك الزرزور) وثمرها تنفيذ ذلك الهم وتحقيقه.

٤- قوله في الطيور: «فشربت والتقطت وانتفضت وترمت».

فيه إشارة:

(أ) إلى قول الجنون:

وإني لتعروني لذكراك نفضةً كما انتفض العصفور بالله القطر

- وفي رواية: «لذكراك هزة»...^(٣٤)

(ب) وإشارة إلى قول ثوبة بن الحمير: في مطلع قصيدة غزلية صدّاحة^(٣٥):

حمامة بطن الواديين ترتمي سقائك من الغرّ الغواذي مطيرها

٥- قوله «قصب الأراك» وقد وردت عند المحققين هكذا، تصحيف، صوابه: «قصب

(٣٣) ديوان بشار بن بُرد (نشر الشركة التونسية للتوزيع) ١ : ١٣٦.

(٣٤) البيت في ديوانه: ١٢٠ وهناك كلامٌ على نسبة القصيدة، وهي تُروى لأبي صخر الهذلي في تفصيل طويل: (انظر ما ذكره محقق الديوان وجامعة عبد الستار فراج في حاشية الصفحة: ١٢٠ وما بعدها).

(٣٥) الأغاني (دار الثقافة) ١١ : ١٩٨.

الأراك» جمع قضيب، والقصب «بالصاد المهملة» نوع نبات مختلف عن الأراك^(٣٦).
٦- الدرانيك: الطنفس، أو ضربٌ عن الثياب له خملٌ قصير، ويُستعار للوبر
كقول الراجز يصف بعيراً:

كأنه مُجَلَّلٌ درانكا

وقيل إن الدرانيك تقال للستور والفُرش.

أراد الكاتب أن يصف أجنحة تلك الطيور فشبهها بالدرانك، بدليل قوله:
«بسطت درانيكها» فلما فعَلت ذلك نجت من الأشارك التي نصبت لها.

٧- أورد المحقق الرجز بزيادة الفاء في أوله، وليست الفاء من الشعر، والأدبيات
مشهورة، من شعر طرفة بن العبد (ديوانه - المجمع: ١٥٧)، وهي حاشية في كتب
الأمثال كالميداني ١ : ٢٣٩ والعسكري ١ : ٤٢٢.

٨- قوله: «فهو نحوك حاذف»: أي حاذفٌ بنفسه (رامٍ نفسه)، أي: قاصد
إليك، (وتنظر مادة (خ ذ ف) في اللسان أيضاً).

٩- قوله «يذكرك في الغدوِّ والرواح» يذكر بالأثر المشهور «يرزقكم كما يرزق
الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً...» الحديث^(٣٧).

والنص في (أدباء مألقة: ٦٢) هكذا، والخطوط تحت الكلام^(٣٨) من عندي.

(٣٦) القصب، وهو البوص، نبات كعبوري من فصيلة، البخيليات، يستعمل في صناعة السلال
والمكانس، ويتخذ من الدقيق منه أقلام للكتابة (الموسوعة في علوم الطبيعة ٣: ١٢٨٩) -
والأراك، وهو الكباش، وشجر السواك، جنبية من الأراكيات تعد في النباتات الطبيّة
(الموسوعة في علوم الطبيعة ١ : ٤٦).

(٣٧) النهاية في غريب الحديث (خ م ص).

(٣٨) يريد الحرف الأسود.

«يسقط الطير حيث نشر الحب وتغشى منازل الكرماء لما كنت أعزك الله روضة في الأ[رض] طيبة الماء والعشب، وغدوت دوحاً في الجسد مورقةً بالتهمم، ثمرة بالجد، أو شكت طيور الثناء عليك قلوفاً، وحامت عصافير الرجاء عليك عطاشاً وجياعاً، فوجدت بشارك الحبّ النثير، والماء العذب النمير، فشربت والتقطت، وانتفضت وترنمت، ولم تُرغ بصرصرة الصقور حين غدت في الماء النمير، فهي مائلة على طي الأجنحة مثنية عليك بالألسنة المفصحة، قد جعلت أرائكها قصب الأراك، وبسطت أرائكها فلم تقتنص بأيدي الفخوخ والأشراك، تتغنى من الطرب، وتتناشد بمحصرة القضب.

يا لك من قبرة بمعمر خلا لك الجو فيضي واصفري

ونقري ما شئت أن تنقري^(٣٩)

ولما قطع إليك الآن منها زُرَيْر، له أبداً بالثناء عليك صفير، قصّ جناحه فهو نحوك حادف، وحسن صباحه فكل قلب عليه عاطف، يجوز أن تعيده وافر الجناح، صافراً بذكرك في الغدو والرواح» انتهى.

ونصّ (أعلام مالقة)، على ما فيه، أجود من نص (أدباء مالقة) وقد سبق أن تُلث الكتاب (من أوله) قد مرّت به أكثر من يد.

١٠- أما الزرزور (أو الزريرير) فقد أحال على (أعلام مالقة) على الذخيرة (٣ : ٣٤٧) و (٤ : ٧٥٨) وأهمّل ذلك محقق: (أدباء مالقة).

قلت: يضاف إلى ذلك ورود ذكر الزرزور، ورسائل تتعلق به في رسائل ابن أبي الخصال^(٤٠)، وفي رسائل ابن مغاور الشاطبي^(٤١)، وقد وقف عند ظاهرة كتابة الرسالة

(٣٩) من قطعة في ستة أبيات.

(٤٠) رسائل ابن أبي الخصال: ٣٧، ٢٣٤.

في الزرور (مع إيضاح لفكرة تلك الرسائل) عدد من الباحثين في الأدب الأندلسي، فيهم: د. إحسان عباس^(٤٢)، و د. شوقي ضيف^(٤٣) ود. محمد بن شريفة، و د. محمد رضوان الداية^(٤٤)، وغيرهم.

وأول من بدأ نمط الرسائل الزرورية الكاتب الأندلسي سراج بن عبد الملك بن سراج (ت ٥٠٨هـ) وكان قد أرسل رسالةً بناها على الدعاية في الشفاعة لشخص يُسمى بالزرير مستغلاً اتفاق اسمه مع اسم طائر الزرور.

١١- في أعلام مالقة: «بمخضرة القصب»، وفي أدباء مالقة: بمخضرة القصب، ولم يوجّها القراءة.

وعن التصحيفات الطريفة ما ورد في نص في ترجمة ابن الفخار المالقي (أعلام: ١١١، وأدباء: ٩٦)، والسياق أولاً لأعلام مالقة، قال راويا الخبر بإسناد أشار إليه عن علي بن عبد الصمد الكوفي، قال:

«خدمت بملولاً عشر سنين ألتقط من نوادره، وأتلقف من أشعاره وأذبت عنه من يؤذيه، ففقدته أياماً على شدة طربي له، فوجدته يوماً وحوله جماعة من الصبيان يرمونه بالحصى، فسلمت عليه فلم يرد إلا أنه قال: نح عني أولاد الطوامث، فأزلتهم عنه، ثم سألت عن حاله فقلت له: ما تشتهي؟ فقال: أشتهي بريد الباقل بدهن شيدج أو بدهن جوز، فصنعتها وهياًتها، ثم أدخلته مسجداً، ووضعته بين يديه فجعل يأكل أكلاً دلي على أنه جائع فقلت له: أيها الأستاذ هل أحدثت شيئاً في رقة الشعر؟ فهم أن يضرب رأسي بالقصعة، فتركته حتى شبع وسكن وطابت نفسه، ثم قلت له:

(٤١) ابن مغاور الشاطبي - حياته وآثاره - ٨٨ ، ٢٠٩ (من عمل د. محمد بنشريفية).

(٤٢) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين).

(٤٣) تاريخ الأدب العربي (الأندلس): ٤٢٧.

(٤٤) في الأدب الأندلسي (ترجمة ابن أبي الخصال).

أيها الأستاذ ما قلت؟ قال: اكتب:

أضمر أن أضمر حُبَّاله فيشتكي إضمار إضمار
رقّ فلو مرّت به نملّة لخصّبتّه بدمٍ جارٍ
فقلت: أرقّ من هذا! فقال: اكتب:

شبهته عمراً إذ مرّ مبتسماً فكاد يجرحه التشبيه إذ علما
ومرّ في خاطري تقبيل وجنته فسيلت فكرتي من عارضيه دما!
فقلت: أرقّ من هذا، فقال: اكتب:

أضمر أن يأخذ المرآة لكي ينظر تمثاله فأدناها
فجاز وهم الضمير منه إلى وجنته في الهوا فأدماها!

فقلت: أريد أرقّ من هذا، فقال: يا ابن الفاعلة! أي شيء يكون أرقّ من هذا؟

انتظرنى حتى نطبخ في المنزل حريرة^(٤٥) تكون أرقّ من هذا» انتهى.

قلت:

١- لم يرجع المحققان إلى أي مصدر لمراجعة الخبر، أو لتخريج الشعر.

٢- لم يُعرّفا بشخص (بهلول) ولو بإشارة سريعة، فقد ساق المؤلف الخبر، في جملة أخبار ذات صلة، في الترجمة المذكورة.

٣- وقع المحققان معاً في شيء من التصحيف في النثر وفي الشعر أيضاً.

وأقول:

١- بهلول هو أبو وهيب الملقّب بالجنون، من أهل الكوفة، قال فيه ابن شاعر الكنتي، حدّث عن أيمن بن نايل وعمرو بن دينار، وعاصم ابن أبي النجود، وكان من

(٤٥) الحريرة: نوع من الحساء، واشتهرت الحريرة في الأندلس والمغرب، وهي اليوم في بلدان المغرب

العربي طبق مفضل، مكمل لأطباق المائدة.

عقلاء المجانين، ووسوس، وله كلام مليح ونوادر وأشعار، واستقدمه الرشيد أو غيره من الخلفاء ليسمع كلامه، توفي في حدود التسعين ومئة^(٤٦).

وتسرد من أخباره، وأشعاره، وفيها القطع الثلاث، دون خير الطعام المذكور هنا: فلم أجده في مصادرني التي رجعت إليها.

٢- قوله: «أشتهي **بريد الباقل**» تصحيف، وصوابه: أشتهي برنية باقلي، والبرنيّة: إناء واسع الفم من خزف أو زجاج ثخين^(٤٧).

- وفي (أدباء مالقة) ٩٦: أشتهي **بريد الباقلاء**.

٣- قوله «**بدهن شيرج**» في أعلام مالقة وأدباء مالقة معاً: تصحيف، وصوابه: «**دهن شيرج**» وهو معروف.

٤- قوله «هل أحدثت شيئاً في رقة **الشعر**» في المطبوعتين معاً تصحيف، فليس للشعر بكسر الشين أو فتحها مدخل في النص. وقد صوبته ب (البشرة) ووجدته كذلك حين رجعت إلى ترجمة بهلول.

٥- رواية الفوات: «**رق فلو مرّت به ذرّة**».

٦- في القطعة الثانية، في المطبوعتين معاً:

(٤٦) فوات الوفيات ١: ٢٢٨ - ٢٣١، والوفاي بالوفيات ١٠: ٣٠٩ - ٣١٢ وفيه: قال الشيخ شمس الدين (أي تعليقاً على روايته الحديث: وما تعرّضوا له بجرح ولا تعديل)، وتُنظر في الشعر المروي هنا عن بهلول ترجمة خالد بن يزيد الكاتب لورود شيء منه ثمة (الوفاي ١٣: ٢٧٨ - ٢٨٢).

- ولهبلول أخبار مفرقة (انظر مثلاً العقد لابن عبد ربه، والتذكرة الحمدونية في صفحات كثيرة من أجزاء الكتاب).

(٤٧) وصف البرنية هكذا في الوصلة إلى الحبيب في وصف الطبيات والطيب: ٧٨٠ (الحواشي)، والجمع: البراني.

فكاد يجرحه التشبيه إذ علما

وقوله «إذ علما» تصحيف، وصوابه: «إذ كلما»، من الكلم، وهو الجرح. والكلمة كذلك في الوافي بالوفيات.

٧- أثبتت في (أعلام مالقة) مدة فوق ألف (المرآة) والصواب حذفها ونقل الفتحة إلى الرءاء ليستقيم الوزن، والبيت من المنسرح كما ذكر المحقق، وذلك قوله: أضمر أن يأخذ المرآة لكي... إلخ وقد وردت الكلمة على الصواب في (أدباء مالقة).

وفي ترجمة ابن عسكر (محمد بن علي بن خضر الغساني)، حال المؤلف ابن خميس، نصُّ جمع الشعر والنثر، وفيه صورة من صور الاختلاف. محقق (أعلام مالقة) ومحقق (أدباء مالقة)، وفيه أيضًا ملامح من نقص عملية التحقيق من كلا المحققين الفاضلين، عما يقتضيه حال النص، وطبيعته. والنص على الصفحة ١٨١ في (أعلام...) وهو قطعة من رسالة تعزية، وهو على الصفحة ١٧١ في (أدباء مالقة).

والسياق مأخوذ من (أعلام مالقة)، وسأقابل نقاط المراجعة على (أدباء مالقة): والنص جزء من رسالة تعزية: قال:

«ولست - أعزك الله ووقاك - بأول من أفرده الدهر من حميمه، وجرعه كأس حميمه، فشيم الزمان عدم الأمان، وسجايا الدهر رزايا العلماء في البرّ والبحر، ألم يفتح متممًا بمالك، وصيره يكي لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك، وأصاب الخنساء بصخر، فلم يحجبه ما يسرّه له من الشاء والفخر، وفرّق بين ندماني جديدة، فأفقد كل واحد منهما نديمه - وملاً قلب سيبويه أحزانًا حتى أنشد عن أخوين كانا

كل أخٍ (مهما غدا) أخ له مفارقه

لا بدّ أن يطرقه من الحمام طارقه

وسوف يلحق الفرقدین العناء فلا ينفعهما الاستثناء، فإذا علم المرء أنه إلى الموت مآله، وقد درج عليه سلفه وآله، فما ينفعه الوله، وسوف يفني آخره كما أفنى أوله:

وما المرء إلا هالك وابن هالكٍ وذو نسبٍ في الهالكين عريق
وكتب معها:

عزاءً فمثلك من يؤسى به في العزاء إذا الخطبُ لم
ومن كان قلبك في صدره مما الصبر ما خطّ فيه الألم
وللعلم بدرٌّ به يجتلي إذا ما ادلهمت دياجي الظلم
ومن بدر أن الردى منتهاه فليس مفيداً له ليت لم
ومن أمّل الخلد في دهره فمن جهل نفسه قد ظلم!

قلت:

١- قوله: «من أفرده الدهر من حميمه، وجزّعه كأس حميمه» فيه جناس، وكان أسلوب الجناس فاشياً مع عدد من المحسنات البديعية الأخرى كالسجع، وكانوا يفردون جناس الفواقي متأثرين بالمشاركة، وبأبي الفتح البستي خاصة^(٤٨)، فالحميم الأولى: القريب، والصديق تودّه ويودّك، والثانية: الماء الحار.

٢- قوله: «رزايا العلماء» في (أدباء مالقة): رزايا العلم، ولم يعلقها في الحاشية.

٣- قوله: «ألم يفجع متمماً بمالك» الإشارة فيه مشهورة، والمراد، متمم ابن نويرة (الشاعر) وأخوه مالك بن نويرة من رؤساء قومه، وله خبر مشهور^(٤٩).

(٤٨) له ديوان طُبع أكثر من مرة.

(٤٩) أخباره في السير والتواريخ وحروب الردة خاصة.

- وقوله: وصَيَّرَه ييكي القبول...» إلخ فيه إشارة إلى قول متمم^(٥٠):
- لقد لامني عند القبور على البُكا رفيقي لِتَذْرَافِ الدموع السّوافك
فقال: أتبكي كلّ قبر رأيتُهُ لقبرِ ثوى بين اللوى فالدكادك؟
فقلت له: إن الأسي يبعثُ الأسي ذروني فهذا كله وقبرُ مالك!
قال الأصمعي: قَدِمَ متمم العراق، فجعل لا يمر على قبر إلا بكى عليه فقيل له:
يموت أخوك بالملا وتبكي أنت على قبر بالعراق؟ فقال «الأيّيات»...^(٥١)
- ٤- قوله: «وأصاب الخنساء بصخر» قصتها مشهورة، في رثاء أخيها صخر،
وأكثر شعرها الباقي، في رثائه.
- ٥- قوله: «وفرق بين ندماني جذيمة» فيه إشارة إلى بيت لمتمم في أخيه مالك
من قصيدة طويلة صدّاحة من القصائد الجياد المختارة، وهو قوله (مع بيت يليه):
وَكُنَّا كندماني جذيمة حقبَةً من الدهر حتى قيل لن يتصدّعا
فلَمَّا تفرّقنا كأني ومالگًا لطول اجتماعٍ لم نبت ليلةً معاً!
وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد استنشد متمماً قصيدته^(٥٢) هذه فلما بلغ إلى
قوله: (يعني هذين البيتين) قال عمر: هذا والله التأبين!

(٥٠) القطعة مشهورة، وهي في الحماسة البصرية (طبعة حيدر آباد) ٢: ٢١٠.

- وانظر حاشية المحقق في حواشي الصفحة المذكورة في الكلام على القطعة.

- وانظر الأغاني (الثقافة) ١٥ : ٢٣٩ - ٢٤٩ في أخبار مالك ومتمم، وكانا صحابيين،
وكانا شاعرين.

(٥١) معجم ما استعجم ٢: ٥٥٥.

(٥٢) الأدنى: ١٥ : ٢٤٧.

- وندمانا جذيمة الأبرص هما مالك وعقيل من بلقين أحضرا ابن أخت جذيمة بعد فقدانه فحكّمهما فيما يرغبان فيه فطلبا أن يكونا نديميه، فأنعّم لهما بذلك، وبقيتا معه أربعين سنة، فضُربَ بهما المثل، فذلك قول متمّم (في نفسه وأخيه) «وكنا كندماني جذيمة البيت» والخبر طويل^(٥٣).

٦- قوله: «وملأ قلب سيبويه أحزاناً حتى أنشد (عن) أخوين كانا»

- هذا نص (أعلام مالقة) وفي (أدباء مالقة):

«حتى أنشد: أُخَيَيْنَ كانا»

والذي أنشده سيبويه في الكتاب هو بيت عمرو بن معديكرب^(٥٤):

وكلّ أخٍ مفارقه أخوه لعمراً أبيض إلا الفرقدان

- وعبارة (أدباء مالقة) كما قرأ: "أخيين كانا" هي قطعةٌ من بيت للفرزدق

مشهور من قصيدة نفيسة له وصف فيها الذئب إلى قضايا أخرى^(٥٥):

- والأبرش، والأبرص، والوضاح من صفات جذيمة: لبرص فيه، توفي نحو ٣٦٦ قبل الهجرة وكان ملكاً من ملوك التنوخية في العراق، وهو صاحب القصة المشهورة مع الزّباء (المخبّر ٢٩٩، والكمال لابن الأثير ١ : ٣٤٢، ونهاية الأرب ١٥ : ٣١٦).

(٥٣) القصيدة التي منها البيتان مشهورة، أنشدها متمّم حين قتل خالد بن الوليد رضي الله عنه مالكا في حرب الردّة، والقصة مستفيضة في كتب التاريخ والأدب.

- وانظر: رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة ٣ : ١٢٨٩ - ١٢٩٨ في خبر عمرو بن عدي اللخمي.

(٥٤) كتاب سيبويه ٢ : ٣٣٤، وللنحويين كلام على موضع الشاهد في البيت، قال البغدادي في شرح شواهد المغني (٢ : ١٠٨): «والبيت نسبه سيبويه والجاحظ في البيان، والمبرد في الكامل وغيرهم إلى عمرو بن معديكرب الصحابي ولم أره في ديوانه، ونسبه غير هؤلاء إلى حضرمي بن عامر الأسدي الصحابي أيضاً» ولجامع (شعر عمرو...) كلام على البيت انظره ثمة: ص ١٦٦ - ١٦٧.

(٥٥) ديوان الفرزدق: ٨٧٠.

وأنت امرؤ يا ذئب والغدر كنتم أخيين كانا أرضعا بلبان!

٧- قوله:

كل أخٍ (مهـما غدا) أخٌ لهُ مفارقة
لا بدّ أن يطرقه من الحمام طارقه

أضاف محقق (أعلام مالقة) الكلمتين اللتين بين قوسين ليستقيم الكلام، فيجيء (بحسب قراءته) على مجزوء الرجز، وتصرف في بعض مفردات البيت الأول.
- وفي (أدباء مالقة): «وكل أخٍ أخوه مفارقة، ولا بدّ أن يطرقه من الموت طارقه».

وعلى هذه القراءة فإن الكاتب لم يورد بيتًا من الشعر أو بيتين ولكنه أشار إلى بيت عمرو بن معديكرب، وأدخل بعض مفرداته في عباراته، وأخضع ذلك للسجع. وقراءة (أدباء مالقة) أقرب إلى السياق، وتسلسل الكلام.

٨- قوله: «وسوف يلحق الفرقدان العناء» والعبارة على هذه الصورة في المطبوعتين في الكلام تصحيف، والصواب: «وسوف يلحق الفرقدان العناء». ويمكن أن تقرأ (العفاء) والأولى أولى: ولذا قال بعد ذلك: «فلا ينفهما الاستثناء» والمراد: الاستثناء الذي في بيت عمرو بن معديكرب «إلا الفرقدان» قال سيبويه: «كأنه قال: وكل أخ - غير الفرقدان - مفارقة أخوه»^(٥٦).

٩- قوله:

وما المرء إلا هالك وابن هالكٍ وذو نسب في الهالكين عريق

(٥٦) كتاب سيبويه ٢: ٣٣٥.

قلت: يبدو أن الكاتب تصرّف في البيت، وحوّره، وغيّر حركة الروي فيه، والبيت على وجهه في ديوان أبي نواس من قصيدة مشهورة منها قوله:

إذا امتحن الدنيا لبيبٍ تكشفتْ له عن عدوِّ في ثياب صديق

فحرف الرويِّ (القاف) مكسور، ورواية الديوان هي:

أرى كل حيِّ هالِكًا وابن هالكٍ وذا نسبٍ في الهالكين غريقٍ

١٠- عبارة: «لست» في صدر النصّ مضبوطة في (أعلام مالقة) بضم التاء، وهي مهملة في (أدباء مالقة)، والصواب: ليست، لأن الكاتب يخاطب رجلاً يعزبه، ويخفف عنه بذكر ما أصاب بعض الناس من المشهورين المعروفين من البلاء.

١- رواية البيتين الأخيرين في (أدباء مالقة: ١٧٢) بضبطه:

١- عزاءً فمثلك من يُؤسى به في العزاء إذا الخطبُ لم

٢- ومن كان قلبك في صدره مما الصبر ما خطّ فيه الألم

٣- وللعلم بدرّ به يجتلي إذا ما ادهمت دياجي الظلم

٤- ومن بدر أن الردى منتهاه فليس مفيداً له ليت لم

٥- ومن أتم الخلد في دهره فمن جهل نفسه قد ظلم!

أ) ضبط في (أعلام مالقة): عزاءً بالنصب، وفي (أدباء): عزاءً بالضم وللضم وجهه، والنصب أولى.

ب) قوله: «إذا الخطب لم...» لم يعلق المحققان على العبارة، والظاهر (لو صحّ المخطوط) أن المراد: «إذا الخطب ألم» ثم جرى الاستغناء عن الهمزة ضرورةً (للوطن)، والأولى أن يُكتب الفعل بهمزة وصل إشارة إلى الهمزة المحذوفة للضرورة: «إذا

الخطب الم»^(٥٧).

(ج) قوله في (أعلام): «يحتلي» في البيت ٣ صوابه في (أدباء) بالبناء لغير الفاعل.
 (د) عبارة «فليس مفيداً له» ليت لم «لا معنى لها، والأقرب، وهو مقبول، ما اقترحه في (أدباء)، أن سلم، أي (سلامته) لأنها مؤقتة فحياة الإنسان محدودة، وعلى هذا الملمح قال كعب بن زهير^(٥٨):

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آله حدياءً محمولاً
 وقول حميد بن ثور الهلالي:

أرى بصري قد رابني بعد حدة وحسبك داءً أن تصحّ وتسلما^(٥٩)
 وروي: «بعد صحة»

وهذا كله في معنى الأثر أو الحديث: كفى بالسلامة داءً». انتهى.

- وفي التمثيل والمحاضرة في فقرة «حسن الطباق في كلامه عليه الصلاة والسلام»
 «كفى بالسلامة داءً»^(٦٠).

وإذا انتبهنا، ونحن نقرأ النص، إلى الذوق الفني، والنهج الذي يغلب على الشاعر، استفدنا في القراءة، واقتربنا من طبيعة النص أو حقيقته.

- في ترجمة الكندي بيتان واضحان: وهما ثابتان أيضاً في ترجمته عند صفوان ابن إدريس في (زاد المسافر)، وهما:

لأمرٍ ما بكيت وهاج قلبي وقد سجت على الأيك الحمام

(٥٧) هذا على التسليم بصحة قراءة النص، أو سلامة المخطوطة في هذا الموضع.

(٥٨) ديوان كعب بن زهير - دار الكتب المصرية: ١٩.

(٥٩) في الديوان بعد هذا البيت: يريد أن الصحة والسلامة تؤديه إلى الهرم.

- ديوان حميد بن ثور الهلالي: ٧.

(٦٠) التمثيل والمحاضرة للثعالبي: ٢٥.

لأن بياضها كيباض شيببي فمعنى شدودها: قرب الحمام
ففي هذين البيتين جناسٌ يعرف بجناس التفقية، أو جناس اتفافية، (وقد أُلحِت
إلى هذا الجانب من الفنون البديعية فيما سبق).

- وفي الصفحة نفسها (أعلام: ١٠٧) و (أدباء: ٨٧) بيتان نظمهما الشاعر
على طريقة المقطوعة: آخر كلمة من البيت الأول مطموسة فأكملها كل واحد من
المحققين الفاضلين على ما ارتأى (من جهة المعنى)، وهما:

أنت الغنيّ وإن الفقر برح بي فأغني بالغنى المغني بمن [....]
إن تدركني برُحمي لم أخف درّكاً وإن تكلني إلى نفسي فيا نشبي!
وهما موافقتان من جهة المعنى، لكن الصنعة الفنية، على منهج الشاعر نفسه،
تقتضي أن تكون الكلمة: (النشَب):

فأغني بالغنى المغني عن [النشَب]

- فالنشَب الأولى: المال الأصيل من ناطق وصامت.
- والنشَب الثانية: من قولهم: نَشَبَ في الشيء: وقع فيما لا مَخْلَصَ له منه.

رسم أسماء المترجم لهم: وضبطها في المطبوعتين:

لاحظت اختلافاً (يمكن أن أصفه فأقول كان: اختلافاً كبيراً) في رسم عدد من
أسماء الأعلام وضبطها بين (أعلام مالقة) و (أدباء مالقة) ويلحق بذلك الكنية،
والنسبة، والصفة.

وتحت عدد قليل من هذه الأسماء بعض التعليقات في حواشي المطبوعتين، لكن
المشكلة في تقديم النص إلى القارئ قائمة: أين الصواب في قراءة هذا المحقق الفاضل
أو ذاك؟

وفي الأسماء التي لم يرد لها ترجمة في مكان آخر تكون المشكلة أكبر من غيرها،
والأمر يبقى قلقاً من جهتين:

١- الأولى: مدى صحة - أو موضوعية - الاعتماد على هذه القراءة أو تلك،
واعتمادها في البحوث والدراسات.

٢- والثانية: موثوقية تحقيق النص، وإبراء الذمة أمام القارئ فإنه ألقى عليه
مسؤولية قراءة النص وتقريبه.

وهذا بيان بما رصدته من الاختلاف في ذلك:

- في أعلام مالقة (ص ٧٤) محمد بن خليفة بن عبد الواحد بن سعيد بن
الحارث بن خلف بن عبد الله بن بدر بن سعد الأنصاري. في أدباء مالقة (ص
٤٦)... بن خليفة.

- في أعلام مالقة: (ص ٨٢) محمد بن الحسين... المعروف بابن الفخار، ويعرف
بها، وبصاحب نصف الربض.

في أدباء مالقة: المعروف بابن الفخار ويعرف أيضاً بصاحب نصف
الربض.

(الاختلاف هنا في العبارة وفي إهمال الصاد أو إعجام الضاد وأنا أميل إلى قبول
قراءة د. جرّار في أدباء مالقة).

- في أعلام مالقة (ص ١١٧): محمد بن يحيى بن تلكعت المسوفي.

وفي أدباء مالقة (ص ٩٨) محمد بن يحيى بن تلكعت السرفي.

- في أعلام مالقة (ص ١١٨) محمد المعروف بابن الحنّاط.

في أدباء مالقة (ص ١٠٠) محمد المعروف ابن الحنّاط

- في أعلام مالقة (ص ١٢٠) محمد المعروف بربيب الحش.

- في أدباء مالقة (ص ١٠٢) محمد المعروف برئاب الخشني.
- في أعلام مالقة (ص ١٢٦) ... الغافقي.
- في أدباء مالقة (ص ١٠٩) العاملي.
- في أعلام مالقة (ص ١٥١) محمد بن أبي العباس الشلبي.
- في أدباء مالقة (ص ١٣٧) محمد بن أبي العباس الشلبي.
- في أعلام مالقة (ص ١٥٢) محمد بن أحمد بن عيسى بن جدار^(٦١).
- في أدباء مالقة (ص ١٣٨) محمد بن أحمد بن عيسى بن جزّار.
- في أعلام مالقة (ص ٢٠٠) المنذر بن رضى الرعيبي.
- في أدباء مالقة (ص ١٩٢) المنذر بن رضى الرعيبي.
- في أعلام مالقة (ص ٢١١) صالح بن علي بن مسلمة الأنصاري.
- وفي أدباء مالقة (ص ٢٠٤) صالح بن علي بن سلمة الأنصاري.
- في أعلام مالقة (ص ٢٢٠) عامر بن معاوية ... بن لوذان اللخمي.
- في أدباء مالقة (ص ٢١٦) عامر بن معاوية ... بن لوران اللخمي.
- في أعلام مالقة (ص ٢٢٧) عبد الله بن الرية المالقي.
- في أدباء مالقة (ص ٢٢٣) عبد الله بن الوية.
- في أعلام مالقة (ص ٢٣٤) عبد الله بن أحمد بن محمد الحميري.
- في أدباء مالقة (ص ٢٣١) عبد الله بن أحمد بن محمد الحجري.
- في أعلام مالقة (ص ٢٣٨) عبد الله بن رضوان المداتي.
- وفي أدباء مالقة (ص ٢٣٦) عبد الله بن رضوان المراني.

(٦١) قال الدكتور التزني في الحاشية: له ترجمة قصيرة في الذيل والتكملة ٦: ٥٤ وكان حياً في

- في أعلام مالقة (ص ٢٤٤) عبد الله بن رضى بن المنذر بن رضى.
 - في أدباء مالقة (ص ٢٤٣) عبد الله بن رضى بن المنذر بن رضى.
 - في أعلام مالقة (ص ٢٤٥) عبد الله السطيعي السبتي.
 - وفي أدباء مالقة (ص ٢٤٤) عبد الله السطيفي السبتي.
 - في أعلام مالقة (٢٥١) عبد الرحمن... بن حُبَيْش.
 - وفي أدباء مالقة (ص ٢٥١) عبد الرحمن بن حُسين.
- ونبذه د. التّرغّي على أن الأصل حسين وغيره إلى حُبَيْش استثنائاً بعدد من كتب التراجم التي ترجمت له، باسم بن حُبَيْش صراحة، وأبقى د. جرّار الكلمة على حالها، ثمّ نبّه في الحاشية على اسم (حُبَيْش) في سلسلة نسبه نقلاً عن صلة الصلة.
- في أعلام مالقة (ص ٣٠١) علي بن الحسين... يكنى أبا الحسن.
 - في أدباء مالقة (ص ٣١١)... يكنى أبا الحُسين.
 - في أعلام مالقة (ص ٣٠٣) علي بن فرحون القيسي.
 - في أدباء مالقة (ص ٣١٤) علي بن فرجُون القيسي.
 - في أعلام مالقة (ص ٣٠٥) علي بن يحيى الحشمي.
 - في أدباء مالقة (ص ٣١٦) علي بن يحيى الخشمي.
 - في أعلام مالقة (٣١٧) علي بن جامع الأوسي.
 - في أدباء مالقة (٣٣١) علي بن جامع المرسي.
 - في أعلام مالقة (٣٢٧) عمران الدّجّي.
 - في أدباء مالقة (٣٤٥) عمران الرّجّي.

- في أعلام مالقة (٣٢٨) عيسى بن عياش بن محمد القيني^(٦٢)
 في أدباء مالقة (٣٤٦) عيسى بن عياش بن محمد القيسي.
 - في أعلام مالقة (٣٢٩) علي بن عطية المالقي.
 في أدباء مالقة (٣٤٧) علي بن عطية القضاعي.
 - في أعلام مالقة (٣٢٩) زاد في عنوان ترجمة عيسى بن سليمان الرعيني الرندي.
 في أدباء مالقة (٣٤٧)... الرعيني (لم ترد كلمة الرندي).
 - في أعلام مالقة (٣٣٦) قاسم بن سعدان بن إبراهيم أندي من أهل رية.
 في أدباء مالقة (٣٥٧) قاسم بن سعدان بن إبراهيم الرلي من أهل رية.
 - في أعلام مالقة (ص ٣٥٥) شهيد بن محمد بن شهيد المصري^(٦٣)
 في أدباء مالقة (ص ٣٨٢) شهيد بن محمد بن شهيد المصري.
 مثال على اختلاف قراءة المخطوطة بين المحققين:
 في ترجمة المنذر بن رضى الرعيني قطع مختارة من الشعر، قال في القطعة الأولى
 (في أعلام مالقة: ٢٠٠)
 ومن شعره في وصف قبينة:
 وقينة تستببك حسناً كمسك دارين إذ تُشمُّ
 ألد في الكف منها ثريُّ تطعن في الصدر إذ تُضمُّ
 - وقرأ النص (في أدباء مالقة: ١٩٣).

(٦٢) نبه المحقق على الأصل (القيسي) وغيره بما ورد في الذيل والتكملة وصلة الصلة وأشار محقق أدباء مالقة إلى ذلك، وأبقى رسم الأصل.
 (٦٣) نبه الدكتور الترغي في الحاشية على أن الأصل (المصري) ولم يذكر في الحاشية المصدر الذي صحح عنه، أو القرينة التي ساعدته على الاختيار والترجيح.

وَقِيْمَةٌ تَسْتَبِيكُ حُسْنًا كَمَسْكَ دَارِيْنَ إِذْ تَشْمُ
أَلْدُ فِي الْكَفِّ مِنْ ثَرِيٍّ تَطَعُنُ فِي الصَّدْرِ إِذْ تَضْمُ

قلت:

- ١- الشطر الأول من البيت الثاني في (أعلام مالقة) مضطرب الوزن، ويسلم بأن يكون (من ثديي).
- ٢- قال في التقسيم «في وصف قينة» وعلى هذه القراءة قرأ الكلمة الأولى من البيت الأول «وقينة»، وهي الجارية (المملوكة) والمغنية.
- ٣- قرأ في (أدباء مالقة) الكلمة: «وقيمة» بالميم، في التقديم، وفي البيت أيضًا.
- ٤- وقرأ في البيت الثاني (من ثريي) أي من رجل ثري (كأن المحقق ربط بين القيمة والثري).

وهذا كله تصحيف، وتوهّم في قراءة النص، وعدم انتباه إلى مجرى الكلام، وصواب قراءة البيتين، والتقديم:

ومن شعره في صفة تينة:

وَتَيْنَةٌ تَسْتَبِيكُ حُسْنًا كَمَسْكَ دَارِيْنَ إِذْ تَشْمُ
أَلْدُ فِي الْكَفِّ مِنْ ثَرِيٍّ تَطَعُنُ فِي الصَّدْرِ إِذْ تَضْمُ

- ولهذا النوع من التين - كما يقول - رائحة فواحة، وهو حسن، فائق الحسن.

وقد اشتهرت مالقة بالتين، قال في الرّوض المعطار^(٦٤):

«وفيما استدار بها من جميع جهاتها شجر التين المنسوب إليها، وهو يُحمَلُ إلى

(٦٤) الرّوض المعطار في خبر الأخطار: ٥١٧.

مصر والشام والعراق وربما وصل إلى الهند، وهو من أحسن التين طيباً وعضوبةً». وكان من الأدباء وغيرهم من يذكرون هذا التين شعراً ونثرًا، وفيهم القاضي المحدث الشهير أبو محمد بن حوط الله الأنصاري، فإنه لما تولى قضاء مالقة وقدم عليها خرج طلبتها إلى لقاءه فأنشدهم:

مالقةً حيت يا تينها الفلك من أجلك يا تينها!
نهي طبيبي عنك في علتى ما لطبيبي عن حياتي نهي؟
والشطر الثاني من البيت الثاني من صفة: نُديّ.

يقول الشاعر: لهذه التينة (التي تشبه الندي) ألد من الندي الحقيقية (على تلك الصفة التي وصفها في البيت).

وقال ابن مغاور في رسالة له إلى صديق يذكر نوعاً من التين الجيد الأسود اللون: «... وما شئت من نُديّ ملس، وشفاه لُعس...»^(٦٥) واللُعس: سُمرَةٌ مستحسنة، والكلام على التشبيه.

- وقال في بعض شعره:

بأبي اليوم ونفسي بلسن كئديّ الزنج كدّت عسلا

والبلس: هو التين، والكلمة يمنية استقرت في الأندلس^(٦٦).

المصادر والمراجع:

(٦٥) ابن مغاور الشاطبي: ٢٦٠.

(٦٦) في اللسان أن البلس هو التين: وقال في طرفٍ من مادة (ب ل س): والبلسُ (بالتحريك) شيء يشبه التين يكثر باليمن) وفي شمس العلوم (٦١٢): البلس: التين بلغة أهل اليمن... وفي حديث النبي ﷺ: «من أحب أن يرق قلبه فليدمن أكل البلس» وفي الحاشية ما نصه: «لا يزال البلس هو اسم التين في اليمن».

- الآثار الأندلسية الباقية - محمد عبد الله عنان - مكتبة الخانجي - القاهرة ١٣٦١ - ١٩٨١.
- آخر أيام غرناطة = نبذة العصر.
- الإحاطة في أخبار غرناطة - لسان الدين بن الخطيب - تحقيق محمد عبد الله عنان - مكتبة الخانجي - القاهرة.
- أدباء مالقة - ابن خميس - تحقيق د. صلاح جزّار - دار البشير ومؤسسة الرسالة: عمان - بيروت - ١٤١٩ - ١٩٩٩.
- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ - شمس الدين السخاوي - مكتبة القدسي - القاهرة - (كتاب صورته دار الكتاب اللبناني).
- الأعلام - خير الدين الزركلي - دار العلم للملايين - بيروت.
- أعلام مالقة - ابن عسكرا، وابن خميس - تحقيق الدكتور عبد الله المرابط التزغني - دار الغرب الإسلامي - ١٩٩٩.
- الأغاني - أبو الفرج الأصفهاني - تحقيق عبد الستار فراج - دار الثقافة - بيروت.
- تاريخ الأدب الأندلسي - (عصر الطوائف والمرابطين) - د. إحسان عباس - دار الثقافة - بيروت.
- تاريخ الأدب العربي - (الأندلس) د. شوقي ضيف - دار المعارف - القاهرة - ١٩٨٩.
- تاريخ الأدب العربي - د. عمر فترّوخ - دار العلم للملايين - بيروت - ١٩٨٣.
- ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان، والمسالك إلى جميع الممالك - لأحمد بن عمر العذري وتحقيق عبد العزيز الأمواني - معهد الدراسات الإسلامية - مدريد - ١٩٦٥.
- التذكرة الحمدونية - ابن حمدون - تحقيق د. إحسان عباس - دار صادر - بيروت - ١٩٩٦.
- التكملة لكتاب الصلة - ابن الأثير - تحقيق عشرة العطار الحسيني - القاهرة ١٩٥٦.
- التمثيل والمحاضرة - الثعالبي - تحقيق عبد الفتاح الحلو - مكتبة عيسى البابي الحلبي - القاهرة - ١٣٨١ - ١٩٦١.
- الحماسة البصرية - صدر الدين علي بن أبي الفرج البصري - تحقيق مختار الدين أحمد - حيدرآباد الدكن - الهند - ١٩٦٤.

- ديوان بشار بن برد - تحقيق الطاهر بن عاشور - الشركة التونسية للتوزيع والشركة الوطنية للنشر والتوزيع - ١٩٧٦.
- ديوان حميد بن ثور الهلالي - عبد العزيز الميمني - دار الكتب المصرية ١٣٧١ - ١٩٥٠.
- ديوان الفرزدق (شرح) - عُني بجمعه وطبعه والتعليق عليه عبد الله الصاوي - نشر المكتبة التجارية، القاهرة - ١٣٥٤، ١٩٣٦.
- ديوان كعب بن زهير - دار الكتب المصرية - القاهرة ١٣٦٩ - ١٩٥٠.
- الذخيرة من محاسن أهل الجزيرة - ابن بسام - تحقيق د. إحسان عباس - دار الثقافة - بيروت ١٣٩٩ - ١٩٧٩.
- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة - المراكشي - (ج ٥ ق ١٠) تحقيق الدكتور إحسان عباس - دار الثقافة - بيروت - ١٩٦٥.
- رحلة الأندلس - د. حسين مؤنس.
- رحلة ابن بطوطة - دار صادر.
- رسائل ابن أبي الخصال الغافقي الأندلسي - تحقيق محمد رضوان الداية - دار الفكر - دمشق.
- رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة - الشريف الغرناطي - تحقيق محمد الحجوي - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الرباط - ١٤١٨ - ١٩٩٧.
- الروض المعطار في خبر الأقطار - محمد بن عبد المنعم الحميري - تحقيق د. إحسان عباس - مكتبة لبنان - بيروت.
- شرح شواهد مغني اللبيب - البغدادي - دار المأمون - دمشق.
- شعر عمرو بن معديكرب - مطاع الطرايشي - مجمع اللغة العربية - دمشق - ١٣٩٤ - ١٩٧٤.
- شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم - نشوان الحميري - تحقيق د. حسن العمري وآخرين - دار الفكر - دمشق - ١٩٩٩.
- صلة الصلة لأبي جعفر بن الزبير - تحقيق د. عبد السلام هراس وأ. سعيد أعراب - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الرباط.
- فوات الوفيات، والذيل عليها - محمد بن شاكر الكتبي - تحقيق د. إحسان عباس - دار صادر - بيروت.

- في الأدب الأندلسي - محمد رضوان الداية - دار الفكر - دمشق.
- الكامل في التاريخ - ابن الأثير - دار صادر ودار بيروت - بيروت - ١٣٨٥ - ١٩٦٥.
- كتاب سيبويه - تحقيق عبد السلام هارون - عالم الكتب - بيروت.
- لسان العرب - ابن منظور.
- متن اللغة - أحمد رضا - دار مكتبة الحياة - بيروت.
- المحرر - ابن حبيب - دائرة المعارف العثمانية - الهند - ١٣٦١ هـ.
- مختارات من الشعر المغربي والأندلسي (لم يسبق نشرها) - د. إبراهيم بن مراد - دار الغرب الإسلامي - ١٤٠٦، ١٩٨٦.
- معجم البلدان - ياقوت الحموي - دار صادر - بيروت.
- معجم ما استعجم - البكري الأندلسي - تحقيق مصطفى السقا - لجنة التأليف والترجمة - مصر - ١٣٦٦، ١٩٤٧.
- معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار - لسان الدين بن الخطيب - تحقيق د. محمد كمال شبانه - أبو ظبي - ١٣٩٦ - ١٩٧٦.
- ابن مغادر الشاطبي (حياته وآثاره) - د. محمد بنشريفة - الرباط - ١٤١٥ - ١٩٩٤.
- مفخرة مالقة وسلا - لسان الدين بن الخطيب (في مشاهدات لسان الدين بن الخطيب) رسالة: تحقيق د. مختار العبّادي - القاهرة.
- الموسوعة في علوم الطبيعة - د. إدوارد غالب - دار المشرق - لبنان ط ٢ - ١٩٨٨.
- نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر - (مؤلف مجهول) تحقيق محمد رضوان الداية - ط ٢ - دار الفكر - دمشق.
- نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب - المقرئ - تحقيق د. إحسان عباس - دار صادر - بيروت.
- نهاية الأندلس - محمد عبد الله عنان - مكتبة الخانجي - القاهرة.
- النهاية في غريب الحديث - ابن الأثير - تحقيق الطناحي - مكتبة عيسى البابي الحلبي - القاهرة.
- الوافي بالوفيات - صلاح الدين الصفدي - دار النشر فرانز شتاينر - فسادن - ألمانية.
- الوصلة إلى الحبيب في وصف الطبيب والطيب - ابن العديم - تحقيق سليم محبوب ودرية الخطيب - معهد التراث العلمي العربي - حلب - ١٤٠٦، ١٩٨٦.

القصيدة المتداخلة

أ. هلال ناجي (*)

التداخلُ لغةً: تشابهُ الأمور والتباسها ودخول بعضها في بعض^(١).
مثلُ هذا التداخل عرفه ديوانُ الشعر العربي القديم في عدد من القصائد، من أبرزها
اللامية الشهيرة التي نسبت للسموول في كثير من المصادر، كما نُسبت لعبد الملك بن عبد
الرحيم الحارثي لاتفاقهما في الغرض والروي والوزن والقافية^(٢):
وهذا التداخل الذي وقع فيه الرواة قديماً له نظائر في ديوان الشعر العربي ومثالها:
قصيدة الراعي النميري التي أولها:

ألا اسلمي اليومَ ذات الطوق والعاج والدلّ والنظّر المستأنس الساجي^(٣)
فقد وردت فيها ستة أبيات هي^(٤):
ما زال يفتحُ أبوابًا ويُعلّقها بعدي، ويفتح بابًا بعد إرتاج
حتى أضاء سراجٌ دونهُ قمرٌ حمراً الأنامل حورٌ طرفُها ساجي

(*) باحث ومحقق من العراق، وعضو مراسل في مجمع اللغة العربية بدمشق.
(١) لسان العرب لابن منظور: مادة دخل - المجلد الحادي عشر ص ٢٤٣.
(٢) تنظر دراستنا المفصلة عن هذه القصيدة في كتابنا «بحوث في النقد التراثي» ص ٥٦ - ٦٣ بيروت - دار
الغرب الإسلامي ١٩٩٤.
(٣) شعر الراعي النميري بتحقيق هلال ناجي ونوري القيسي - مطبوعات المجمع العلمي العراقي
ص ١١٨ - ١٢٣ بغداد.
(٤) المؤلف والمختلف: الآمدي ص ١٧٧.

يضحكن للهو واللثات عن بَرَدٍ تَكْشُفَ البرق عن ذي بَجَّةٍ داجٍ
 كأنما نظرت نحوي بأعْيُنِهَا عين الصرعية أو غزلان مُرتاح
 يا نُعَمَهَا ليلةً حتى تَحَوَّكَهَا صوتُ منادٍ بأعلى الصُّبحِ شَحَّاحٍ
 لما دعا الدعوة الأولى فأسمعني أخذتُ بُرْدِيَّ واستمررتُ أدراجي

هذه الأبيات الستة أوردها الآمدي منسوبة للراعي خليفة بن بشر بن عمير من بني عدي بن جناب نقلاً عن السكري، وقال عنها ما نصُّه: «وهي أبيات تدخل في قصيدة الراعي النميري التي على وزنها لاتفاق الاسمين والقصيدتين». فتداخل القصائد المتشابهة الغرض والوزن والروي والقافية معروف منذ القديم. وهو التفسير العلمي لهذا التداخل الكبير في نسبتها نتيجة سهو الرواة.

* * *

من هذه القصائد التي عُرفت بالتداخل منظومة ضمّت الأفعال المعتلة اللام بما تُقرأ بالواو والياء معاً ومطلعتها:

قُلْ إِنْ نَسَبَ عَزْوُهُ وَعَزِيَّتُهُ وكنوتُ أحمد كُنْيَةٌ وَكُنْيَتُهُ

أبيات من هذه القصيدة نُسبت للأديب شهاب الدين الشوّاء الحلبي الكوفي المتوفى سنة ٥٦٣٥هـ، وعِدَّتْهَا خمسة عشر بيتاً. وقد شرحها الشيخ بهاء الدين بن النحاس المتوفى سنة ٦٩٨هـ في كتاب له عنوانه «مهارة الكلّتين وذات الحلتين»^(١)، وأتبع شرحه بقصيدة له جمع فيها ما فات الشوّاء الحلبي الكوفي من الأفعال المعتلة اللام، ونظمها على رويّ قصيدته ووزنها، وعدة أبيات قصيدة ابن النحاس أربعة

(١) مهارة الكلّتين وذات الحلتين: للشيخ بهاء الدين محمد بن إبراهيم بن النحاس. دراسة وتحقيق د. تركي

بن سهو بن نزال العتيبي. ط١ - ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م. مطبعة المدني - القاهرة.

وثلاثون بيتاً، جمع فيها تسعة وخمسين فعلاً من الأفعال المعتلة اللام مما جاء فيها لغتان: الواو والياء، وأول قصيدته:

وَأَسَوْتُ مِثْلَ أَسَيْتُ صَلِحًا بَيْنَهُمْ وَأَسَوْتُ جِرْحِي وَالْمَرِيضُ أَسَيْتُهُ

وقد شرح ابن النحاس قصيدته هذه، كما شرح قصيدة الشواء الحلبي التي تقدم ذكرها شرحاً اعتمد فيه كثيراً من المعاجم والمصادر اللغوية.

وكان الدكتور محمد أحمد الدالي قد نَهَدَ لتقويم ونقد الكتاب الذي تولى تحقيقه د. تركي العتيبي، وتولى نشر ملاحظاته في مجلة المجمع الدمشقي^(١)، وعقّب علامة الشام د. شاكر الفخّام على مقال الدالي في ذيله.

وكان مدار تعليقه أن قصيدة في الأفعال التي وردت لاماتها بالواو والياء أوردها السيوطي في المزهرة منسوبة لابن مالك وعدّها ٤٩ بيتاً، وهي الأبيات ذاتها التي وردت في منظومتي الشوّاء وابن النحاس^(٢). ثم ناقش الأستاذ الفخّام ما قاله المحقق العتيبي في موازنته بين منظومتي الشوّاء والنحاس إذ قال: «وأود أن أشير إلى أن الإمام السيوطي قد وهم في نسبة هاتين المنظومتين فجعلهما قصيدة واحدة، ووهم في نسبتها إذ عزاهما إلى ابن مالك».

إن الرئيس الجليل ردّ على هذا الاعتقاد بالآتي: لا يكفي في معالجة القضية المثارة أن ننسب الوهم إلى الإمام السيوطي ارتحالاً دون دليل مقنع، ولا سيّما أن المحقق قد ذكر أن ثمة مخطوطة في «جسترتي» قد نسبت الأبيات إلى ابن مالك، فالسيوطي لم ينفرد بنسبة الأبيات لابن مالك.

(١) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق مج ٧٢ ج ١ ص ١٣٥ - ١٥٩.

(٢) المزهرة للسيوطي ج ٢ ص ٢٧٩ - ٢٨٢ بتحقيق محمد أحمد جاد المولى والبجاوي وأبو الفضل إبراهيم.

كذلك فإن بروكلمان قد ذكر أن قصيدة الشواء الحلبي هذه نسبت إلى ابن مالك في مخطوطتين ببرلين^(١).

كذلك تصدى الشيخ محمد بن أبي شنب - العالم الجزائري المعروف - في مقالة نشرها في مجلة مجمع دمشق^(٢)، وانتهى إلى صحة نسبتها للسيوطي. إنه لا بدّ من دراسة متأنية معمقة تنتهي إلى حلّ مقنع موثق بالأدلة في نسبة هذه القصيدة.

ودعا الدكتور الفخام الأساتذة العلماء للكشف عما ينتهون إليه في صاحب الأبيات، وذكر أن طائفة من الكتب التعليمية التي كانت تصدر في القرن التاسع عشر والنصف الأول من العشرين كانت تشتمل على القصيدة المذكورة منسوبة إلى ابن مالك، وأن المنظومة وردت في كتاب (سراج الكتبة) للشيخ مصطفى طوموم وفي ختامها زيادة أربعة عشر بيتاً، ولم ينسب المؤلف المنظومة لأحد. ومما تقدم يتضح أن العلامة الفخام نشر أضواء كاشفة حول نسبة القصيدة وترك الأمر للباحثين يحققون وينتفرون حتى ينتهوا إلى وجه الصواب.

وأقول: لقد كان تساؤل الرئيس الجليل وارداً بلغة أهل القانون - فالقصيدة متداخلة حقاً ونسب بعضها للشوّاء وبعض للنحاس، ونسبت كلها لابن مالك، والرأي عندي: أن هذا التداخل قاسم ففي مخطوطة قديمة (أرفق مصورتها بمقالتني) نسخها عالم جليل هو محمد بن أحمد بن إبراهيم القرشي الشافعي في الثالث عشر من جمادى الآخرة سنة سبع وسبعمئة، ذيلها الناسخ بالآتي: «قيل إن الأبيات الأولى التي آخرها:

فاعجب لبرد فضيلةٍ وشيئةٍ

(١) تاريخ الأدب العربي - كارل بروكلمان - الترجمة العربية ج ٥ ص ٥٢.

(٢) مجلة مجمع دمشق المجلد الثامن ص ٤٣٢ - ٤٣٨، ٦٩٢ - ٦٩٣.

من نظم الشيخ ابن مالك، وما بعد ذلك من نظم بهاء الدين ابن النحاس، رحمه الله تعالى ورضوانه عليهما».

وفي موضع العنوان بعد البسملة ما نصه (هذه قصيدة مشتملة على ما يُنطق به من الألفاظ بالواو والياء). وإذا ما لاحظنا أن الشواء الحلبي توفي سنة ٦٣٥هـ، وابن مالك توفي سنة ٦٧٢هـ، وابن النحاس توفي سنة ٦٩٨هـ، نجد أن تاريخ نسخ هذه المخطوطة قريب جداً من تاريخ وفاة ابن النحاس، فبينهما بضع سنوات. وما ذكره ناسخ المخطوطة صواباً فيما يخص نسبة أبيات ابن النحاس إليه. والخلل في الهامش مقتصر على ما نُسب لابن مالك.

فالصواب: أن الأبيات الأول - المنظومة الأولى - هي للشواء الحلبي بالأدلة التالية:

- ١- نسبتها إليه في كتاب (مهارة الكلّتين وذات الحلتين) ص ٣٧ - ٣٨.
- ٢- ثبوت نسبتها إليه في كتاب (البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة) لمجد الدين الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ) ص ١٨٢.
- ٣- ثبوت نسبتها إليه في كتاب «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» لحاجي خليفة - العمود ١٣٤٤. بالنص التالي:
(قصيدة فيما يقال بالواو والياء للأديب أبي المحاسن يوسف بن إسماعيل الشواء الحلبي المتوفى سنة ٦٣٥ هـ. أولها: قُلْ إِنْ نَسِيتَ عَزْوُهُ وَعَزِيَّتُهُ.
شرحها محمد بن إبراهيم بن النحاس الحلبي المتوفى سنة ٦٩٨ هـ. وسمّاه هذا (هدى) مهارة الكلّتين. أوله: الحمد لله مُنْطِقَ اللسان...)
- ٤- ثبوت نسبتها إليه بكتاب هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ج ٢. العمود ٥٥٤ وفيه ما نصه: الشواء شهاب الدين أبو المحاسن يوسف بن إسماعيل له قصيدة فيما يقال بالواو والياء.

وأما منظومة ابن النحاس الحلبي فهي ثابتة النسبة إليه بكتابه المطبوع «مهارة الكلّتين» ص ٣٩ - ٤١، حيث أوردتها نصًّا وشرحها بعد ذلك، ويمكن أن نضيف إلى هذا الدليل القاطع ما ورد في هامش المخطوطة المؤرخة سنة سبع وسبعمئة المكتوبة بخط ناسخها محمد بن أحمد بن إبراهيم القرشي الشافعي^(١).

وهكذا يتضح أنّ الإمام السيوطي قد أخطأ في المزهر في نسبتها لابن مالك لوجود مصادر قديمة مطبوعة تقدم ذكرها، قد أوضحت وجه الحقيقة في نسبتها.

* * *

لكنّ ما بين أيدينا من نصوص مطبوعة مثل «مجموع مهمات المتون» قد أورد القصيدة بزيادة ١٨ بيتًا. ووقعت هذه الأبيات في مطلع النص ثم في نهايته، فما الرأي فيها؟

إن الحلقة المفقودة هي في: مَنْ نَظَمَ الأبيات التي بها صُدِّرَتْ وَدُيِّلَتْ منظومتا الشواء وابن النحاس؟

(١) أبو عبد الله ناسخ المخطوطة كان من كبار العارفين، نسب السبكي إليه في الطبقات الكبرى القصيدة المسماة الفرج بعد الشدة المجرية لكشف الكروب وأولها: (اشتدي أزمة تفرجي). وهي التي طبعت منسوبة ليوسف بن محمد التوزري كان من مواليد القرن السادس الهجري وأدرك القرن السابع. تشرف بصحبته خطيب جامع عمرو بن العاص محمد بن الحسين بن عبد الرحمن الأنصاري، ومن صحبه أيضًا قاضي القضاة بمصر عبد الرحمن بن عبد العليّ المصري.

من أقواله: «علامة الصادق أن يفتقر بإيمانه إلى كلّ إيمان، ويعقله إلى كلّ عقل، ويعلمه إلى كلّ علم». تنظر طبقات الشافعية الكبرى ج ٨ ص ٤٩، ٥٣، ٥٦ - ٦٠ والجزء التاسع ص ١٧١.

إننا نفتقد النص المخطوط الذي يؤكد صحة نسبة هذا التصدير والتذييل لابن مالك. وما جاء في كتاب (مجموع مهمات المتون)^(١)، لم يذكر فيه شيء عن المخطوطة المعتمدة، وكيف نسبت لابن مالك النصوص التي تقدم ذكرها مع الزيادة. وبالرجوع إلى «المزهر في علوم اللغة وأنواعها» نرى السيوطي قد نسب منظومتي الشواء وابن النحاس لابن مالك، دون تصديريهما أو تذييلهما، أي دون الإضافة التي لحقتهما.

وهذا معناه أن هذه الزيادة لم تكن معروفة أيام السيوطي وإلا لأثبتها هي الأخرى في النص الذي نسبه لابن مالك. ولو أنها كانت معروفة أيام ابن مالك لأوردها في بعض مؤلفاته وقد وصلنا الكثير منها. ولو أنها كانت معروفة أيام ابن النحاس لأوردها في «مهارة الكلتين» وهذا ما لم يحصل.

فالافتراض الوحيد الباقي هو: أنها من نظم بعض المتأخرين ممن جمع منظومتي الشواء وابن النحاس لاتفاق الغرض والوزن والقافية، ثم تراءى له تصديريهما وتذييلهما ثم نسبة القصيدة إلى أشهر من عُرف بالمنظومات التعليمية على امتداد القرون المتأخرة، وهو ابن مالك الذي نظم أكثر من سبعة آلاف بيت من المتون العلمية، لا سيما أن الأبيات الملحقة يصح اعتبارها تنمة للأفعال المعتلة اللام مما يقرأ بالواو والياء أي إنها مستدركة على منظومتي الشواء وابن النحاس.

إن شهرة ابن مالك في النظم التعليمي قد طغت على منظومتي الشواء وابن النحاس، فشملتتهما وما أضيف إليهما، حتى انجلى الأمر عند نشر (مهارة الكلتين).

(١) مجموع مهمات المتون - نشرته مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر - ط ٤

إنَّ أبياتَ التصدير والتذييل هذه من الناحية الفنية في غاية الضعف والركة، ولا يمكن أن تنسب لعالم جليل كابن مالك ولو كان نظامًا.

لقد أفرد ابن السكيت بابًا في «إصلاح المنطق» للأفعال التي جاءت لاماتها بالواو والياء ومثله صنع ابن قتيبة في «أدب الكاتب».

وقد ظهر تأثير الشواء وابن النحاس في العالم الكردي الجليل عبد الله بن محمد البيتوشي الشافعي المتوفى سنة ١٢١١هـ فحَبَّر منظومةً من بحر الرجز عدة أبياتها ٧٨ بيتًا، وعدد الأفعال المعتلة اللام فيها (١٢٥) فعلاً، فهو إذن قد استدرِك على منظومات الشواء وابن النحاس والناظم المتأخر المجهول أيضًا. فعدد الأفعال في منظوماتهم ٩٢ فعلاً. وأضيف أن البيتوشي شرح منظومته شرحًا لغويًا دقيقًا، وقد حققها د. هاشم طه شلاش تحقيقًا علميًا جيدًا ونشرها في المورد العراقية^(١).

وبعد: فحتى يصوبني مَنْ بحوزته نص مخطوط موثق ينسب هذه الزيادة لابن مالك أو لغيره، فإنها ستظل مجهولة الناظم، والله العالم.

بسم الله الرحمن الرحيم حمد الله على نعمه على الخلق وحمد الله على نعمه على الخلق
شده قصيدته مشتملة على ما ينطق به الخلق من الهواء والماء

قل أرقت عذوقه وعزيبه ونوت أجركه وكسبه وطيبته ومن طوبى من طوبى
شامول قننه وسوته وجرث غور وقاثر طينه وجنونه عوخته جحشيه
وقلونه بالبار مثل قلبه ورتوت خلايا مثل ريشه وارتوت مثل النمل في
وشاقته كسفته وشاقته وصغرت مثل صغرت كحوت وطونه بالحي مثل حليته
وسغرت بار وموقد الكهينا وطيبته على طابها لطفوته وجوت ما جانا لبيته
وجزونه كثرته وجزسه ورتوت مثل ريشه لطاره وجوت خط الطرس محنته
أحتو كحيت في ربه ما وسجوت ذالك الطرس على سجنه ودلاطون طلا القلا طلسه
ونوت مخ عطامه تعنته وهدوتهم هديتهم فولك ودر العفا ما ربه جماسه
مال الحيو ونمي زادلي وحشوت عدلي باق وحشيه وارتوت مثل القنن جيت قفها
في المختار منونه شيبه وجرثه ولبته سطخته فاعل لورد فضيله وشيبه

واسون ما بينه على الينم واسون حرجي والبرم لسنه اذو واذا في اللطيف حموره
اارتوت مثل صلتنه وادمنه وارتوت ان الحرات وارتوت من ذالك التي كل نوت هنته
والسفاطوه واطبه معا وعظونه وعظينه عطيه وطوت نقتا ذالك جايسها
اكونت فعل الر مثل حليته وجوت مثل حليته تعطف وارتوت حنلته وارتوت
وجنونه وضاميه لطفابه وطوته وطينه اعطيه وطوت مثل حليته صرعا
ورهنه نصيبه وديته وحقا ذالك اعرض الحار بوقه ورتوت مثل البطة وديته
ودوت مثل ديت عدلها معا ودر الك على وشكون شكنه وادانا كل باب باهم ذرا
ودوت بالسر الصبا وديته ودر اذ ذرت الراج تراها ورتوت شيا قلته مثل كرت
ذاو وذا يا حيت نمرع عاتنه وفتت في سجنه وسجنه ورتوتها وربطها حيا معنها
وذا اسطرت بكونه وديته ورتوت مثل ريف نهر اشيا وبعوت حيا مثل بعينيه
وسلوت نوت على سايب ملته وسروت على الهوى مثل سرته ودر اسف شوقه ورتوت
وسلوتها ورتوتهم ورتوتهم والصبر والعقوى البروز لنا وعشوتها الماد لمعشيه
طوبى طيبه نوت النار حيت نوتها مصوب روتها وطوبه حرايه وطيبه
نوت صلبنا وطيبنا وارتوت الارض على الارض على الارض ورتوتهم ورتوتهم
نوتهم ورتوتهم ورتوتهم ورتوتهم ورتوتهم ورتوتهم ورتوتهم ورتوتهم
نوتهم ورتوتهم ورتوتهم ورتوتهم ورتوتهم ورتوتهم ورتوتهم ورتوتهم

صورة الصفحة الأولى من مخطوط القصيدة المتداخلة



صورة الصفحة الأخيرة من مخطوط القصيدة المتداخلة

التشبيه الضمني
وأوليياته في شعر العصر العباسي
(المتنبي نموذجًا)

د. عمر عبد الرحمن الساريسي (*)

مقدمة:

تفنن الشاعر في العصر العباسي، في إبراز الصور التي يرسمها. وذلك في مثل قول ابن المعتز في الحديث عن الحاسد: (١)

اصبرِ على كيدِ الحَسودِ فإنَّ صبرَكَ قاتِلُهُ
فالنَّارُ تأْكُلُ نفسَها إنَّ لم تجدْ ما تأْكُلُهُ

فهذه الصورة جاءت في شكل تشبيه: طرفه الأول الحاسد، وطرفه الثاني النار، ويجمع بينهما أن الصبر على الحاسد يُطْفِئُ حسدَه، كما أن إبعاد الخطب عن النار يؤدي إلى خمودها. وهذا اللون من التشبيه يُدعى التشبيه الضمني، يحمل صورة فنية بديعة للتعامل مع الحاسدين.

وفي هذا البحث ستظهر بوادر التشبيه الضمني، وقيمته وأثره في تحديد المعاني،

(*) عضو الهيئة التدريسية في جامعة الفرات.

(١) ديوانه، دار صادر، بيروت، ص ٣٨٩.

في شعر العصر العباسي عامة، وفي شعر المتنبي خاصة.

أولاً: التشبيه الضمني عند البلاغيين:

(أ) أفرد المبرد (٢٨٥هـ) في كتابه «الكامل» نحو أربعين صفحة من الجزء الثالث (٧٢-٣٢) للحديث عن التشبيه، فهو عنده نوعان: المفرد والتمثيل، ويورد بعض التشبيهات الضمنية، دون أن يسميها، مع تشبيه التمثيل. ومن درجات التشبيه عنده: العجيب أو المعجب والحسن والمستحسن. والمصيب والحمود. وهذه تقسيمات يذكر بعض الباحثين أنه أخذها عن الجاحظ^(٢).

(ب) ولم يتعرض لذكر التشبيه القاضي الجرجاني (٣٦٤هـ) في «الوساطة بين المتنبي وخصومه». أما أبو هلال العسكري (٣٩٥هـ) فقد ذكر في «الصناعتين» التشبيه وأنواعه. وعرض لذلك أيضاً ابن رشيق (٤٥٦هـ) في «العمدة»، وضياء الدين بن الأثير (٦٣٧هـ) في كتابه «المثل السائر» الذي قسم التشبيه إلى نوعين: ظاهر ومضمر، ثم إلى تشبيه وتمثيل، وأحياناً يجعلهما مترادفين. وهو ينظر إلى المعنى اللغوي للتشبيه، وهو التمثيل، كما يرى بعض الباحثين^(٣).

ويشارك أحد المؤلفين في «مواد البيان»، وهو علي بن خلف الكاتب (٤٢٧هـ) في هذا الصدد، فهو يرى أن التشبيه نوعان: الأول ما تُستعمل فيه أداة التشبيه وهو ما يعرف بالمفرد مرة، وبالتمثيل أو التمثيلي مرة أخرى، والثاني ما يلمحه العقل لمحا ولا تُستعمل فيه أداة التشبيه، وهو ما يمكن القول بأنه الضمني، ونلاحظ في هذا النص أمرين: أثر العقل في إدراك هذا اللون من التشبيه، وذكر أداة التشبيه.

(ج) والذي أسس لعلم البيان، ومنه التشبيه، وأقام أصوله، هو الشيخ عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) في كتابه «أسرار البلاغة». كما أسس لعلم المعاني في كتابه

(٢) عبد العزيز عتيق - علم البيان - دار النهضة العربية، ص ١٢.

(٣) بدوي طبانة، معجم البلاغة العربية - دار المنارة - جدة - ص ٢٩٦.

«دلائل الإعجاز».

ويرى عبد القاهر أن التشبيه إما أن يكون غير تمثيل أو تمثيلاً. فغير التمثيل أو غير التمثيلي ما كان وجه الشبه فيه حسيّاً، أي مدرّكاً بإحدى الحواس الخمس، ويكون وجه الشبه فيه عقليّاً حقيقيّاً أي ثابتاً، كالأخلاق والغرائز، وذلك في مثل قول الشاعر:

وأرى الثُّرَيَّا في السماء كأنَّها قدَّمُ تبدَّتْ من ثيابِ حِداد^(٤)

فوجه الشبه بروز شيء أبيض على صفحة سوداء، وهذه أمور محسوسة تُرى بالبصر وتتصف بالثبات.

أما التمثيل أو التمثيلي فوجه الشبه فيه عقلي غير حقيقي، غير ثابت في الموصوف ويحتاج إلى تأويل، فالشاعر عندما يقول:

اصبرْ على كَيْدِ الحُسُودِ فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهُ
فالنَّارُ تَأْكُلُ نَفْسَهَا إِنَّ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ

فإن وجه الشبه بين الحسود والنار ليس محسوساً، بل مدرك بالعقل، وهو لا ينعقد إلا إذا صبرت على الحاسد حتى يأكله حسده، مثل النار تنطفئ إذا لم يوضع فيها الحطب. وهذا هو التأويل^(٥).

ولا يهم الأفراد والتعدد في وجه الشبه، عند عبد القاهر، لكي يسمى التشبيه تمثيلاً أو غير تمثيلي. أما عند سائر البلاغيين مثل السكاكي والقزويني فهو ما يميّز الأول عن الثاني. فإذا أنشدنا بيت بشار:

(٤) ابن المعتز، ديوانه، تحقيق محمد بديع شريف، دار المعارف بمصر، ٢٤/٢.

(٥) أسرار البلاغة، ص ٨٧.

كأن مشار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا، ليل تهاوى كواكبه^(٦)
فهو تمثيل عند الخطيب القزويني لتعدد وجه الشبه فيه، وليس تمثيلاً عند عبد القاهر
لأنه حسي^(٧).

التشبيه الضمني عند عبد القاهر:

إن عبد القاهر يضرب أمثلة من التشبيه الضمني وهو يمثل لتشبيه التمثيل. وهو
لا يسميه باسمه. يقول: «تأمل بيت أبي تمام:

وإذا أرادَ اللهُ نَشَرَ فضيلة طُوِيَتْ، أتاحَ لها لسانَ حَسودٍ

مقطوعاً عن البيت الذي يليه، والتمثيل الذي يؤديه، واستقص في تعرف قيمته على
وضوح معناه، وحسن بزته ثم أتبعه إياه:

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود^(٨)

وانظر هل نشر المعنى تمام حلتها، وأظهر المكنون من حسنه وزينته، وعطرك بعرف عوده،
وأراك النضرة في عوده، وطلع عليك من مطلع سعووده، واستكمل فضله في النفس ومثله،
واستحق التقديم كله، إلا بالبيت الأخير، وما فيه من التمثيل والتصوير^(٩).

إن عبد القاهر هنا يرادف بين المصطلح البلاغي (التمثيل) والمصطلح الفني
(التصوير)، وهذه هي العلاقة بين التشبيه وبين الصورة الفنية.

إن العلاقة الخفية، بين طرفي هذا اللون من التشبيه، التي يشير إليها هذا البلاغي
المتميّز بهذا الشكل العضوي، هي التي تميزه عن سائر ألوان تشبيه التمثيل المعروفة.
والتشبيه الضمني، كما تعرّفه المراجع البلاغية، «هو تشبيه لا يوضح فيه المشبه

(٦) ديوانه، ٢٧٣/١.

(٧) علم أساليب البيان، غازي يموت، دار الأصاله، بيروت، ص ١٤٥.

(٨) ديوانه ٢٢٨ / ١

(٩) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق ريتز، دار المسيرة، بيروت، ١٩٨٣، ص ١٠٥.

والمشبه به، في صورة من صور التشبيه المعروفة، بل يلمحان في التركيب، ويؤتى به ليفيد أن الحكم الذي أسند إلى المشبه ممكن»^(١٠).

التسمية:

ومع ذلك لم نجد فيما اطلعنا عليه من كتب البلاغيين من سماه باسمه، حتى عبد القاهر يسلكه مع تشبيه التمثيل، وهو يدعو للنظر في أثر المشبه به على المشبه، فيما سماه «تأثير التمثيل في أعقاب المعاني»^(١١)، وي طرح لذلك أمثلة من التمثيل ومن الضمني معاً. والتمثيل هنا يفيد معنى التشبيه، كما تقدم. ومن أمثله قول أبي تمام:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحبُّ إلا للحبيب الأوَّل
كم منزلٍ في الأرض يألُفه الفتي وحنينه أبداً لأوَّل منزل^(١٢)

وقول المتنبي:

فإن تُفقي الأنام وأنت منهم فإن المسك بعضُ دم العزال^(١٣)

وها نحن أولاء نرى أن عبد القاهر قد قسم هذا اللون من تشبيه التمثيل، أو ما يسمى بالضمني، قسمين: «الأول الفكرة والثاني الصورة التي تؤكد هذه الفكرة. وغالبًا ما يكون الأول، وهو المشبه، فكريًا مجردًا مدرِّكًا بالعقل، والثاني، وهو المشبه به، صورة حسية ملموسة بإحدى الحواس الخمس، كما تقدم، وقد أُتي بها ليقال إن الفكرة أولاً ممكنة.»

غير أن هذا الشيخ البلاغي لم يركِّز على أن هذا التشبيه يُلمح تحًا، مع عدم وجود أداة التشبيه. كذلك لم يذكر غيره ذلك.

(١٠) علم أساليب البيان، غازي يموت، دار الأصالة، بيروت، ص ١٤٥.

(١١) على الصفحات من ١٠١ - ١٠٤ من أسرار البلاغة.

(١٢) ديوانه، ٢/ ٣١٢.

(١٣) ديوانه، ٣/ ٢٠.

والغريب في هذا الأمر أن أحداً من البلاغيين لم يطلق عليه اسماً خاصاً به، كذلك لم تفعل المعاجم التي صُنفت حديثاً للمصطلحات البلاغية: كمعجم بدوي طبانة، رحمه الله، ومعجم أحمد مطلوب.

وأقصى ما عثرت عليه أنهم يقسمون التشبيه إلى مفرد وتمثيل، ثم يقول أحد الباحثين: إنهم يقولون ثمة أنواع أخرى من التشبيه^(١٤)، ويجددها في التشبيه المقلوب والضمي. وتسمية الضمي ليست منهم^(١٥).

الاستعارة التمثيلية:

وقد يربط الباحثون في البلاغة بين التشبيه وبين الاستعارة. ففي أحد المعاجم البلاغية^(١٦)، نقرأ: «وقد يكون التشبيه على سبيل الاستعارة، وإذا كثر استعماله سُمي مثلاً، كقول بشار:

إذا كنتَ في كلِّ الأمور مُعَاتِبًا أحاك، لم تلقَ الذي لا تُعَاتِبُهُ
فِعْشٌ واحدًا أو صِلَ أحاكُ فإنه مقارِفُ ذنبٍ مرَّةً ومُجَانِبُهُ^(١٧)

ويسمئها عبد القاهر أمثالاً، ويقول: صالح بن عبد القدوس كثير الأمثال في شعره، نحو قوله:

وإن من أدبته في الصبا كالعود يسقى الماء في غرسه
حتى تراه مورقاً ناضراً بعد الذي أبصرت من ييسه^(١٨)

(١٤) علم أساليب البيان، غازي يموت، دار الأصاله، بيروت، ص ٥٧.

(١٥) ومن الباحثين من يعد التشبيه المتعدد ثالثاً - كأن قلوب الطير رطباً ويابساً - إلخ البيت تسهيل نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، الفخر الرازي، تحقيق عبد القادر حسن، بيروت، ص ٧٧.

(١٦) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها. أحمد مطلوب ص ٣٢٨.

(١٧) ديوانه، ١/٢٦٦.

وقد يضرب عليها أمثلة من الاستعارات: «كمتغي الصيد في عريسة الأسد»
 كمن يجمع السيفين في غمد، «أخذ القوس باريها»، «أنت لا تجني من الشوك
 العنب»، «كمن يرقم على الماء»، «كالخادي وليس له بعير»^(١٩).

ويعرفون هذه الاستعارة بأنها «تركيب استعمل في غير ما وضع له، لعلاقة
 المشابهة، مع مرتبة من إرادة معناه الأصلي»^(٢٠).

وهي، كما ترى، تقوم على تشبيه حالة بحالة، فإذا صادفت امرئًا يعمل في غير
 طائل فستقول له: «أنت كمن يرقم على الماء»، دون أن تريد المعنى الحقيقي للكتابة
 على الماء. وفيها تمثيل ما دامت حالة بحالة، وليست مفردة. وهذا هو سبب ربط
 البلاغيين للتشبيه الضمني بها.

التذليل الجاري مجرى المثل:

وقد يخطر بالبال أن امرئًا آخر قد يقترب من التشبيه الضمني، وإن كان يخرج من
 البيان إلى علم المعاني، وهو ما يسمى بالتذليل الجاري مجرى المثل، وذلك بمثل قول
 معن بن أوس المزني:

رأيت انثلامًا بيننا فرقعته بجلي وإحيائي، وقد يرقع الثلم
 وقوله:

وبادرت منه النأي، والمرء قادر على سهمه، ما دام في كفه السهم
 وقوله:

وصبري على أشياء منه تربيني وكظمي على غيظي، وقد ينفع الكظم^(٢١)

(١٨) أسرار البلاغة، شرح محمد رشيد رضا، مصر، ص ٧٧.

(١٩) المصدر السابق، تحقيق ريتز، ص ٩٥.

(٢٠) معجم المصطلحات البلاغية، أحمد مطلوب، ص ٣٢٨.

ومن الواضح أن نقطة الالتقاء بينهما هو هذه الحكمة التي تستنبط من الحدث، وقد يرفع الثلم، والمرء قادر... إلخ البيت، والعلاقة بين الحدث والحكمة علاقة مشابهة، إلا أنها أشبه باستنتاج رأي من واقعة تحدث، ويصبح الرأي. فيما بعد، مجالاً للتمثل به.

عودة إلى التسمية:

بعد أن عُرِفَت حدود هذا التشبيه وُسط تعريفه، أشير إلى أنني نظرت في كتب الأدباء والنقاد والبلاغيين - قبل عبد القاهر وبعده وفي كتبه - وفي المعاجم المختصة بالمصطلحات البلاغية، فما وقعت على اسمه في التراث، الذي وقع تحت يدي. وقد يكون في مراجع أخرى لم تصل إليها يدي. وغاية ما عثرت عليه ذكر اسمه وتعريفه ومزجه في كتاب البلاغة الواضحة، الذي أُلّفه علي الجارم ومصطفى أمين، وطُبع للمرة الخامسة ١٩٢٦م.

بلاغة التشبيه الضمني:

ولعل ما يفيد التشبيه الضمني، وينفرد في الدلالة عليه أمور، نأخذها من حديث عبد القاهر عنه:

أولاً - ينقل السامع من الإدراك بالعقل إلى التأكد بالعيان والحس ورؤية البصر^(٢٢). ففي قول أبي تمام:

وطولُ مُقامِ المرءِ في الحَيِّ مُخْلِئٌ لِدِيابِجَتَيْهِ، فَاغْتَرَبَ تَتَجَدَّدُ

فكرة ترد على العقل بضرورة الاغتراب عن الوطن سعيًا نحو التجدد والتغيير. وهذه الفكرة تظل هائمة في الذهن حتى يبرهن عليها بحدث حسي، نراه بالبصر:

(٢١) ديوانه، تحقيق نوري حمودي القيسي وحاتم الضامن، بغداد، ١٩٧٧م، ص ٤١.

(٢٢) أسرار البلاغة، ص ١١١.

فإني رأيت الشمسَ زيدت محبةً إلى الناس أن ليست عليهم بِسَرمِدٍ^(٢٣)

يحبُّ الشمس إلى الناس أنها لا تظل على رؤوسهم قائمة أبدًا.

ثانيًا: - بيان المقادير - ويذكر عبد القاهر أن الأمور إذا غنيت وشرحت بالمشاهدات والمحسوسات فإنها تفتقر، على وجه التحقيق، إلى كميات المقادير لهذه المدركات الحسية^(٢٤). فمن بيتي أبي تمام السابقين نستطيع أن نتخيل إلى أي مقدار حسي يصبح المرء متحققًا من فكرة ضرورة التنقل في الأرض من مكان إلى مكان.

ثالثًا: - زوال الشك والريب - ونحن إذا انتقلنا بالمدرك العقلي إلى المشاهد الحسي زال عنا الشك بهذا المدرك، وأفضينا إلى حالة من اليقين بصدق الخبر، كالحالة التي تحدثت عنها الآيات القرآنية في رسم صورة إيمان سيدنا إبراهيم عليه السلام، حينما وصلت إلى مرحلة «ليطمئن قلبي»^(٢٥).

رابعًا: - الإحساس بالأنس - وإذا زال الشك والريب في الأمر المنقول من الإدراك الفكري إلى المشهود والمحقق بإحدى الحواس الخمس حصل الأنس والاستئناس بهذا الأمر، وهو غاية المبدع فيما يبرهن عليه من أقواله^(٢٦).

خامسًا: - أداة عقلية - ويمكن أن نرى في التشبيه الضمني أداة طيعة لإثبات ما نريد أن نتحدث عنه من معان دقيقة، في الشعر.

وهنا يقول عبد القاهر عن التشبيهات، ومنها الضمني، «إن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي ويأتيها بصريح بعد مكني، وأن تنقلها من

(٢٣) ديوانه ١/٢٦٧.

(٢٤) أسرار البلاغة، ص ١١١.

(٢٥) نفسه، ص ١١٢.

(٢٦) نفسه، ص ١١٣.

العقل إلى الإحساس. وقد قيل ليس الخبر كالمعاينة ولا الظن كاليقين»^(٢٧).
 هذه هي المقاصد التي يؤديها التشبيه الضمني، وهي كما يبدو تصبّ في إثبات
 المعاني العقلية بالمادة المحسوسة.

التشبيه الضمني في العصر العباسي:

عُرف عن شعراء العصر العباسي أنهم عنوا بالبحث عن المعاني الجديدة المبتكرة في
 أشعارهم بجانب عنايتهم بجمال الألفاظ. ويمكن القول بأن التشبيه الضمني دليل على
 العصر العباسي لكثرة في شعر هذا العصر، وندرته في شعر العصور التي سبقت
 العصر العباسي.

ففي سياحة سريعة في حماسة أبي تمام لم أكد أعثر على بيت شعر فيه تشبيه
 ضمني. وقد وقفت على تشبيهات تمثيلية معبرة كثيرة.

وفي شعر الشعراء السابقين للعهد العباسي وجدت أن هذا التشبيه كان نادرًا إلى
 حد يلفت الانتباه. فلقد قلبت صفحات ديوان جرير بن عطية الخطفي، فما عثرت
 على تشبيه ضمني واحد. وقد أكون مخطئًا في هذا النفي المطلق لهذا الأمر، فأنا لم
 أقلب كل دواوين شعراء العربية، قبل العصر العباسي، ولكنه إحساس عام لا يسهل
 كتمانها، فقد وقعت عرضًا على قول الخطيئة:

هم صنعوا لجارهم، وليست يد الخرقاء مثل يد الصناع^(٢٨)

وواضح في هذا البيت المشبه العقلي والمشبه به الحسي، وهما طرفا التشبيه الضمني،
 كما أنني قد صادفت بيتًا لأبي ذؤيب الهذلي (٢٧هـ):

تريدن كيما تجمعيني وخالدًا وهل يجمع السيفان ويحك في غمد؟^(٢٩)

(٢٧) نفسه، ص ١٠٨.

(٢٨) الكامل في اللغة والأدب، المبرد، ٣/٣٥.

وههنا تشبيه ضمني، نصفه الأول صعوبة الجمع بين اثنين جمعاً عقلياً مجرداً، ونصفه الثاني هذه الصعوبة في الجمع بين سيفين في غمد واحد. بعد هذا كله نصل إلى أن التشبيه الضمني قد عُرف لدى شعراء العصر العباسي أولاً، باعتباره نتيجة من نتائج التجديد في المعاني، وإعمال عنصر العقل في الشعر، جنباً إلى جنب مع الإحساس والعواطف.

نماذج من التشبيه الضمني في الشعر العباسي:

ولقد وقعت على أبيات متعددة في التشبيه الضمني، لدى بعض شعراء العصر العباسي الذي نظرت في أشعارهم، وأنا أبحث عنها في شعر أبي الطيب بوجه خاص. وسأورد هذه الأشعار دون أن أتوقف عندها، ولم أستقص جميع ما في أشعار هؤلاء الشعراء من أبيات التشبيه الضمني، كما فعلت في شعر أبي الطيب.

فمن شعر بشار: (أ)

هَزَزْتُكَ لَا لِأَنِّي وَجَدْتُكَ نَاسِيًّا لِأَمْرِي وَلَكِنِّي أَرَدْتُ التَّقَاضِيَا
وَلَكِن رَأَيْتُ السَّيْفَ مِنْ بَعْدِ سَلِّهِ إِلَى الْهَزِّ مَحْتَاجًا وَإِنْ كَانَ مَاضِيَا^(٣٠)

وقوله: (ب)

فَقَلْتُ لِلنَّفْسِ كَفَى إِحْصَا شِيْمَةَ مَا فِي الْوَعْدِ مِيعَادِ
مَا كُلُّ بَرْقٍ مَرشِدٌ فَاؤُهُ وَلَا صَدِيقٌ كُلُّ مَعْتَادِ^(٣١)

وقوله: (ج)

مَاءُ الصَّبَابَةِ نَارُ الشُّوقِ تَحْدَرُهُ فَهَلْ سَمِعْتَ بِمَاءِ فَاضٍ مِنْ نَارِ؟^(٣٢)

(٢٩) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ص ٩٥.

(٣٠) ديوانه، بتحقيق حسن حموي ص ٥٦٢/٢.

(٣١) ديوانه، ص ١٥٦/٢.

وقوله: (د)

تزدحم القصائد في بابـه والمورد العذب كثير الزحام^(٣٣)

وقوله: (هـ)

يسقط الطير حيث يلتقط (م) الحَبِّ، وتُغشى منازلُ الكرماء^(٣٤)

وقوله: (و)

وإذا جفوت قطعت عنك مناعي والدر يقطعه جفاء الحالب^(٣٥)

ومن شعر أبي تمام: (أ)

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يُعرف طيب عزف العود^(٣٦)

وقوله: (ب)

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل^(٣٧)

وقوله: (ج)

وطول مقام المرء في الحي مخلق لذي حاجتيه، فاغترب تتجدد

فإني رأيت الشمس زبدت محبة إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد^(٣٨)

(٣٢) ديوانه، ٣٩٩/٢.

(٣٣) ديوانه، ٥١٩/٢.

(٣٤) ديوانه، ٥٠/١.

(٣٥) ديوانه، ١١٥ / ١.

(٣٦) ديوانه ٢٢٨/١.

(٣٧) ديوانه، بشرح الخطيب التبريزي، دار الفكر العربي، بيروت، ٢٠٠١، ٣١٢/٢.

وقوله: (د)

ليس الحجاب بمقصرٍ عنك لي أملاً إن السماء تُرَجَّى حين تَحْتَجِبُ^(٣٩)

وقوله: (هـ)

لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي^(٤٠)

وقوله: (و)

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلاً شروداً في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنيراس^(٤١)

وقوله: (ز)

اصبر على كيد الحسود فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله^(٤٢)

ويروى هذان البيتان لابن المعتز.

وقوله:

لهفي على تلك الشواهد منهما لو أمهلت حتى تكون شماتلا
إن الهلال إذا رأيت نموه أيقنت أن سيصير بدرًا كاملاً^(٤٣)

ومن شعر الطغرائي:

مجدي أخيراً ومجدي أولاً شرع والشمس رُأد الضحى كالشمس في الطفل^(٤٤)

(٣٨) ديوانه ١/٢٦٧.

(٣٩) ديوانه ٢/٤٦٠.

(٤٠) ديوانه ١/٥٦٧.

(٤١) ديوانه، ١/٤٠١.

(٤٢) ديوان ابن المعتز، دار صادر، بيروت، ص ٣٨٩.

(٤٣) ديوانه، ٢/١٩٨.

ومن شعر ابن الرومي: (أ)

قد يشيب الفتى وليس عجيباً أن يُرى النور في القضيبي الرطيب^(٤٥)

(ب)

ويلاه إن نظرت وإن هي أعرضت وَقَعُ السَّهَامِ وَنَزَعُهُنَّ أَلِيم^(٤٦)

ومن شعر البحتري:

وقد زادها إفراط حسن جوارها خلائق أصفار من المجد خيب

وحسن دراري الكواكب أن ترى طوالع في داج من الليل غيب^(٤٧)

ومن شعر أبي العتاهية:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس^(٤٨)

ومن شعر أبي فراس:

سيدكرني قومي إذا جد جداهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر^(٤٩)

ومن شعر قائل يمدح الفضيل بن يحيى البرمكي:

ولائمة لامتك يا فضل في الندى فقلت لها هل أثمر اللوم في البحر؟

أنتهين فضلاً عن عطايه للورى؟ ومن ذا الذي ينهى الغمام عن القطر؟^(٥٠)

(٤٤) ديوانه، تحقيق علي جواد الطاهر ويحيى الجبوري، بغداد، ١٩٩٢م، ص ٣٠١.

(٤٥) ديوانه، تحقيق د. حسين نصار، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٣م، ١/١٣٨.

(٤٦) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، شرح رشيد رضا، ص ٩٨.

(٤٧) ديوانه، تحقيق حسن كامل الصيرفي، مصر، ١٩٢/١.

(٤٨) ديوانه، شرح عمر فاروق الطباع، دار ابن الأرقم، بيروت، ١٩٩٧م، ص ١٧٧.

(٤٩) ديوانه، بشرح خليل الدويهي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٤م، ص ١٦٥.

(٥٠) البلاغة الواضحة، علي الجارم وزميله، دار المعارف بمصر، ص ٢٠٦.

التشبيه الضمني في شعر المتنبي:

يقول أحمد حسن الزيات وهو يترجم لأبي الطيب في كتابه تاريخ الأدب العربي أنه «من شعراء المعاني، وأنه وَفَّقَ بين الشعر والفلسفة، وجعل أكثر عنايته بالمعنى»^(٥١). وثمة مقولة، غاب عني مرجعها الآن، تذكر أنه لو مدَّ الله في عمره لسدَّ المعاني على الشعراء!

ولئن بدا ما في العبارة الأخيرة من مبالغة فإنها، على الأقل، تَبَهَّت إلى أن أبا الطيب أكثر من الإتيان بالمعاني الجديدة. وهذا ما أحسست به وأنا أجمع أبيات التشبيه الضمني المنثورة في ديوانه.

وقد أحصيت له نحوًا من ستين تشبيهًا ضمنيًا، وهذا ما لا أحسب أن أحدًا من شعراء العصر العباسي يقترب منه. وإن كانوا جميعًا تقريبًا قد شاركوا فيه. وقد أحصيت لأبي تمام ثمانية تشبيهات ضمنية، وهو أكثرهم بعد المتنبي. وربما يلفت الانتباه أن الإمام الشافعي رحمه الله (٢١٠هـ) قد أتى بأربعة أبيات شعرية متتالية في كل منها تشبيه ضمني يقيم البرهان على فكرة ضرورة السفر والتنقل:

ما في المقام لذي عقل وذو أدب	من راحة فدع الأوطان واغترِبْ
سافر تجدد عوضًا عما تفارقه	وانصب، فإن لذيذ العيش في النَّصَبِ
إني رأيت وقوف الماء يفسده	إن سال طاب، وإن لم يجِرْ لم يَطِبِ
الأسد لولا فراق الغاب ما افتردت	والسهم لولا فراق القوس لم يُصِبِ
والشمس لو وقفت في الأفق دائمة	لملها الناس من عجم ومن عربِ
والتبر كالثُّرْبِ ملقَى في أماكنه	والعود في أرضه نوع من الحطبِ ^(٥٢)

وقد يقع التشبيه الضمني في شعر المتنبي في بيت واحد في مثل قوله لسيف الدولة:

(٥١) ص ٣٠٠.

(٥٢) ديوانه، تحقيق إسماعيل اليوسف، دار كرم، دمشق ص ٢٩.

أعياء زوالك عن محل نلته لا تخرج الأعمار من هالاتها^(٥٣)

وقد يقع التشبيه في شعره في بيتين، مثل قوله:

فيا عجباً من دائل أنت سيفه أما يتوقى شفرتي ما تقلدا

ومن يجعل الضرغام باراً لصيده تصيده الضرغام فيما تصيّد^(٥٤)

ولسوف أثبت في آخر البحث ملحقاً يشتمل على الأبيات التي وقع فيها التشبيه الضمني في شعر المتنبي . ولكنني سأحاول أن أنظر، الآن، في الحالات العقلية المختلفة التي يكشف عنها التشبيه الضمني فيما يكشف.

وربما كان أبو تمام هو الذي بدأ بالتشبيه الضمني فأكثر منه وزاد فيه على غيره ثم تابعه

المتنبي وزاد عليه. وهذا يعيدنا إلى مقولة أبي العلاء: «أبو تمام والمتنبي حكيمان.»

بلاغة التشبيه الضمني في شعر المتنبي:

ونصل في نهاية البحث، إلى تذوق بلاغة هذا التشبيه في شعر أبي الطيب.

إن أغراض التشبيه الضمني، على وجه الإجمال، قد لا تزيد عن أربعة:

(١) إثبات أن المشبه ممكن.

(٢) براعة التعليل.

(٣) الصورة الظرفية والتفنن فيها.

(٤) التشخيص والتجسيم.

وسنحاول أن نوضح هذه الأمور واحداً واحداً:

أولاً: إثبات أن المشبه ممكن:

(٥٣) ديوانه، ١/٢٣٣.

(٥٤) ديوانه، ١/٢٨٧.

وهذا هو الأساس الذي يقوم عليه هذا التشبيه وبه ينفرد عن التشبيه التمثيلي أو التمثيل. وتكاد تكون أكثر أبيات المتنبي فيه قد قامت لهذا الغرض أصلاً. والأمثلة على ذلك كثيرة، فقولته:

لعل عتبك محمود عواقبه فربما صحت الأجسام بالعلل^(٥٥)

قد صيغ لإثبات فكرة عقلية، وهي أن العتاب قد تكون له فوائد. وليثبت أن هذا الأمر ممكن، قابله بصورة حسية، يتحسسها الجميع، وهي أن الأمراض قد تعود على المرضى ببعض النفع. فالفكرة والصورة هما طرفا هذا التشبيه. وقولته:

إذا غامرت في أمر مروم فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمر حقير كطعم الموت في أمر عظيم^(٥٦)

فهو ينشر في البيت الأول دعوة للطموح والنظر إلى الأعلى، وهذا هو المشبه الذي يحتاج إلى إثبات أنه ممكن. ويأتي الإثبات في البيت الثاني، الذي هو البرهان الحسي: فالموت هو الموت، أثره وطعمه واحد، في طلب الأهداف العالية أو المتواضعة.

ثانياً: براعة التعليل:

وقد يلوح لأبي الطيب هدف آخر غير إثبات إمكان المشبه. فيلجأ إلى خلق تعليل طريف لهذا الإثبات، وذلك في مثل قوله:

وشبه الشيء مُنجذبٌ إليه وأشبههُنَا بدُنْيَانَا الطَّغَامُ
ولو لم يعمل إلا ذو محلٍّ تعالى الجَيْشُ وانْحَطَّ القَتَامُ^(٥٧)

يبدأ أبو الطيب، هذين البيتين، بحكمة هي أن الأشياء المتشابهة يجذب بعضها

(٥٥) ديوانه، ٨٦/٣.

(٥٦) ديوانه، ١١٩/٤.

(٥٧) ديوانه، ٧١ / ٤. والطَّغَام: الأوغاد. والقَتَام: العُبار.

إلى بعض، ومنها ينطلق لنظرة خاصة، وهي أن الناس وهذه الدنيا لا عقول لهم بسبب ما بينهم من تشابه. ومن جهلاء الناس هؤلاء من يرتفع اسمه في الأعلي على حساب من يستحقون هذه المنزلة والذين تنزلهم الدنيا منازل غير محترمة. كل هذا من المقدمة ونتيجتها في البيت الأول. ويريد أبو الطيب المتنبّي أن يعلل لهذه الظاهرة فيقول إننا ينبغي ألا ننخدع فننظر أن كل شيء مرتفع يستحق الارتفاع، فهذا الغبار على رأس الجيش، والجيش أحق بالارتفاع. وهذا تعليل مناسب لظاهرة اجتماعية تقع للكثيرين.

ويقول أبو الطيب في قصيدة أخرى يخاطب نفسه:

إذا كنت ترضى أن تعيش بذلة فلا تستعدن الحسام اليمانيا

أي إن العيش الذليل لا يتناسب وحمل السلاح. ويريد أن يعلل لهذه الفكرة التي قد تبدو للآخرين مستغربة فيقول:

فما ينفع الأسد الحياء من الطوى ولا تُتقى حتى تكون ضواريا^(٥٨)

إن الأسود لا يخفف عنها جوعها حياؤها، ولا يمكنها أن تعيش إلا إذا كانت مفترسة، أليس الافتراس من طبيعتها؟ وهذا هو البرهان الحسي على الفكرة المجردة التي أطلقها في البيت الأول. إن البيت الثاني تعليل مقنع للمشبه المضروب في البيت الأول. وهو عمل عقلي مؤثر.

ثالثاً: الصورة الطريفة:

وقد يأتي التشبيه الضمني بأشكال عقلية أخرى، تبدأ بإمكان حدوث المشبه. وتأتي، هذه المرة، بصورة طريفة تلفت الانتباه.

فإذا قال المتنبّي لسيف الدولة:

عيب عليك تُرى بسيف في الوغى

فإن الناس سيدهشون مما في هذا المصراع من جرأة الفكرة، ولكنهم حينما يستمعون إليه وهو يأتي بالمصراع الثاني:

ما يفعل الصمصام بالصمصام؟^(٥٩)

تقنعهم جمال الصورة وحرارة الصدق الغني وروعة المقارنة بين اسم الأمير وبين اسم السيف. وإن كانت هذه التسمية لا تقنعه ولا تكفيه في أحيان أخرى، وذلك حينما يقول فيه:

تصاب سيوف الهند وهي حدائد فكيف إذا كانت نزارية عرباً؟^(٦٠)

وثمة صورة أخرى لافتة للانتباه، وما أكثر صورته في تشابيهه الضمنية!

لا تعذر المشتاق في أشواقه حتى يكون حشاك في أحشائه

إن القتيل مضرجاً بدموعه مثل القتيل مضرجاً بدمائه^(٦١)

فالشوق تجربة شخصية لا يكابدها إلا من يعانيتها، فلن تصل إلى مستوى شوق العشاق إلا إذا عانيت ما يعانون. وهذه هي فكرة المشبه، أما المشبه به فهو أن من الشهادة ما يكون في سبيل قضية عامة ومنها ما يكون في قضية عاطفية خاصة.

رابعاً- التشخيص والتجسيم:

ويتبع جمال الصورة في تشابيه أبي الطيب الضمنية ما يأتي منها من تشخيص وتجسيم للأفكار التي يطرحها في الناس. فمع أن المشبه، في هذا التشبيه الضمني، يكون على الأغلب معنوياً مجرداً والمشبه به يكون حسيًا ملموسًا، كما ذكر عبد

(٥٩) ديوانه، ٤/١٠.

(٦٠) ديوانه، ١/٦١.

(٦١) ديوانه، ١/٤.

القاهر في شرحه له، فإننا نرى أن أبا الطيب يأتي بتشخيص بيّن وتحسيم يكاد يُلمس باليدين. انظر إلى قوله:

والهجر أقتل لي مما أراقبه أنا الغريق فما خوفي من البلب؟^(٦٢)

إن الصورة في الشطر الثاني قد أريت على التحسيم والتشخيص لشرح فكرة الشطر الأول، وأصبحت هذه الفكرة مجسدة ملموسة. ومثل قوله:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن^(٦٣)

ومن الباحثين من يضيف إلى هذه الأغراض الأساسية للتشبيه الضمني أغراضاً أخرى فرعية مثل بيان حال المشبه أو بيان مقداره أو تزيين حاله أو تقيحه ولا يتسع المجال لضرب الأمثلة على ذلك.

تداخل الأغراض:

ومع هذا الفصل بين الأغراض الأربعة التي يبتغيها الشاعر من التشبيهات الضمنية فإنها قد تتداخل فيما بينها، فقد يجد الناظر في التشبيه الضمني الواحد، بعد إرادة إثبات أن المشبه ممكن، أنه قد يحتوي على براعة التعليل وعلى الصورة الطريفة أو التشخيص والتحسيم. وذلك مثل قوله:

لو كان يمكنني سفرت عن الصبا فالشيب من بعد الأوان تلثم^(٦٤)

إن أبا الطيب يريد أن يقول، في الشطر الأول، أنه لم يعد شاباً واضح القسمات. وليثبت هذه الفكرة جاء في البيت الثاني بصورة الشيخ الأشيب الذي ودّع مرحلة الشباب. وفي هذا ما فيه من حُسن تعليل، ومن صورة طريفة، وتشخيص لها

(٦٢) ديوانه، ٧٦/٣.

(٦٣) ديوانه، ٢٣٦/٤.

(٦٤) ديوانه، ١٢٣/٤.

معًا.

أسباب بلاغة التشبيه الضمني:

ويشير عبد القاهر الجرجاني إلى أسباب ما يهيئ للقارئ من استمتاع لدى تأمله الأبيات التي يرد فيها التشبيه التمثيلي أو الضمني. ومن هذه الأسباب:

١) ما يحصل للنفس من الأنس - وهذا في حالات:

أ- إخراجها من الخفي إلى الجلي - يقول عبد القاهر - «إن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي، وتأتيها بصريح بعد مكني»^(٦٥). وهذا في تأثير تشبيه التمثيل على النفوس، بين المشبه أولاً وبين المشبه به ثانيًا.

ب- إخراجها من العقل إلى الإحساس - أي إخراج الفكرة من كيانها المدرك المعقول إلى شبيهها من الحسّ والصورة الملموسة، فتصبح النفس به أعلم.

ج- إخراجها من عالم لم تألفه إلى ما ألفتته. فإذا ما وقفنا مثلاً على قول المتنبي:

فإن تفق الأنام وأنت منهم^(٦٦)

فإننا ربما نضيق ذرعًا بهذا المعنى: أن يفوق الممدوح الناس ويفضل عليهم، وهو واحد منهم خارج من بينهم. ولكن إذا أتمنا البيت:

فإن المسك بعض دم الغزال

زال الشك في المعنى الذي قدمه الشاعر، وأصبح في حكم اليقين. ومثل هذا سبب كما تقدم حينما قلنا إن في التشبيه الضمني حسن تعليل.

وفي الختام:

(٦٥) أسرار البلاغة، ص ١٠٨.

(٦٦) ديوانه، ٢٠/٣.

يرجو الباحث أن يكون قد استطاع أن يوضّح:

(١) أن الشعراء في العصر العباسي قد عُنوا عناية خاصة بالمعاني في أشعارهم، أكثر من الشعراء الذين سبقوهم.

(٢) وربما يكون ذلك مرده إلى بعض الثقافات الأجنبية السائدة في عصرهم والثقافة العقلية، التي أخذت تؤثّر في شعراء هذا العصر.

(٣) وأن التشبيه الضمني على وجه التحديد كان نتيجة من نتائج هذا التطور الثقافي والعقلي.

(٤) وفي هذا المجال من التشبيه قد برّز أبو الطيب المتنبي بما ورد في شعره من تشبيهات ضمنية. وهذا يثبت له من هذه الزاوية أنه كان الشاعر المتميّز من بين شعراء عصره.

نماذج من التشبيه الضمني

في شعر المتنبي

(من التبيان في شرح الديوان للعكبري)

- | | |
|------------------------------|---|
| ١- لا تعذر المشتاق في أشواقه | حتى يكون حشاك في أحشائه |
| ٢- وإذا خفيت على الغني فعاذر | مثل القتيل مضرّجًا بدمائه ^(٦٧) |
| ٣- فإن تفق الأنام وأنت منهم | أن لا تراني مقلّة عمياء ^(٦٨) |
| ٤- فدتك نفوس الحاسدين فإنها | فإن المسك بعض دم الغزال ^(٦٩) |
| | معدّبة في حضرة ومغيب |

(٦٧) ديوانه، ١/٦.

(٦٨) ديوانه، ١/١٥.

(٦٩) ديوانه، ٢٠/٣.

- وفي تعب من يحسد الشمس نورها
٥- ليس بالمنكر إن برزت سبغاً
٦- وهبني قلت هذا الصبح ليل
وتنكر موتهم وأنا سهيل
٧- تيممني وكيلك مادحاً لي
فأجرك الإله على عليل
٨- أرى لي بقربي منك عيناً قريرة
وهل نافعي أن ترفع الحجب بيننا
٩- كرم تبين في كلامك مائلاً
أعياء زوالك عن محل نلته
١٠- عرفتك والصفوف معبات
ووجه البحر يعرف من بعيد
١١- إن القريض نجح بعطفي عائد
ودكي رائحة الرياض كلامها
- ويجهد أن يأتي لها بضرب^(٧٠)
غير مدفوع عن السيق العراب^(٧١)
أيعمى العالمون عن الضياء؟^(٧٢)
طلعت بموت أولاد الزناء^(٧٣)
وأنشدني من الشعر الغريباً
بعثت إلى المسيح به طبيئاً^(٧٤)
وإن كان قرناً بالبعاد يشاب
ودون الذي أملت منك حجاب^(٧٥)
ويبين عتق الخيل في أصواتها
لا تخرج الأقمار من هالاتها^(٧٦)
وأنت بغير سيفك لا تعيج
إذا يسخو فكيف إذا يموج^(٧٧)
من أن يكون سواءك الممدوح
تبغى الشاء على الحيا فتفوح^(٧٨)

(٧٠) ديوانه، ٥٦/١.

(٧١) ديوانه، ١٣٥/١.

(٧٢) ديوانه، ١٠/١.

(٧٣) ديوانه، ١٢/١.

(٧٤) ديوانه، ١٤٥/١.

(٧٥) ديوانه، ١٩٨/١.

(٧٦) ديوانه، ٢٣٣/١.

(٧٧) ديوانه، ٢٣٨ /١.

- ١٢- هو البحر غص فيه إذا كان راكداً
فإني رأيت البحر بالفتى
- ١٣- فيا عجباً من دائل أنت سيفه
ومن يجعل الضرغام بازاً لصيده
- ١٤- إذا أنت أكرمت الكريم ملكته
ووضع الندى في موضع السيف بالعلا
- وقيّدت نفسي في ذراك محبة
- ١٦- من يهن يسهل الهوان عليه
- ١٧- وأصبح شعري منهما في
- ١٨- ومن الخير بطء سيبك عني
- ١٩- لا يعجبن مضيماً حسن بزته
- ٢٠- وما أنا منهم بالعيش فيهم
- على الدر واحذره إذا كان مزيداً
وهذا الذي يأتي الفتى متعمداً^(٧٩)
- أما يتوقى شفرتي ما تقلداً
تصيده الضرغام فيما تصيدا^(٨٠)
- وإن أنت أكرمت اللئيم تمرداً^(٨١)
مضر، كوضع السيف في موضع الندى^(٨٢)
- ومن وجد الإحسان قيلاً تقيداً^(٨٣)
ما لجرح بميت إيلام^(٨٤)
- وفي عنق الحسناء يستحسن العقد^(٨٥)
أسرع السحب في المسير الجهام^(٨٦)
- وهل يروق دفيناً جودة الكفن؟!^(٨٧)
ولكن معدن الذهب الرغام^(٨٨)

(٧٨) ديوانه، ١/ ٢٥٥.

(٧٩) ديوانه، ١/ ٢٨٢.

(٨٠) ديوانه، ١/ ٢٨٧.

(٨١) ديوانه، ١/ ٢٨٨.

(٨٢) ديوانه، ١/ ٢٨٨.

(٨٣) ديوانه، ٢٩٢.

(٨٤) ديوانه، ٤/ ٩٤.

(٨٥) ديوانه، ٢/ ١٠.

(٨٦) ديوانه، ٤/ ١٠٠.

(٨٧) ديوانه، ٤/ ٢١٣.

(٨٨) ديوانه، ٤/ ٧٠.

- ٢١- فإن تزعم الأملاك أنك منهم فحازًا، فإن الشمس بعض الكواكب
 ٢٢- خذ ما تراه ودع شيئًا سمعت به في طلعة البدر ما يغنيك عن زحل^(٨٩)
 ٢٣- لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل^(٩٠)
 ٢٤- وكن كالموت لا يرثي لباك بكى منه ليروي وهو صاد
 فإن الجرح ينفر بعد حين إذا كان البناء على فساد
 وإن الماء يجري من جماد وإن النار تخرج من زناد^(٩١)
 ٢٥- أتنكر ما نطقت به بديها وليس بمنكر سبق الجواد^(٩٢)
 ٢٦- وأشارت بما أبيت رجال كنت أهدي منها إلى الإرشاد
 قد يصيب الفتى المشير ولم يجهد، ويشوى الصواب بعد اجتهاد^(٩٣)
 ٢٧- أحفل الناس عن طريق أبي المسك وذلت رقاب العباد
 كيف لا يترك الطريق لسيل ضيق عن أتيه كل واد^(٩٤)
 ٢٨- ما تعودت أن أرى كأبي الفضل وهذا الذي أتاه اعتياده^(٩٥)
 إن في الموج للغريق لعذرًا واضحًا أن يفوته تعداده^(٩٦)
 ٢٩- وغيظ على الأيام كالنار في الحشا ولكنه غيظ الأسير على القد^(٩٧)

٨٩) ديوانه، ٨١/٣.

٩٠) ديوانه، ٨٦/٣.

٩١) ديوانه، ٣٦٣/١.

٩٢) ديوانه، ١٨/٢.

٩٣) ديوانه، ٣٢/٢.

٩٤) ديوانه، ٣٨/٢.

٩٥) ديوانه، ٥٤/٢.

٩٦) ديوانه، ٥٤/٢.

- ٣٠- لعل بنيهم لبنيك جند
 ٣١- يفدي بنيك عبيد الله حاسدهم
 ٣٢- ليس الجمال لوجه صح مارنه
 ٣٣- كأتما تتلقاهم لتسلكهم
 ٣٤- لا تحسبوا من أسرتهم كان ذا رmq
 ٣٥- وما حمدتك في هول ثبت له
 إن السلاح جميع الناس تحمله
 ٣٦- غير اختيار قبلت برك بي
 لو كان سكناه فيك منقصة
 ٣٧- بضرب هام الكمأة تم له
 الشمس قد حلت السماء وما
 ٣٨- رب نجيع بسيف الدولة انسفكا
 من يعرف الشمس لا ينكر مطالعها
- فأول قرح الخيل المهيار^(٩٨)
 بجهة العير يفدى حافر الفرس^(٩٩)
 أنف العزيز بقطع العز يجتدع^(١٠٠)
 فالطعن يفتح في الأجواف ما تسع^(١٠١)
 فليس يأكل إلا الميت الضبع^(١٠٢)
 حتى بلوتك والأبطال تمتصع
 وليس كل ذوات المخلب السبع^(١٠٣)
 والجوع يرضي الأسود بالجيف
 لم يكن الدر ساكن الصدف^(١٠٤)
 كسب الذي يكسبون بالملق
 يحجبها بعدها عن الحدق^(١٠٥)
 ورب قافية غاظت به ملكا
 أو ينصر الخيل لا يستكرم الرمكا^(١٠٦)

(٩٧) ديوانه، ٢ / ٦١.

(٩٨) ديوانه، ٢ / ١١٢.

(٩٩) ديوانه، ٢ / ١٨٨.

(١٠٠) ديوانه، ٢ / ٢٢٢.

(١٠١) ديوانه، ٢ / ٢٢٧.

(١٠٢) ديوانه، ٢ / ٢٣٠.

(١٠٣) ديوانه، ٢ / ٢٣٤.

(١٠٤) ديوانه، ٢ / ٢٨١.

(١٠٥) ديوانه، ٢ / ٣٧٣.

(١٠٦) ديوانه، ٢ / ٣٧٤.

- ٣٩- ويميت قبل قتاله، ويبش قب
 إن الرياح إذا عمدن لناظر
 ٤٠- والهجر أقتل لي مما أراقبه
 ٤١- لأن حلمك حلم لا تكلفه
 ٤٢- وما ثنأك كلام الناس عن كرم
 ٤٣- وهذا الدر مأمون التشظي
 وليس يصح في الأفهام شيء
 ٤٤- لعلك يوماً يا دمستق عائد
 ٤٥- إن تربني أذمتُ بعد بياض
 ٤٦- أرى المتشاعرين غروا بذمي
 ومن يك ذا فم مر مريض
 ٤٧- ليزد بنو الحسن الشراف تواضعاً
 ستروا الندى ستر الغراب سفاده
 ٤٨- تريدين لقيان المعالي رخيصة
 ل نواله، وينيل قبل سؤاله
 أغناه مقبلها عن استعجاله^(١٠٧)
 أنا الغريق فما خوفاً من البلبل^(١٠٨)
 ليس التكحل في العينين كالكحل^(١٠٩)
 ومن يسد طريق العارض المطلق^(١١٠)
 وأنت السيف مأمون الفلول
 إذا احتاج النهارُ إلى دليل^(١١١)
 فكم هارب مما إليه يؤول^(١١٢)
 فحميد من القناة الذبول^(١١٣)
 ومن ذا يجمد الداء العضالاً
 يجد مرّاً به الماء الزلالاً^(١١٤)
 هيهات تكتم في الظلام مشاعل
 فبدأ، وهل يخفى الرباب الهاطل^(١١٥)
 ولا بد دون الشهد من إبر النحل^(١١٦)

١٠٧) ديوانه، ٥٩/٣.

١٠٨) ديوانه، ٧٦/٢.

١٠٩) ديوانه، ٨٧/٣.

١١٠) ديوانه، ٨٧/٣.

١١١) ديوانه، ٩٢/٣.

١١٢) ديوانه، ١٠٦/٣.

١١٣) ديوانه، ١٥٠/٣.

١١٤) ديوانه، ٢٢٨/٣.

١١٥) ديوانه، ٢٥٨/٣.

- ٤٩- إنما هيبة المؤمل سيف ال
فكثير من الشجاع التوقي
٥٠- ولاح برقك لي من عارض ملك
٥١- عيب عليك تُرى بسيف في الوغى
٥٢- وشبه الشيء منجذب إليه
ولو لم يعمل إلا ذو محل
٥٣- تلذ له المروءة وهي تؤذي
٥٤- إذا غامرت في أمر مروم
فطعم الموت في أمر حقير
٥٥- لو كان يمكنني سفرت عن الصبا
٥٦- ما كل ما يتمنى المرء يدركه
٥٧- إذا كنت ترضى أن تعيش بذلة
فما ينفع الأسد الحياء من الطوى
- سدولة الملك في القلوب حسام
وكثير من البليغ السلام^(١١٧)
ما يسقط الغيث إلا حيث يتسم^(١١٨)
ما يفعل الصمصام بالصمصام؟^(١١٩)
وأشبهنا بـدنيانا الطغام
تعالى الجيش وانخط القتام
ومن يعشق يلذ له الغرام^(١٢٠)
فلا تقنع بما دون النجوم
كطعم الموت في أمر عظيم^(١٢١)
فالشيب من قبل الأوان تلثم^(١٢٢)
تجري الرياح بما لا تشتهي السفن^(١٢٣)
فلا تستعدن الحسام اليمانيا
ولا تُتقى حتى تكون ضواريا^(١٢٤)

١١٦) ديوانه، ٣/٢٩٠.

١١٧) ديوانه، ٣/٣٤٨.

١١٨) ديوانه، ٣/٣٧٥.

١١٩) ديوانه، ٤/١٠.

١٢٠) ديوانه، ٤/٧٥.

١٢١) ديوانه، ٤/١١٩.

١٢٢) ديوانه، ٤/١٢٣.

١٢٣) ديوانه، ٣/٢٣٦.

١٢٤) ديوانه، ٤/٢٨٢.

المصادر والمراجع

- ١- ديوان أبي الطيب المتنبي - التبيان في شرح الديوان- لشرح أبي البقاء العكبري- تحقيق مصطفى السقا وزمليه - دار المعرفة- بيروت- لبنان، ودواوين شعراء العصر العباسي الذين ذكروا في البحث.
- ٢- أسرار البلاغة - عبد القاهر الجرجاني: تحقيق ريتز- دار المسيرة- بيروت- ١٩٨٣ .
- ٣- البلاغة الواضحة- علي الجارم ومصطفى أمين- دار المعارف بمصر ١٩٧٩.
- ٤- تسهيل نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز- الفخر الرازي- تحقيق عبد القادر حسين- بيروت.
- ٥- علم أساليب البيان- غازي يموت - دار الأصاله - بيروت- ١٩٨٣ .
- ٦- علم البيان- عبد العزيز عتيق - دار النهضة العربية- بيروت- ١٩٨٥ .
- ٧- الكامل في اللغة والأدب- المبرد - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم- دار النهضة - مصر ١٩٨١ .
- ٨- معجم البلاغة العربية- بدوي طبانة - دار المنارة - جدة- ط٣ - ١٩٨٨ .
- ٩- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها - أحمد مطلوب - مكتبة لبنان - بيروت ١٩٩٦ .
- ١٠- مواد البيان- علي بن خلف الكاتب (٢٧٤هـ) تحقيق حاتم الضامن- دار البشائر - سورية - ٢٠٠٣م.

جماليّات التفكير والتعبير في مواعظ الزهّاد والفقهاء ومقاماتهم بين أيدي الخلفاء والأمراء

د. قحطان صالح الفلاح (*)

إذا كانت الخطابة الدينية في العصر العباسي قد أخذت تضعف على ألسنة الخلفاء والأمراء بعد أن أخذوا مع الزمن يخطبون بكلام غيرهم، أو يندبون من يقوم مقامهم في الصلّاة والخطابة في الناس، فإنها قد أینعت في بيئة الوعّاظ والزهّاد ممّن كانت تزخر بهم الحواضر الإسلامية كبغداد والبصرة والكوفة وغيرها. وسنقصر حديثنا، ههنا، على مواعظ الزهّاد والفقهاء ومقاماتهم في العصر العباسي على وجه الخصوص، وربما نعرّج على ذكر بعض الأعلام من غير ذلك العصر.

وقد كان بعض الزهّاد والفقهاء يُلمّ بمجالس الخلفاء وأولي الأمر لوعظهم وتذكيرهم بواجباتهم تجاه الرعية. ويقوم هذا الوعظ على قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ أي إن الدافع إلى صياغته هو تطبيق هذا المبدأ، في المقام الأوّل، والمعروف ما يتفق مع الشريعة، والمنكر خلافه، دينياً وسياسياً، أي سواء أكان ذلك في ميدان تطبيق الدّين في المجتمع، أم في إصلاح السّلطة الجائرة، والمنحرفة عن بياض المحجّة.

(*) عضو الهيئة التدريسية في جامعة الفرات.

ومن المعلوم أن الفقهاء يجعلون السياسة تابعة للدين، بحسب النظام الإسلامي في الحكم؛ إذ إنّ الخلافة «موضوعة لخلافة النبوة، في حراسة الدين، وسياسة الدنيا»، كما يقول الماوردي^(١)، الفقيه الشافعي. فثمة، إذن، وظيفتان للخليفة، الأولى: دينية، بوصفه عالماً قادراً على فهم الشريعة، والاجتهاد في استنباط الأحكام، والثانية: سياسية تمكّنه من تطبيق أحكام الشريعة والدفاع عنها. و«الخلافة بعد رسول الله ﷺ، تولاها الخلفاء الراشدون المهديون، وكانوا أئمة علماء بالله تعالى، فقهاء في أحكامه، وكانوا مستقلين بالفتاوى في الأقضية (...) فلما أفضت الخلافة بعدهم إلى أقوام تولّوها بغير استحقاق، ولا استقلال بعلم الفتاوى والأحكام، اضطروا إلى الاستعانة بالفقهاء، وإلى استصحابهم في جميع أحوالهم؛ لاستفتائهم في مجاري أحكامهم»^(٢).

ولذا كان الفقيه يمثّل السلطة الدينية، باعتداده غاية السياسة هي التمكين لدين الله في الأرض، وهو الرقيب على السلطة السياسية؛ إذ «هو العالم بقانون السياسة، وطريق التوسط بين الخلق، إذا تنازعوا بحكم الشّهوات؛ فكان الفقيه معلّم السلطان ومرشده إلى طرق سياسة الخلق وضبطهم؛ لتنظيم باستقامتهم أمورهم في الدنيا، ولعمري إنّ متعلّق أيضاً بالدين، ولكن لا بنفسه بل بواسطة الدنيا؛ فإنّ الدنيا مزرعة الآخرة، ولا يتمّ الدين إلا بالدنيا. والملك والدين توأمان؛ فالدين أصل، والسلطان حارس، وما لا أصل له فمهذوم، وما لا حارس له فضائع، ولا يتمّ الملك والضبط إلا بالسلطان، وطريق الضبط في فصل الحكومات بالفقه»^(٣).

(١) الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص ٢٩.

(٢) إحياء علوم الدين، للغزالي ١/٤٤.

(٣) المصدر نفسه ١/٢٣.

ونستخلص من هذا الكلام، أن ضرورة الدين للسياسة لا تقل عن ضرورة السياسة للدين (فالدين أصل، والسلطان حارس)، غير أن واقع الأمر، لا يماثل المبدأ تماماً؛ لأن الحاكم لا يسلم للفقهاء بسلطته في توجيهه، ومنافسته في سلطانه، لذا سعى إلى استتباع الفقهاء، بالترغيب أو بالترهيب، إضافة إلى أن السلطة السياسية، غالباً، ما تكيف العلاقة بالدين لمصلحتها هي، ومن ثم، فإن الفقهاء في كتاباتهم السياسية بعد العصر العباسي الأول، تجوزوا في اشتراط تبعية السياسة للدين تبعية تامة، وصار كثير منهم «يحكم بصحة الإسلام، تحت ظلال السيوف»^(٤)! وكان الحكام آنذاك يُقرُّون الفقهاء، ويُعَدِّقون عليهم الأموال؛ لأن اعتراف الفقهاء قميناً بإضفاء الشرعية على حكمهم، وتثبيت دعائمهم، والظهور بمظهر حماة الدين؛ نظراً لمكانتهم الاجتماعية والدينية وتأثيرهم الواسع في فئات الشعب. وكثيراً ما سوغ فقهاء السوء وعلماء السلاطين للحكام أفعالهم وزعموا أنها تصدر عن إرادة الله سبحانه، والتمرد على الحاكم يُخرج المرء عن الملة والجماعة، لذا فهم يخرجون بعض أحاديث رسول الله ﷺ المتصلة بطاعة الحكام والخضوع لأمرهم في غير معصية الخالق سبحانه عن دلالتها الصحيحة.

بيد أن كثيراً من فقهاء العصر العباسي الأول على وجه الخصوص كانوا أئمة مجتهدين، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولا يخشون سطوة السلطان وجبروته، كما كان بعض الخلفاء أصحاب معرفة دينية متميزة، كالمنصور والرَّشيد والمأمون، الذي «يُعدُّ من كبار العلماء»^(٥). وكانوا يرون أنفسهم ورثة الرسول ﷺ، لا في خلافته وحسب، بل في العلم أيضاً؛ «فإن الحكمة علينا نزلت، ومن عندنا فصلت؛ فردوا

(٤) السلطة الثقافية والسلطة السياسية، لعلي أو مليل، ص ١٧، ١٣٧.

(٥) تاريخ الخلفاء، للسيوطي، ص ٢٦٣.

الأمر إلى أهله، تُورده موارده، وتُصدروه مصادره»، كما قال المنصور في إحدى خطبه^(٦)؛ وقد كان «بمكان من العلم والدين، قبل الخلافة وبعدها، وهو القائل لمالك، حين أشار عليه بتأليف الموطأ: (يا أبا عبد الله! إنه لم يبق على وجه الأرض أعلم مني ومنك، وإي قد شغلتنى الخلافة، فضع أنت للناس كتابًا، ينتفعون به، وتجنب فيه رخص ابن عمر، ووطئه للناس توطئةً). قال مالك: (فو الله، لقد علمني التصنيف يومئذ)»^(٧).

غير أن المنصور وغيره من خلفاء بني العباس، كانوا يُصيخون إلى نصائح الفقهاء، ومواعظ الزهاد، ربّما لأنهم كانوا يشعرون، أو بالأحرى يعلمون تمام العلم، أنهم انخرقوا - في بعض تصرفاتهم - عن مسار الشريعة، ومنهج الحكومة الإسلامية المثلى، فتكسبوا جداتها، خدمة لما رب السياسة، القائمة على المراوغة والمخاتلة، لا السياسة الشرعية. قال عبد الصمد بن عليّ، عمّ المنصور، له مرّة: «لقد هجمت بالعقوبة، حتى كأنك لم تسمع بالعمو! قال: لأن بني مروان لم تَبَلِ رُمُهم، وآل أبي طالب لم تُعمد سيوفهم، ونحن بين قوم قد رأونا أمس سوقة، [و] اليوم خلفاء؛ فليس تتمهد هيبتنا في صدورهم إلا بنسيان العفو، واستعمال العقوبة»^(٨). ولو نهج المنصور أو غيره منهج الخلفاء الراشدين، أو عمر بن عبد العزيز، في سياسة الرعية، وإقامة أوامر الله، لما احتاج إلى سفك الدماء، على ذلك النحو، ولما حدثت مظالم كثيرة، مخالفة لقوانين الشريعة الإسلامية. وقد قيل: «لديرة عمر أهيب من سيفكم»^(٩)؛ أي إذا كانت السياسة شرعية فستُضبط أمور البلاد، بشدّة في غير عنفٍ، ولين في غير ضَعْفٍ، أمّا

(٦) تاريخ الأمم والملوك، للطبري ٩٠/٨.

(٧) المقدمة، لابن خلدون ٢١/١.

(٨) تاريخ الخلفاء، ص ٢٢٨.

(٩) المصدر نفسه، ص ١١٥.

الاستبداد والعنف فما يغنيان شيئاً، إذا كانت السُّلطة غير شرعية، فللباطل جَوْلَةٌ، ثمّ يضمحلّ إلى غير رجعة.

وعلى أية حال، فثمة مواعظ للفقهاء والزهاد جُلّها تذكير ووعظ، أو تبيان لرأي شرعيّ في مسألةٍ ما من مسائل الحكم. وتطالعنا نصوصٌ عديدة في هذا الميدان، منها رسائل ومحاورات ومناظرات، وحكم وأقوال، ومقامات، وهذه الأخيرة تقوم على المشافهة، والمقصود بها: مقام الفقيه أو الزاهد بين يدي الخلفاء أو الأمراء واعظاً مذكراً. وقد ظهرَ هذا الفنّ القويُّ منذ صدر الإسلام، وبرزَ فيه الحسن البصريّ في العصر الأموي، والفضيل بن عياض وابن السّمّاك والأوزاعيّ وسفيان الثوريّ وصالح بن عبد الجليل وصالح المريّ وغيرهم في العصر العباسي. ويغلب المضمون الدّيني على هذه المواعظ، إلا أنّه يمتزج بالمضمون السياسي امتزاجاً قوياً؛ لارتباط السياسة - عصرئذٍ - بالدّين، فليس ثمة خطاب سياسيّ محض؛ لأنّ أولى مهامّ الدّولة، عند الفقهاء، هي حماية الدّين ومعتقداته، وتنفيذ أحكامه، وتوسيع رقعة الإسلام ونشره والحكم بما أنزل الله، فما وافق الشّرع هو السياسة لا عملُ السلطان بهواه ورأيه. والحكم الإسلامي، عندهم، مقيّدٌ بالشرعية يحتكم إلى كتابها العظيم، وقسطاسها المستقيم، ويتخذة دستوراً لاخيدة عنه يسوسُ الحاكمَ والمحكوم معاً، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

وتحفل مصادر التراث بنصوصٍ من مواعظ الفقهاء في العصر العباسي، يُنسب بعضها إلى عمرو بن عبيد، والأوزاعيّ، وسفيان الثوريّ، والإمام مالك، وغيرهم، أو إلى الزهاد الوعاظ، كصالح المريّ، وصالح بن عبد الجليل، وابن السّمّاك، والفضيل بن عياض، وغيرهم كثير. وهؤلاء جميعاً كانت لهم مقاماتهم المحمودة بين يدي الخلفاء، ولعلّ أبرز الأفكار التي تناولوها في مواعظهم تدور حول التمسك بالكتاب والسُنّة،

وإقامة العدل بين الرعيّة، والتذكير بمسؤولية الحاكم تجاه المحكوم، وضرورة تفقّد أحوال الأئمة، واتّخاذ البطانة الصّالحة، التي تأمرهم بالخير وتحثّهم عليه، وتنهاتهم عن الشرّ وتصرفهم عنه، والتحلّي بالخلال الحميدة والصفّات الحسنة، كالتواضع والاقتصاد في السّرّف، وغيرها. وكذلك صوّرت المواعظ اليوم الآخر وما فيه من أهوال؛ ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينٍ، مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨/٤٠].

وكان الإمام الأوزاعيّ (ت ١٥٧هـ)^(١٠) أماراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، وله في هذا الميدان أكثر من مقام، فقد وقف بين يدي عبد الله بن علي، عمّ المنصور، لما قدّم الشام، فسأله عن دماء بني أميّة، الذين قتلهم عبد الله وغيره من بني العبّاس، فقال بحُرْمَتِهَا، وسأله عن غير ذلك، فصَدَعَ بالحقّ، ولم يأبه لِعَضَبِ عبد الله، وانتفاح أوداجه، واحمرار عينيه، بل ذكر مقامه بين يدي الله، وحسب^(١١). ومقام الأوزاعيّ بين يدي المنصور دليلٌ على صراحته في نقد الحكم، وجرأته في كشف أخطائه، وفيه يخوّفه عذاب الله سبحانه، وينذره ناراً تَلْطَى، لا يصلّاها إلا الأشقى، ويبيّن له عظم المسؤولية التي في عنقه، وأن الولاية أمرٌ جَلَلٌ وبلاءٌ عظيم. ومّا جاء في مقامه قوله: «يا أمير المؤمنين! مَنْ كَرِهَ الْحَقَّ، فَقَدْ كَرِهَ اللَّهَ؛ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمَبِينُ. إِنَّ الَّذِي لَيْزَ

(١٠) انظر، في ترجمته وأخباره: وفيات الأعيان، لابن خلّكان ١٢٧/٣-١٢٨. وسير أعلام

النبلاء، للذهبيّ ٨٦/٧-١٠٤. والبداية والنهاية، لابن كثير ١٢٤/١٠-١٢٩.

(١١) سير أعلام النبلاء ٩٧/٧-٩٨. وعلّق الذهبيّ على موقف الأوزاعيّ، قائلاً: «قد كان عبد

الله بن علي ملكاً جباراً، سقاًكاً للدماء، صعب المراس، ومع هذا فالإمام الأوزاعيّ يَصْدَعُهُ بمُرِّ الْحَقِّ، كما ترى، لا كخَلْقٍ من علماء السوء، الذين يُحْسِنُونَ لِلأمرء ما يقتحِمون به من الظلم والعسْفِ، ويقلبون لهم الباطل حقّاً - قاتلهم الله! - أو يسكتون مع القدرة على

بيان الحقّ». ٩٨/٧.

قلوب أمتكم لكم، حين ولأكم أمورهم؛ لقرابتكم من رسول الله ﷺ - وقد كان بهم رؤوفاً رحيماً مؤاسياً لهم بنفسه في ذات يده، محموداً عند الله وعند الناس - فحقيق بك أن تقوم له فيهم بالحق، وأن تكون بالقسط له فيهم قائماً، ولعورتهم ساتراً. لا تُغلق عليك دونهم الأبواب، ولا تُقم دونهم الحجاب. تبتهج بالنعمة عندهم، وتبتس بما أصابهم من سوء. يا أمير المؤمنين! قد كنت في شغلٍ شاغلٍ من خاصّة نفسك عن عامّة الناس، الذين أصبحت تملكهم - أحمرهم وأسودهم، مُسلمهم وكافرهم - وكلّ له عليك نصيبٌ من العدل، فكيف بك إذا أنبعت منهم فقام وراء فقام، وليس منهم أحدٌ إلا وهو يشكو بليّةً أذخلتها عليه، أو ظلّامة سقتها إليه؟ (...). وقد بلغني، يا أمير المؤمنين، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: اللهم إن كنت تعلم أني أبالي إذا قعد الخصمان بين يديّ على من مال الحق، من قريبٍ أو بعيد، فلا تُمهلي طرفةً عين»^(١٢).

ومّا يُذكر أنّ رجلاً من الزهاد قام بين يدي المنصور في مكة المكرمة، وقد سمعه المنصور يشكو ظهور البغي والفساد في الأرض، وما يتحوّل بين الحق وأهله من الطمع، فوعظه بجرأة نادرة، وعزا سبب هذا الفساد والجور إليه، ومّا قاله: «إنّ الله تبارك وتعالى استرعاك المسلمين وأموالهم، فأغفلت أمورهم، واهتممت بجمع أموالهم، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجصّ والأجرّ، وأبواباً من الحديد، وحجبةً معهم السلاح، ثمّ سحنت نفسك فيها عنهم، وبعثت عمالك في جباية الأموال وجمعها، وقويتهم بالرجال والسلاح والكراع»^(١٣)، وأمرت بالألا يدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان، نفّر سميتهم، ولم تأمر بإيصال المظلوم، ولا الملهوف، ولا الجائع العاري، ولا

(١٢) إحياء علوم الدين ٢/٣٠٠-٣٠٢. وانظر: عيون الأخبار، لابن قتيبة ٢/٧١١-٧١٢.

والعقد الفريد، لابن عبد ربه ٣/١٥٦-١٥٧. والفتاوى: الجماعة من الناس.

(١٣) الكراع: الخيل.

الضعيف الفقير، ولا أحدٌ إلا وله في هذا المال حقٌّ. فلَمَّا رآكَ هؤلاء النَّفَرُ، الذين استخلصتهم لنفسك، وآثرتهم على رعيتك، وأمرت ألا يُحْجَبُوا عنك، تجبي الأموال، وتجمعها، ولا تقسمها، قالوا: هذا قد خان الله! فما بالنا لا نخونه، وقد سَجَنَ لنا نفسه؟! فَأَتَمَّرُوا بِألا يصل إليك من عِلْمِ أخبار النَّاسِ شيءٌ إلا ما أرادوه...». ثمَّ يجلو الزَّاهد للمنصور كثيراً من وجوه الظلم، ويضرب له الأمثال، علّه يعتبر أو يزدجر؛ «فبكى المنصور، وقال: يا ليتني لم أُخْلَق! ويحك! فكيف أحتال لنفسي؟ قال: يا أمير المؤمنين! إنَّ للنَّاسَ أَعْلَامًا يَفْرَعُونَ إِلَيْهِمْ فِي دِينِهِمْ، وَيَرْضَوْنَ بِهِمْ، فَاجْعَلْهُمْ بِطَانَتِكَ يُرْشِدُوكَ، وشاورهم في أمرِكَ يُسَدِّدُوكَ. قال: قد بعثتُ إليهم فهربوا مِنِّي. قال: خافوا أن تحملهم على طريقتك؛ ولكن افتح بابك، وسهّل حجابك، وانصر المظلوم، واقمّع الظَّلم، وخُذِ الْفِيءَ وَالصَّدَقَاتِ مِمَّا حَلَّ وَطَاب، واقسِمْه بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ عَلَى أَهْلِهِ، وَأَنَا الضَّامِنُ عَنْهُمْ أَنْ يَأْتُوكَ وَيُسْعِدُوكَ عَلَى صِلَاحِ الْأُمَّةِ»^(١٤).

إنَّ مثل هذه المواعظ والوصايا تكشف بعض الجوانب السلبية في الحكم عصرئذٍ، كما توضّح للحاكم سُبُل إصلاحها، عن طريق العودة إلى شريعة الإسلام، والاستعانة بأعوان الصّلاح والتقى، والافتداء بسيرة الأئمة المهديين الرَّاشدين. ولولا صلاحُ قائلها وصدقهم لما رضي منهم الخلفاء هذا الجفَاء والغِلْظَةَ والشَّدَّةَ في النَّصْحِ، ولولا معرفة الخلفاء بعيوبهم وإسرافهم في البَطْشِ والتَّنْكِيلِ، وتقصيرهم في تفقُّد أحوال الأُمَّة، لما أَعْظَمَ هؤلاء الفقهاء الزَّهَادُ لَهُمْ فِي الْقَوْلِ، وشكوا الظلم والبغي؛ إذ ليس وكدهم أن ينالوا حُظُوةً عندهم، أو يفوزوا بنائِلٍ أو عطاء منهم؛ بل كانوا يأنفون من عطاياهم، ولا يرجون إلا صلاح هذه الأُمَّة، وإحقاق الحقِّ، ورفع الظلم عن كَوَاهِلِ المظلومين، الذين لا يَقْدِرُونَ أَنْ يَجْأَرُوا إِلَى أَوْلِيَاءِ الْأُمُورِ بِمِظْلَمِهِمْ، أو بما يَحْزُبُهُمْ مِنْ عَوَائِلِ الزَّمَانِ! ولنسمع سفيان الثَّوْرِيَّ يقول للمنصور، بملاء فيه: اتَّقِ اللَّهَ، فقد ملأت

(١٤) عيون الأخبار ٧٠٧/٢-٧٠٩. والعقد ١٥٣/٣-١٥٦. وإحياء علوم الدِّين ٣٠٢/٢-٣٠٤.

الأرض ظلماً وجوراً! فيقول له المنصور: ارفع إلينا حاجتك. فيقول له: - ولا يلتفت إلى كلامه، فما إليه حاجة أصلاً - «إنما أُنزِلت هذه المنزلة بسيوف المهاجرين والأنصار، وأبناؤهم يموتون جوعاً، فاتق الله، وأوصل إليهم حقوقهم»^(١٥). والثوريّ من أشدّ الفقهاء مجافاة للسلطان، قيل: «لقي أبو جعفر سُفيان الثوريّ في الطّواف، وسُفيان لا يعرفه، فضرب بيده على عاتقه، وقال: أتعرّفي؟ قال: لا؛ ولكنك قبضت عليّ قَبْضة جَبّار! قال: عِظني أبا عبد الله، قال: وما عملتَ فيما عَلِمْتَ فأعِظك فيما جهلت؟ قال: فما يمنعك أن تأتينا؟ قال: إنّ الله نهي عنكم؛ فقال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾^(١٦). فمسح أبو جعفر يده به، ثمّ التفت إلى أصحابه، فقال: ألقينا الحبّ إلى العلماء فَلَقَطُوا؛ إلّا ما كان من سُفيان، فإنّه أعيانا فراراً»^(١٧).

وكان صالح بن بشير المرويّ (ت ١٧٦هـ) مُحدّثاً وواعظاً بليغاً مؤثراً^(١٨)، وقف الجاحظ في بيانه، غير مرّة، عليه^(١٩). وقد وعظ المهديّ، فقال: «احمل الله ما أكلمك به اليوم، فإنّ أولى الناس بالله أحملهم لغلظة النصيحة فيه، وجدريّ بمنّ له قرابة برسول الله ﷺ أن يرث أخلاقه، ويأتمّ بحديه، وقد ورثك الله من فهم العلم، وإنارة الحجّة ميراناً قطع به عُذرك (...). واعلم أن رسول الله ﷺ خصم من خالف

(١٥) إحياء علوم الدّين ١٢٧/٢. وسير أعلام النبلاء ١٩٩/٧. وانظر: وفيات الأعيان ٣٨٦/٢-٣٩١. والبداية والنهاية ١٠/١٤٣-١٤٤.

(١٦) سورة هود: ١١٣/١١.

(١٧) ابن عبد ربه: العقد ١٥٩/٣.

(١٨) انظر، في ترجمته وأخباره: تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي ٣٠٦/٩-٣١٠. ووفيات الأعيان ٢/٤٩٤-٤٩٥. وسير أعلام النبلاء ٧/٣٨١-٣٨٣. والبداية والنهاية ١٠/١٨٣-١٨٤.

(١٩) البيان والتبيين، ١/١١٣، ١١٩، ٣٦٤، ٣٦٩، ٤٢/٢، ٧٩، ٨٢، ١٤٩/٣، ١٧١، ٢٨٨، ١٧٨.

في أمته، يبتزها أحكامها. ومن كان محمد ﷺ خصمه كان الله خصمه، فأعِدَّ لمخاصمة الله، ومخاصمة رسول الله ﷺ حُجَجًا، تضمن لك النجاة، أو استسلم للهلكة. واعلم أن أبطأ الصرعى نهضة صريع هوى، وأن أثبت الناس قدمًا يوم القيامة آخذهم بكتاب الله، وسنة نبيه ﷺ، فمِثْلِكَ لا يُكابر بتجديد المعصية، ولكن تمثل له الإساءة إحسانًا، ويشهد له عليها خونة العلماء؛ وبهذه الحيلة تصيدت الدنيا نظراءك، فأحسن الحمل، فقد أحسنت إليك الأداء. قال [الزاوي]: فبكى المهدي، ثم أمر له بشيء، فلم يقبله»^(٢٠).

وكان ابن السمّك، محمد بن صبيح (ت ١٨٣هـ)^(٢١)، سيّد الوعاظ، كما يقول الذهبي، ومن رواة الحديث الشريف، وله مقامات حسنة بين يدي الرشيد، وكان يطلب منه الوعظ والتذكير. وقد أخصر إليه ذات مرة، فقال له الرشيد: «عظني، قال: يا أمير المؤمنين! اتق الله وحده لا شريك له، واعلم أنك واقفٌ غدًا بين يدي الله ربك، ثم مصروفٌ إلى إحدى منزلتين، لا ثالثة لهما: جنة أو نار، فبكى هارون، حتى اخصّلت لحيته. فأقبل الفضل [بن الربيع] على ابن السمّك، فقال: سبحان الله! وهل يتخالج أحدًا شكٌ في أن أمير المؤمنين مصروفٌ إلى الجنة، إن شاء الله؛ لقيامه بحق الله وعدله في عباده وفضله! فلم يحفل بذلك ابن السمّك من قوله، ولم يلتفت إليه، وأقبل على أمير المؤمنين! فقال: يا أمير المؤمنين: إن هذا - يعني الفضل بن الربيع - ليس،

(٢٠) وفيات الأعيان ٢/٤٩٤ - ٤٩٥.

(٢١) انظر في ترجمته وأخباره: العقد ٣/١٥٨. وتاريخ بغداد ٢/٤٤٥ - ٤٤٩. ووفيات الأعيان

٤/٣٠١ - ٣٠٢. وسير أعلام النبلاء ٧/٥٦٦ - ٥٦٨، ٨/١٨٣. والبداية والنهاية

١٠/١٩٧ - ١٩٨، ٢٣٣، ٢٣٥. وتاريخ الخلفاء، ص ٢٥٠.

والله، معك، ولا عندك، في ذلك اليوم، فاتق الله، وانظر لنفسك. قال [الزوي]:
فبكى هارون، حتى أشفقنا عليه، وأفحِمَ الفضل بن الربيع، فلم ينطق بحرفٍ»^(٢٢)!

والعجب، حقًا، في أغلب مواعظ الفقهاء والزهاد للخلفاء، أن ينبري أحد
أعوانهم، من أرباب الملق والاستجداء، ممن مرَدُوا على الميزن والتفان، فيدعي للخليفة
ما لا يدعيه الخليفة لنفسه، ويزكيه على الله، وكأما أمن مكره - سبحانه - ﴿فَلا
يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾؟! [الأعراف: ٩٩/٧]. بل يلبس أحيانًا لبوس
الرأفة والرحمة والشفقة بالخليفة، فيعترض على الواعظ، بصيغة: (ارفق بأمر المؤمنين)،
أو (لقد شقققت على أمير المؤمنين)! أو ما شابه ذلك، وكأن هذا الوعظ سيُرْهِقُ
روحه، لا محالة، كشأن بعض الصالحين الخُلص من شوائب الدنيا وعرضها الزائل،
وأدراخا الفاسدة. وليس هذا الشفيق، في حقيقة الأمر، غير رجل ماكر خبيث، لا
يعدو هممه مصلحته الخاصة ومنصبه الذي يرتكب الموبقات، ويفعل الأفاعيل، ليحتفظ
به! وما أحسن ردّ الفضيل بن عياض على الفضل بن الربيع نفسه، حين قال له
الفضل: ارفق بأمر المؤمنين! فقال الفضيل: قتلته أنت وأصحابك، وأرفقُ به^(٢٣)!

والحق، أن الرشيد كان رقيق الشعور، حادّ العاطفة، شديد الانفعال، وكثيرًا ما
أجْهَشَ بالبكاء، وبكى حتى يُغشى عليه، وتخضّل لحيته. وقد لقي الفضيل بن عياض
(ت ١٨٧هـ)، العالم العابد الزاهد^(٢٤)، فوعظه وأبكاها، غير مرّة، ووافقتي الرّشيد
يستزيده: «... فبكى هارون، وقال: زدني، قال: يا حسنَ الوجه! أنت الذي يسألك
الله - تعالى - عن هذا الخلق يوم القيامة؛ فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار

(٢٢) تاريخ الأمم والملوك ٣٥٧/٨.

(٢٣) سير أعلام النبلاء ٦٣٦/٧.

(٢٤) انظر، في ترجمته وأخباره: وفيات الأعيان ٤٧/٤-٥٠. وسير أعلام النبلاء ٦٣١/٧-

فافعل، وإيتاك أن تُصبح ومُتسي، وفي قلبك غِشٌّ لأحدٍ من رعيتك؛ فإنَّ النبي ﷺ قال: (مَنْ أَصْبَحَ لَهُمْ غَاشًّا، لَمْ يَرُحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ)، فبكى هارون...»^(٢٥). وحرِيٌّ بمن كان له قَلْبٌ أن يستنزف الدمع السَّخِين، ويذرفه مِدْرَارًا على ما فَرَطَ في جَنبِ الله! وكأَنَّما الرَّشِيد يتجرَّد من أعباء السِّيَاسَة، ويعيش حالة من الوجد الصَّوْفِي - إن جاز التعبير - والانفعال العاطفي، فيتمتَّى لو أنَّه تطهَّر من أدراخها، وتخلَّص من أتونها المُستعر!

وكان الرَّشِيد يحجَّ عامًا، ويعزو عامًا، خلا سنين قليلة من حُكْمه، وقد تواترت الأخبار^(٢٦) بصِدْق إيمانه، وكثرة عبادته، ومحافظته على التكاليف الشرعية، وانطوائه على كَرَم وجودٍ فياض، وتواضعه للعلم والعلماء، إضافةً إلى عنفه وشدَّته في الإدارة والسياسة، ومن ثمَّ ربَّما ازوَّر قليلاً عن جادَّة الصَّواب، بتأثير أعوان السَّوء، وفقهاء السلاطين تارَةً، وكأيِّ إنسانٍ غير معصوم تارة أخرى؛ قد يُخطئ وينحرف، وتزَلَّ نفسه الأمانة بالسَّوء إلى ميولها الجانحة وأهوائها الجاحمة.

ومهما يكن الأمر، فقد كان الشعور الدِّيني قويًّا، عصرئذٍ، عند الخلفاء، وغيرهم. وكان هؤلاء يحكمون باسم الإسلام، ويجرِّصون على إقامة شعائره، ويعتزُّون بأنهم أهله وحُماته، وأنهم آل رسول الله ﷺ وقرابته القريبة، وبهم هدى الله النَّاس بعد ضلالتهم، وبصرهم بعد جهالتهم. فليس عجيبًا إن أصاحوا إلى وعظ الفقهاء ونصائح الزُّهاد، وقبلوه منهم قَبُول تحقيقٍ وعمل، أو سمعة ورياء؛ فالله أعلم بالمهتدين؟ «ولا يزال

(٢٥) سير أعلام النبلاء ٦٣٦/٧. وانظر حديث: (من أصبح لهم غاشًّا...)، بلفظٍ آخر، في صحيح البخاري، بعناية: مصطفى البغا، كتاب الأحكام، باب (٨)، ٤/٢٤٥٣ برقم ٦٧٣٢. وصحيح مسلم، عُني به: أبو صُهيب الكرمي، كتاب الإيمان، باب (٦٣)، ص ٨١ برقم ١٤٢.

(٢٦) انظر: البداية والنهاية ٢٣٠/١٠-٢٤٠. وتاريخ الخلفاء، ص ٢٤٣-٢٥٣.

الملوك بخير ما سمعوا الوعظ، وتأثروا به، ولا تزال الأمة بخير، ما كان فيها من يعظ الملوك، ولا يخشى سطوتهم»^(٢٧).

ولم يقتصر الوعظ على مقامات الزهاد والفقهاء بين يدي الخلفاء والأمراء، وإنما كان ثمة رسائل كتابية وعظمية، تنحو منحى الإصلاح السياسي والاجتماعي، وتتسم بصِدْقِ اللهجة، وسموّ العاطفة، وبلاغة العبارة، وجلال الفكرة، وحبّ الإصلاح. وقد تكون هذه الرسائل جواباً عن سؤالٍ وُجِّه إلى الفقيه في مسألة من مسائل الحكم، أو انتدب الفقيه نفسه لبيان الوجه الشرعي في قضية ما. فمن الرسائل الوعظية الرسالة المنسوبة إلى الإمام مالك بن أنس، وقد كتبها إلى هارون الرشيد، ووزيره يحيى بن خالد البرمكي، وهي في زهاء ثلاثين صفحة^(٢٨). ويتعلّق مضمونها بالسُّنن والفقهِ والمواعظ والآداب والأخلاق والسياسة والاجتماع، بحيث ترسم خطة حياة إسلامية مثلى، ومنهج عمل أخلاقي وديني سديد. وكان الإمام مالك أستاذاً للرشيد في الفقه والحديث، أيام أبيه المهدي، وفي خلافته «رَحَلَ بولديه الأمين والمأمون؛ لسماع الموطأ على مالك، رَحِمَهُ اللهُ»^(٢٩).

وكتب الإمام الأوزاعي رسالة طويلة، إلى صالح بن علي، عمّ المنصور، وكان خرج بجبل لبنان قوّم شكّوا عامل خراجهم، فوجّه إليهم جيشاً، قتل فريقاً من مُقاتلتهم، وأقرّ مَنْ بقي منهم على دينهم، وردّهم إلى قُراهم، وأجلى فريقاً آخر منهم، فأثار هذا الصنيع الأوزاعي، فكتب واعظاً ومبيناً حُكْمَ اللهِ تعالى، وما أوصى به نبيّه الكريم ﷺ، ومما قاله: «... فكيف تؤخذ عامّة بذنوب خاصّة، حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم؟ وحُكْمَ اللهِ أن لا تَزرَ وزارة وزر أخرى، وهو أحقّ ما وُفِّدَ عنده، واقتُدي به، وأحقّ

(٢٧) الدّولة العباسية، لمحمد الخضري، ص ١٣٣.

(٢٨) جمهرة رسائل العرب، لأحمد زكي صفوت، ٤/٤٠٣-٤٢٨.

(٢٩) تاريخ الخلفاء، ص ٢٥١.

الوصايا أن تُحفظ وتُرعى وصية رسول الله، فإنه قال: (مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، وَكَلَّفَهُ فَوْقَ طاقته، فَأَنَا حَاجِبُهُ)...»^(٣٠). وأُخِذت أهل (قبرص) حَدَثًا فِي ولاية عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس على الثَّغور، فأراد نَقَضَ صَلَحتهم، فكتب إلى الليث بن سعد، ومالك بن أنس، وسفيان ابن عُيَيْنَةَ، وآخرين، يستفتيهم في أمرهم، فأجابوه واعظين، وأورد البلاذريّ (ت ٢٧٩هـ) إجاباتهم، كلٌّ بحسب اجتهاده في المسألة^(٣١). وثمة محاورات عديدة جرت بين الفقهاء والخلفاء والأمراء، منها محاورة بين المأمون وعليّ الرضا، الإمام الثامن عند الاثني عشرية، في ادّعاء حقهم في الخلافة^(٣٢). واحتجّ المأمون على الفقهاء، وقد جمعهم للمناظرة، في فضل عليّ عليه السلام على سائر الصحابة، وأنه خير خلق الله بعد رسوله صلى الله عليه وآله، وأولى الناس بخلافته^(٣٣). وكان المأمون يرى هذا الرأي، فقد ذكر ابن كثير في حوادث سنة (٢١٢هـ) أنه «في ربيع الأول أظهر المأمون بدعتين فظيعتين، إحداهما أطمم من الأخرى، وهي: القول بخُلُق القرآن، والثانية: تفضيل عليّ بن أبي طالب على الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله»^(٣٤).

وقد تناثرت حكم الفقهاء وأقوالهم في قضايا الحكم وشؤون الحكام، في أطواء مصادر الأدب والتاريخ، وكتب التراجم والطبقات والمناقب. وهي كثيرة كثيرة غامرة، ومما يُذكر قول الفُضَيْل بن عياض: «لو أنّ لي دعوة مُستجابة، لجعلتها للإمام؛ لأنّ

(٣٠) فتوح البلدان، للبلاذريّ، ص ١٩٢. وانظر حديث: (من ظلم معاهدًا...) في: سنن أبي

داود، ضبط: محمد محيي الدين عبد الحميد، كتاب الخراج والإمارة والفيء، ١٧٠/٣-

١٧١ برقم ٣٠٥٢.

(٣١) فتوح البلدان، ص ١٨٣-١٨٦.

(٣٢) العقد ٣٨٠/٢، ٩٨/٥.

(٣٣) المصدر نفسه ٩٠/٥ - ٩٨.

(٣٤) البداية والنهاية ٢٩٠/١٠، ٣٠١. وانظر: تاريخ الطبري ٦١٩/٨.

به صلاح الرعية، فإذا صلح أمنت العباد والبلاد»^(٣٥). وقال سفيان الثوري: «من دعا لظالم بالبقاء، فقد أحب أن يعصى الله»، وقال أيضاً: «لم أرَ للسلطان مثلاً إلا مثلاً ضرب على لسان الثعلب، قال: عرفت للكلب نبيّاً وسبعين دستاناً، ليس فيها دستانٌ خيراً من ألا أرى الكلب ولا يراني»^(٣٦).

وكتب أبو يوسف القاضي، يعقوب بن إبراهيم (١١٣-١٨٢هـ)^(٣٧)، صاحب الإمام أبي حنيفة، كتاب (الخراج)، بتكليف من الرشيد، وهو من أجل الآثار التاريخية الاقتصادية للدولة الإسلامية، وقد استهله أبو يوسف بنصيحة وموعظة للرشيد، أربى فيها على الغاية، فكان مثال الفقيه الناصح، والعالم الحريص على المجاهرة بما يُجلبه عليه واجبه في الدعوة إلى الله، والإرشاد إلى طريق الهدى والصلاح. ولم يأل جهداً في تذكيره بعظم الأمانة التي تقلدها، والمسؤولية التي أناطها الله به، وحذره من اتباع الهوى والمكابرة في الباطل، وسلوك سبيل المعتدين؛ «فإنّ دَيَّانَ يوم الدين، إنّما يدين العباد بأعمالهم، ولا يدينهم بمنزلهم، وقد حدّرك الله فاحذر؛ فإنك لم تُخلّق عبثاً، ولن تُترك سُدىً، وإن الله سائلك عمّا أنت فيه، وعمّا عملت به، فانظر ما الجواب»^(٣٨)!

وقد أبدع أبو يوسف في صياغة موعظته أيما إبداع، فانتقى من مفردات اللغة أنقها وأجودها، وحبّر أسلوبه وتمّمه، فأضفى مزيداً من التأثير في كلامه، وأضاف إلى جلال الفكر جمال العبارة، وما أحسن قوله: «يا أمير المؤمنين، إنّ الله - وله الحمد - قد قلّدك أمراً عظيماً، ثوابه أعظم الثواب، وعقابه أشدّ العقاب، قلّدك أمر هذه

(٣٥) البداية والنهاية ١٠/٢١٥. وانظر: وفيات الأعيان ٤/٤٨. وسير أعلام النبلاء ٧/٦٣٩.

(٣٦) المصدر نفسه ٧/١٩٨-١٩٩. والدستان: كلمة فارسية؛ تعني: المكر والحيلة. (نقلًا عن حاشية المحقق).

(٣٧) انظر في ترجمته وأخباره: وفيات الأعيان ٦/٣٧٨-٣٩٠. وسير أعلام النبلاء ٧/٧٠٧-

٧٠٩. والبداية والنهاية ١٠/١٩٤-١٩٦.

(٣٨) كتاب الخراج، ص ٥. والدَيَّان: اسمٌ من أسماء الله تعالى.

الأمة، فأصبحت وأمسيت وأنت تبي لحلق كثير، قد استرعاكهم الله، وائتمنك عليهم، وابتلاك بهم، وولأك أمرهم، وليس يلبث البنيان - إذا أسس على غير التقوى - أن يأتيه الله من القواعد، فيهدمه على من بناه، وأعان عليه، فلا تضيعن ما قللك الله من أمر هذه الأمة والرعيّة؛ فإن القوّة في العمل، بإذن الله»^(٣٩)! إنّها موعظة عالم جليل، صدق بالحق، وأمر به، إلى خليفة عابد سؤول، يروم تبيان وجوه تطبيق شريعة الله، ورعاية مصالح المسلمين، وسياستهم وفق ما يقتضيه الشرع الحنيف، فقام أبو يوسف بما أمره الرّشيد خير قيام، فرسم له منهج عمل اقتصادي إسلامي؛ ليكون موضع التطبيق في دولة إسلامية: «وقد كتبت لك ما أمرت به، وشرحت لك وبيّنته، فتفقهه وتدبره، وردّد قراءته حتى تحفظه، فإنّي قد اجتهدت لك في ذلك، ولم ألك والمسلمين نصحاء؛ ابتغاء وجه الله وثوابه وخوف عقابه. وإنّي لأرجو، إن عملت بما فيه من البيان، أن يوقر الله لك خراجك، من غير ظلم مسلم ولا معاهد، ويصلح لك رعيّتك، فإنّ صلاحهم بإقامة الحدود عليهم، ورفع الظلم عنهم، والتظالم فيما اشتبه من الحقوق عليهم»^(٤٠).

ونستخلص ممّا سبق، أنّ مواعظ الفقهاء والمحدثين والرّهّاد ومقاماتهم، تتسم - في مجملها باستلهاهم آيات الذكر الحكيم، وأحاديث النبي ﷺ، ومواعظ السلف الصّالح، كالحسن البصري وغيره، كما تتسم بالجرأة والصّراحة، ووضوح المغزى السياسي الإصلاحّي، وصدق اللهجة، وقوّة الإيمان، وجلال الفكر وعمّوه، وحرية الرأي والتعبير. وفيها يتبدى دور الفقيه والعالم، سياسياً ودينيّاً، في تقديم النصّح والموعظة والمشورة، ولذا كان جلة فقهاء السلف الصّالح في عصورنا الرّاهية مثلاً للفقيه المسؤول أمام الله، والملتزم بواجبه تجاه أمته، فكانوا، في عزّة نفوسهم، يتقون هيات

(٣٩) كتاب الخراج، ص ٣-٤.

(٤٠) نفسه، ص ٦-٧.

السلططين وعطاياهم، ويتسامون عن مسألتهم واستجدائهم، وفي الوقت ذاته لا يدخرون وُسْعًا في تبصيرهم سواء السبيل، وبياض المحجة، والتضريح إلى الله بأن يصلحهم؛ ففي صلاحهم صلاح العباد والبلاد. ولذا كان سلطانهم على النفوس أقوى من سلطان الحكام، وكانت منزلتهم في القلوب أسمى من منزلتهم، وأعلى مقامًا وجلالًا. قيل: قَدِمَ الرَّشِيدُ الرَّقَّةَ، وصادف مَقْدَمَ عبد الله بن المبارك إليها؛ فأنجفل الناس خلف ابن المبارك، وتقطعت النعال، وارتفعت الغبرة، فأشرفت أمٌ ولدٍ لأمير المؤمنين تنظر إلى الناس، فسألت: ما هذا؟ قالوا: عالمٌ من أهل خُرَّاسان، قَدِمَ. قالت: هذا، والله، المَلِكُ، لا مُلْكُ هارون الذي لا يجمع الناس إلا بِشُرْطِ وأَعوان^(٤١).

هذا، وكان عبد الله بن المبارك يُجِلُّ هارون الرشيد، ويدعو له بالخير، ولما مات جَزِعَ الرَّشِيدُ لوفاته، وقال: مات سيّد العلماء، وأذن للناس أن يعرّوه في ابن المبارك، وقال: أَمَا هو القائل:

اللّٰهُ يَدْفَعُ بِالسُّلْطَانِ مُغْضِبَةً عن ديننا، رحمةً مِنْهُ وَرْضَاوَانَا
لولا الأئمّة لم تأمن لنا سُبُلٌ وكان أضْعَفُنَا نَهْبًا لأقوانا؟
فَمَنْ الذي يسمع هذا من ابن المبارك، ولا يعرف حَقَّنَا؟^(٤٢).

* * *

ولعلّ من الأجدر بنا، في هذا المقام، أن نعرِّج قليلاً على موعظة بليغة تستدعي

(٤١) وفيات الأعيان ٣/٣٣. وسير أعلام النبلاء ٧/٦٠٥. وانظر فيما يتعلّق بابن المبارك وأخباره: المصدر نفسه ٧/٦٢٠-٦٣٠. والبداية والنهاية ١٠/١٩١-١٩٣.

(٤٢) سير أعلام النبلاء ٧/٦٢٥، ٦٢٨. والبيتان في ديوان ابن المبارك، من قصيدة، عدّها

(٢٤) بيتًا. انظر: ديوان الإمام عبد الله بن المبارك، ص ٦٦.

الوقوف عليها لإمامٍ فقيهٍ عالمٍ عاملٍ زاهدٍ هو أبو بكر الطرطوشي، وهو فقيه وأديب أندلسي رحل إلى المشرق ودخل بغداد والبصرة وسكن الشام مُدَّة ودرَّس بها، ثمَّ سكن مصر وتوفي فيها سنة (٥٢٠ هـ). وله مؤلفاتٌ عدَّة أشهرها كتاب (سراج الملوك)، وهو وعظ للملوك والحكام وبيان لما ينبغي أن يتحلَّوا به من الأخلاق والسياسة الرشيدة في الحكم^(٤٣). وقد دخل مرَّةً على الأفضل بن بدر الجمالي وزير الفاطميين بمصر (٤٨٧-٥١٥ هـ)، وكان له الأمر والتدبير ويُلقَّب (شاهنشاہ)^(٤٤)، فوعظه الطرطوشي حتى بكى، وكان ممَّا وعظه به: «إنَّ الأمر الذي أصبحت فيه من الملِّك إمَّا صارَ إليك بموتٍ مَنْ كان قبلك، وهو خارجٌ عن يدك بمثل ما صار إليك، فاتَّقِ الله فيما حوَّلَكَ من هذه الأمة، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ سائلُكَ عن النَّقير والقَظمير والفتيل، واعلم أنَّ الله عزَّ وجلَّ أتى سليمانَ بنَ داودَ مُلِّكَ الدُّنيا بحِذَّافيرها، فسَخَّرَ له الإنسَ والجنَّ والشياطينَ والطيرَ والوحوشَ والبهائمَ، وسَخَّرَ له الرِّيحَ تجري بأمره زُحَاءً حيثُ أصاب، ورفعَ عنه حِسَابَ ذلك أجمع، فقال عزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩] فما عَدَّ ذلك نعمةً كما عَدَّدْتُمُوهَا، ولا حَسِبَهَا كرامةً كما حَسِبْتُمُوهَا، بل خافَ أَنْ يَكُونَ استدراجًا من الله عزَّ وجلَّ، فقال: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ

(٤٣) انظر ترجمته في: وفيات الأعيان ٤/ ٣٦٣ - ٢٦٥. ونفح الطيب من غصن الأندلس

الطيب، للمقري التلمساني، تح: إحسان عباس ٢/ ٨٥. وعصر الدول والإمارات

(الأندلس)، لشوقي ضيف، ص ٤٩١ - ٤٩٣.

(٤٤) انظر ترجمته في: وفيات الأعيان ٢/ ٤٤٨ - ٤٥١.

أَكْفُرُ ﴿ [النمل: ٤٠] . فافتح الباب، وسهّل الحجاب، وانصر المظلوم»^(٤٥).

ومن البين أنّ هذا النصّ يقوم على قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنه ينتمي إلى فنّ المواعظ أو بالأحرى المقامات، وهو يعتمد على فكرة تردّدت أصدائها كثيراً في القرآن الكريم؛ إذ الدنيا كلّها إلى زوال، وليس الملك فحسب ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُزُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥ / والحديد: ٢٠]، فلا ينبغي أن يعتزّ الإنسان بها ما دامت غداً غير مأمونة، من استرسل إليها أهانته، ومن قلاها أكرمته، رغب فيها الأشقياء، ورغب عنها السعداء، فغناها فقرٌ وعلمها جهلٌ، وخطوبها صروفٌ، وأيامها دولٌ، كما يُقال. ولذا فعلى الإنسان أن يعتبر بحال الأمم السابقة والملوك الأولين:

(٤٥) نفع الطيب ٢ / ٨٥. المفردات: حوّل: أعطاك ومنحك؛ يقال: حوّل الشيء: أعطاه إيّاه متفضلاً. النقيير: الثمرة التي في ظهر النواة، يُضرب به المثل في الشيء الضعيف، قال تعالى: ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٤]. والنقيير أيضاً: الفقير المسكين، ويقال: فقيرٌ نقير (إتباع ومزاوجة). القطمير: القشرة الرقيقة على النواة - كالفأفة لها - (تحت التمرة)، والشيء الهين الحقيق، يُقال: ما أصبت منه قطميراً. والنواة: عجمُ التمر والزبيب ونحوهما، أو البذرة: قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الحَبِّ والنَّوَى ﴾ [الأنعام: ٩٥]. وجمع النواة: نوى. الفتيل: الخيط الذي شقّ النواة وما فتله الإنسان بين أصابعه من خيط أو غيره. يُقال: ما أغنى عنه فتيلاً أي شيئاً. وقال تعالى: ﴿ بَلِ اللّهُ يُرَكِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء: ٤٩]. والمراد من النقيير والقطمير والفتيل: أنه سيسأل عن أصغر الأشياء. الحذافير: جمع حذفور وحذفار، وهو الناحية، يقال: أخذ الشيء بحذافيره: بأسره أو بجوانبه ونواحيه. رُحاء: الريح اللينة الهادئة؛ أي منقادة له حيث أراد. أمنن: أي أعط منه من شئت. ابتلاه: اختبره.

﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَآكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٩].

وأمرُ الحُكْمِ والسُّلْطَانِ لَا يُمْكِنُ الرَّكُونُ إِلَيْهِ فَهُوَ إِلَى زَوَالِ أَيْضًا، إِمَّا بِتَقَلُّبِ الْأَحْوَالِ وَتَغَلُّبِ الْخُصُومِ أَوْ بِمَوْتِ صَاحِبِهِ، وَقَدْ قِيلَ: (لَوْ دَامَتْ لَغَيْرِكَ لَمَا وَصَلَتْ إِلَيْكَ) فَإِذَا كَانَ هَذَا الْأَمْرُ يَقِينًا لَا مَرِيبَةَ فِيهِ، فَحَرِيٌّ بِمَنْ آتَاهُ اللَّهُ السُّلْطَانَ، وَهَيِّأَ لَهُ الْأَسْبَابَ لِبُلُوغِ شَأْوِهِ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ فِي أَمْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَإِبْرَامَ سِيَاسَتِهَا وَتَدْبِيرِ شُؤْنِهَا «فَاللَّهُ سَائِلُكَ أَيُّهَا الْحَاكِمُ عَنِ النَّقِيرِ وَالْقَطْمِيرِ وَالْفَتِيلِ»؛ أَيُّ عَنِ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى الْهَيِّئِ الْحَقِيرِ: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

وقال تعالى:

﴿فَوَرِّكَ لِنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢ - ٩٣]، وقال تعالى:

﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]

ثم يضرب الواعظُ المَثَلَ بِنَبِيِّ اللَّهِ سَلِيمَانَ، عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ، الَّذِي آتَاهُ اللَّهُ مُلْكَ الدُّنْيَا بِمُحَادَفِهَا فَسَخَّرَ لَهُ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ وَالطَّيْرَ وَالْوَحُوشَ وَالْبَهَائِمَ: ﴿وَحَشِرَ لِسَلِيمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧]. وقد روي أن ذلك كان استجابة من الله تعالى لدعاء سليمان حيث قال: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ بَحْرِيَّ بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَعَوَاصٍ﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿[ص: ٣٥ - ٤٠].

واستدعاء قصة نبي الله سليمان عليه السلام له أثر كبير في مجال وعظ الحكام الذين يجدر بهم أن يرفعوا ويذبحوا فما ملك أحدٌ مثل ملكه، إلا أنه خاف أن يكون ذلك استدراجاً واختباراً من الله سبحانه فقال: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]. هذا بنبيّ مُرسَل فكيف حال غيره؟!

وَحَتَمَ الطُّرُوشِيُّ موعظته بما يريد بعد أن أيقن في نفسه أنه أحدث التأثير المطلوب في شعور الوزير وعقله فقال: «فافتح الباب، وسهّل الحجاب، وانصر المظلوم»!! ثلاثٌ جُمِل، بسيطة في ظاهرها، عميقة في معناها ومغزاها، لو عُمل بها؛ إذ هي سبيل كل سياسة رشيدة، ونهج سار على غرارهِ مَنْ ضُرِبَ بعدلهم وحسن سياستهم الأمثال كالفاروق عمر رضي الله عنه والخليفة العادل عمر بن عبد العزيز. ولو فُتِحَتْ أبوابُ الحُكَّامِ لوصل لكل ذي حقِّ حقه ولُنصر المظلوم، ولما أحاط بالحكّام زبانية الظلم والعدوان وأرباب الملق والاستجداء الذين يُزَيِّنون لهم أفعالهم التي تخرج بهم عن الطريق السوي، وجادة الحق، والذين سجنوه بينهم، فلا يرى إلا ما يرون أو ما يريدون هم أن يراه وحسب .

إنّ هذه الموعظة وغيرها أيضاً ممّا وقفنا عليه، تكشف كما قلنا بعض الجوانب السلبية في الحكم آنذاك، وتُشير إليها على نحو مباشر كما في الجمل الأخيرة «فافتح الباب، وسهّل الحجاب، وانصر المظلوم»!! فلو لم يكن ثمة تقصير لما وقف الطرطوشي واعظاً أصلاً، ولو لم يكن الطرطوشي صالحاً في نفسه وسلوكه لما صدّع بالحق، وأمّر به، ولما رضي منه الوزير المبعجل هذا الخطاب الاستعلائي الحادّ الذي يصعب على النفس التي تشعر بالفوقية والاستعلاء من قبل الناصح، وإن كان صالحاً، أو ما كان يرجو إلاّ إحقاق الحق وإصلاح حال الأمة؛ ولكن المتلقّي يستقله، ولاسيما إذا كان وزيراً حاكماً بيده أمر الدولة كلّها، تعنو له الرؤوس، وترتعد لذكره

الفرائص. إلا أنّ صِدْقَ عاطفة الواعظ، واستقامة سلوكه، وجلال معناه، وبلاغة أسلوبه، كُلت أولئك أحدث الأثر المرجوّ، فلامست هذه الموعظة شغاف قلبه فبكى، وما ذاك إلا لِعَلْمِهِ بتقصيره، وإسرافه على نفسه من ناحية، ولوجود الشعور الديني لديه من ناحية أخرى.

والطرطوشيّ في هذه الموعظة مثالٌ للفقير الناصح، والعالم الحريص على المجاهرة بما يملكه عليه واجبه في الدعوة إلى الله والإرشاد إلى طريق الهدى والصلاح، وسياسة الرعية بالعدل والحقّ المبين. ويتساءل المرء عن مصدر فكر الطرطوشيّ في موعظته هذه؟ من الواضح أنه يمتح من معين القرآن الكريم، ويستلهم آياته البيّنات، ومعانيه السامية، إضافة إلى الحديث النبوي وأقوال السلف الصالح ومواعظهم؛ إذ طالما رَدَّد هؤلاء قبل الطرطوشيّ هذه المعاني السامية وأطالوا القول فيها - كما يتجلّى ذلك من خلال الموعظ التي عرضنا لها آنفاً - بل إنّ الطرطوشيّ استوحى بعضها بالحرف كما في قوله: (فاتح الباب، وسهّل الحجاب، وانصر المظلوم). فهذه الجمل هي ذاتها التي مرّت بنا قبل سطور على لسان الزاهد الواعظ الذي قام بين يدي الخليفة العباسي المنصور في مكة المكرمة.

ومهما يكن الأمر فمعاني الموعظة واضحة المغزى، بعيدة عن العمق أو التكلّف أو المعاني الفلسفية العويصة؛ إلا أنّها موحية، أصابت المقصد الذي رامه صاحبها. والإشارة إلى نبي الله سليمان إشارة ذكية دالة؛ إذ هي محاولة لاتخاذ قدوة يسير عليها الوزير الحاكم بحيث يكون سلوكه وهديه، عليه السلام، بمنزلة المعيار الذي يضبط سلوك الوزير الأفضل ويغريه بانتهاج نهجه.

أمّا أسلوب الطرطوشيّ في التعبير فهو الذي أكسب هذه المعاني المتداولة جمالاً وتأثيراً، فقد اتّسم بالقوة والجزالة والفصاحة وتماسك الحمل والبعد عن الغرابة

والغموض والتكلف، وعدم اللجوء إلى المحسنات البديعية، أو التصنيع ك (السمع والتصوير البياني والطباق) إلاّ ماجاء عفو الخاطر، وعلى نحو غير مقصود للزخرفة والزينة؛ لأنه يخاطب العقل أولاً أكثر ممّا يخاطب الشعور والوجدان، فهو في معرض حجاج، ولذا عزف عن المحسنات في زمنٍ كانت فيه سائدة إلى حدّ بعيد، فالسمع كان طاعياً في زمن الطرطوشي، وهو كان يستعمله بكثرة؛ غير أنّ مقامه واعظاً يقتضيه أن يتعد عن التكلّف الذي يناقض صدق العاطفة، فليس غرضه إظهار بلاغته، وحسن بيانه، وإثما إحداث التأثير في نفس المخاطب، واستمالتة إلى حديثه، ولا نعني بهذا القول أن أسلوبه غير مفصّل أو غير مبين إنّما هو غير متكلف، والتكلف نقيض البلاغة والفصاحة. ومقتضى الحال - كما يقول القدماء - هو الفيصل في الحكم على أسلوبٍ ما أو سمةٍ بلاغية معينة كالسجع أو غيره.

وأسلوب الطرطوشي الذي بنى عليه موعظته هو الأسلوب المرسل، الذي هو مذهب الطبع ومجارة السجّية، «وهو الذي يُطلق فيه الكلام إطلاقاً، ولا يقطع أجزاء؛ بل يُرسل إرسالاً، من غير تقييدٍ بقافية ولا غيرها»^(٤٦). ويُعرف بالأسلوب السهل الممتنع، ويقوم على متانة السبك، وقوّة التراكيب، وإجلال المعنى، والتعبير السهل، الذي تطول فيه الجملة بطول الفواصل الفكرية، كما في الجمل الأولى مثلاً، وتقتصر بقصرها. كما يمتاز أيضاً بوضوح النزعة العقلية، والعناية بالتفصيل والشرح، وسعة الأفق في أعمال الفكر في دقائق المعاني. ويرى ابن خلدون، أنّ «المحمود في المخاطبات السلطانية الترسّل؛ وهو إطلاق الكلام، وإرساله من غير تسجيع، إلا في الأقل النادر، وحيث ترسله الملكة إرسالاً من غير تكلفٍ له، ثم إعطاء الكلام حقّه في مطابقته لمقتضى الحال؛ فإنّ المقامات مختلفة، ولكلّ مقام أسلوب يخصّه من إطناب،

(٤٦) المقدّمة، لابن خلدون ٢ / ٢٧٠.

أو إيجاز، أو حذف، أو إثبات، أو تصريح، أو إشارة وكناية واستعارة»^(٤٧).

والأسلوب المرسل هو الأسلوب المفضل بل السائد في القرون الإسلامية الأولى، وقد يُجلى بالازدواج أو السجع في بعض الأحيان، والغاية منه تكمن في إطلاق حركة الفكر والعقل من أيّ عقالٍ قد يشدهما. والوظيفة المعرفية هي الغاية التي ينشدها المبدع منه، ثمّ تأتي الوظيفة الجمالية التي لا تقتصر على اللفظ فحسب، وإنّما هي في التفكير والتعبير معاً.

ومن مظاهر الصنعة في نصّ الطرطوشيّ التأنق في استعمال المفردات والاحتفاء بالتعبير في كل المفردات؛ في اختيارها وترتيبها وسلامتها من سماجة التأليف، وأورد التركيب، وهذا يدل على الاهتمام بالمعنى في حقيقة الأمر، وليس رغبة باللفظ ذي الجرس الصوتي، والرنين الموسيقي، كما قد يُظنّ؛ إذ اللفظ أداة المعنى فليجأ إليه الواعظ لإحداث التأثير المعنوي وإيصال الفكر، ولتصبح الصياغة أكثر وعياً وقصديّة، ومن ثمّ أكثر تأثيراً. ولا يصحّ الفصل بين اللفظ والمعنى؛ لأنّ الكلام - كما ذكر الجاحظ - لا يستحقّ اسم البلاغة؛ «حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك»^(٤٨). فالعناية باللفظ عناية بالمعنى؛ لأنّ العلاقة بينهما علاقة تفاعل وتآزر وتكامل، فلا يصحّ الفصل بينهما؛ إذ بهما معاً تتشكّل القيمة الأدبية للتجربة اللغوية، وثمة أقوال نقدية عدّة تؤكّد هذا الرأي لا مجال لذكرها.

(٤٧) المقدمة ٢ / ٢٧١.

(٤٨) البيان والتبيين ١ / ١١٥.

وصحةُ المعنى مُنَوَّطَةٌ بجودة اللفظ ودقته، ونصّ الطرطوشي فيه جلال الفكرة وجمال اللفظة ورسالتها، ولغته لغة السهل الممتنع، الذي يجمع بين ثراء التفكير وبساطة التعبير. وهذا دليل على عبقرية ذوقه ورهافة حسّه، وألفاظه تنتمي إلى معجم الزهاد. ولعلّ من أهمّ ما يمكن أن يشار إليه أيضاً هو الاستشهاد بآيات القرآن الكريم على نحو تتوافق فيه المعاني مع ما يراد التعبير عنه فيأخذ بعضها برباق بعض، دون نبؤ أو شذوذ كما في قوله: (فما عدّ ذلك نعمةً ... أم أكفر). ويمكن سبب تمثله بالقرآن الكريم في البرهان على صدق قوله، ولا سيما أنّه يلخص في حديثه عن سليمان ما جاء في القرآن الكريم في أكثر من موضع، وخاصة في سورة «النمل» و«ص»؛ فضلاً عن تزيين النصّ بالقرآن. وهنا نذكر قول ابن الأثير، مبيناً فيه الغاية من الاقتباس من القرآن الكريم؛ إذ يقول: «إذا ضُمَّنَتِ الآياتُ في أماكنها اللائقة بها، ومواقعها المناسبة لها؛ فلا شُبُهَةٌ فيما يصير للكلام من الفخامة والجزالة والرّونق»، وكذلك «فإنّ الآية الواحدة تقوم في بلوغ الغرض، وتوفية المقاصد، ما لا تقوم به الكتب المطوّلة، والأدلة القاطعة»^(٤٩). ومن المعروف أيضاً، أنّ للقرآن العظيم مكانة خاصّة في الفكر الإسلامي، لذا فإنّ الأهمية الاحتجاجية للاقتباس منه كبيرة جداً؛ لتأكيد الكلام وحجّة تُفحم المخاطب، كما في الآية الثانية التي وردت في النصّ. كذلك استمدّ الطرطوشي حين قال: «فسخّر له الريح تجري بأمره رُخاءً حيث أصاب» الآية القرآنية نفسها مع تغيير طفيف: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦]. وهذا يسميه بعض البلاغيين ك(القلقشندي) الاقتباس وهو أن يُضمّن الكلام شيئاً من القرآن ولا ينبّه عليه؛ أي يسوقه في كلامه، دون إخلال أو نشاز في التأليف. وهو دليل

(٤٩) صُبْحُ الأعمشى في صناعة الإنشاء، للقلقشندي، ١ / ٢٣١.

على إعجاب الطرطوشي بفصاحة القرآن، وسعة محفوظه، وتأثره به ورغبته في استظهاره.

ولا بدّ لنا أن نشير إلى أنّ نصّ الطرطوشي نصّ شفاهي في أصله؛ إذ هو موعظة فإذا وضعنا ذلك في الحسبان أدركنا جمال النصّ وبلاغته وطرافته الإبداعية على نحو واضح، حيث تقترن الألفاظ بسماحتها الصوتية المميزة التي تعين المرء على تحديد المعاني الوظيفية والمعجمية معاً من نبرٍ ووقفٍ وتنغيمٍ يتقلّب في مستواه بين الهدوء والقوة بالاتّساق مع حركات الجسد و إيماءات الوجه و لغة الإشارة وما إلى ذلك من سمات فارقة بين النصّ الشفاهي والكتابي تعين المرء على تدبر النصّ التدبّر الأكمل والأمثل. وصفوة القول أن مواعظ الفقهاء والرُهبان ومقاماتهم تُعدّ في الدروة من البيان الرفيع، والبلاغة العالية؛ إذ إنّ جُلّ النصوص، إن لم نقل كلّها، صيغت بأسلوبٍ مشرق ناصع، لا مُعاظلة فيه، ولا تقعر، ولا إسفاف، ولا تعمل، وإنما تدفق وطلاوة وحُسن ديباجة، تلدّ لسماعه الآذان، وتطرب له القلوب. وما أبلعّ اللغة وأبينها! إذا ازدانت بالفكر المثالي المتسامي، وأضحت لغة مُثُل عليا، ولغة إشعاع وتنوير، وهداية وإرشاد؛ لأنّ المقصد من هذه النصوص، في الأصل، هو تحقيق التأثير والاستجابة في المتلقّي، وإدهاشه بهذه اللغة المتوهّجة، عاطفياً وانفعالياً، ومضاهاة جلال التفكير وعمقه وسموه، بجمال اللغة والصياغة والتعبير، ومن ثمّ تحقيق جمال الاتصال والتواصل، أو المعرفة والفرنّ.

المصادر والمراجع:

- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، للماوردي: خرّج أحاديثه وعلّق عليه: خالد عبد اللطيف العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- إحياء علوم الدين، للغزالي، مراجعة: صدقي جميل العطار، دار الفكر، بيروت، ط ٣، ٢٠٠١م.
- البداية والنهاية، لابن كثير، تح: أحمد عبد الوهاب فتّيح، دار الحديث، القاهرة، ط ٥، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
- البيان والتبيين، للجاحظ، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، د.ت.
- تاريخ الأمم والملوك، للطبري، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. مصوّرة عن طبعة دار المعارف بمصر، بيروت، د.ت.
- تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، تح: مصطفى عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٧م.
- تاريخ الخلفاء، للسيوطي، بعناية: مصطفى عطا، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط ١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
- جمهرة رسائل العرب، لأحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت، د.ت.
- كتاب الخراج، لأبي يوسف القاضي، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٦هـ.
- الدّولة العباسيّة، لمحمد الحضري، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- ديوان الإمام عبد الله بن المبارك، جمع وتحقيق ودراسة: مجاهد مصطفى بهجت، دار الوفاء، القاهرة، ط ٢، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- السّلطة الثقافية والسّلطة السّياسية، علي أومليل، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط ١، ١٩٩٦م.
- سنن أبي داود، لأبي داود، ضبط: محمد محيي الدّين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، د.ت.
- سير أعلام النبلاء، للذهبي، تح: محبّ الدّين العمروي، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

- صُبْحُ الأعشى في صناعة الإنشاء، للقلقشندي، شرحه وعلّق عليه وقابل نصوصه: محمد حسين شمس الدّين ويوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- صحيح البخاري، للإمام البخاري، بعناية: مصطفى البُغا، دار العلوم الإنسانية، دمشق، ط٢، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- صحيح مسلم، للإمام مسلم، عُني به: أبو صُهيب الكرمي، بيت الأفكار الدّولية للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- عصر الدول والإمارات (الأندلس)، شوقي ضيف، منشورات جامعة حلب، ١٩٩٤م.
- العقد الفريد، لابن عبد ربّه، شرحه وضبطه: أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.
- عيون الأخبار، لابن قتيبة الدينوري، تصحيح: محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
- فتوح البلدان، للبلاذري، نشره: صلاح الدّين المنجد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت.
- المقدّمة، لابن خلدون، تصحيح وفهرسة: السعيد المنذوه، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط٣، د.ت.
- نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقرّي التلمساني، تح: إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٨م.
- وفيات الأعيان، لابن خلكان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت.

التوجيه النحوي لمسائل خلافية

في مجالس ثعلب (ت ٢٩١هـ)

د. سعد الدين المصطفى^(*)

مقدمة:

ثعلب هو أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد مولى بني شيبان، المعروف بثعلب. إمام أهل الكوفة في النحو واللغة والحديث، ولد سنة (٢٠٠هـ) ومات سنة (٢٩١هـ). قال عنه الزبيدي: كان ثعلب من الحفظ والعلم وصدق اللهجة والمعرفة بالغريب ورواية الشعر القديم ومعرفة النحو على مذهب الكوفيين، ما ليس عليه أحد، وكان يدرس كتب الفراء وكتب الكسائي درسًا، ولم يكن يعلم مذهب البصريين ولا مستخرجًا للقياس ولا مطالبًا له، يقول: قال الفراء وقال الكسائي، فإذا سُئِلَ عن الحجة والحقيقة في ذلك لم يغرق النظر^(١).

جلس ثعلب إلى ابن الأعرابي في اللغة^(٢)، وتلمذ لسلمة بن عاصم في النحو، وروى كتب أبي زيد الأنصاري عن ابن نجدة، وكتب أبي عبيدة، وكتب الأصمعي، فاجتمع له بذلك علم واسع صحيح جعل شيوخه يسألونه عن كثير من المسائل. وله مساجلات مع أبي العباس المبرّد (ت ٢٨٥هـ) إمام البصريين في زمانه، وكلاهما

(*) عضو الهيئة الفنية في مجمع اللغة العربية.

(١) طبقات النحويين واللغويين ص ١٥٥.

(٢) بغية الوعاة ص ٤٢.

كان علمًا وإمامًا في علوم العربية، فأدّى ذلك إلى المنافسة بينهما، وهذا ما حفظه التاريخ وسجّله الشعر.

ويُعَدُّ كتاب (مجالس ثعلب) من أهمّ كتبه التي أملاها على تلاميذه، فقد اشتملت هذه المجالس على ضروبٍ شتى من علوم العربيّة، وضمت في تضاعيفها كثيرًا من المسائل النحوية على مذهب الكوفيين. ويمكننا القول إنّ هذه المجالس من أهم الأسس التي قام عليها مذهب الكوفيين بعد كتاب (معاني القرآن) للقرّاء (ت ٢٠٧هـ).

ويجدر بنا هنا أن نشير أنّ الإمام ثعلبًا كان كثيرًا ما يستعرض في أثناء المجالس آراء البصريين ويُفندّها، ويضعّف بعضها، ويردُّ بعضها الآخر، علمًا أنّ البصريين، والكوفيين أيضًا، لم يجتمعوا على رأي واحد في مسألة واحدة. وهذا ما دفعني إلى البحث في هذه المسائل وتبيينها.

وفي هذه المجالس يروي ثعلبٌ قَدْرًا وافرًا من آيات القرآن الكريم والحديث الشريف، ويذكر آراء العلماء وأقوالهم ويناقشها ذاكراً رأيه في تأويل ذلك وتفسيره مع الكلام في الإعراب والتخريج.

وأبو العباس ثعلب ذوّاقة في الأدب والنحو واللُّغة، وهذا واضح في اختياراته أشعار العرب وأرجازها وأخبارها، وشواهدا. وكتاب «المجالس» رواه تلامذته، ومنهم: أولاً أبو عبد الله اليزيدي (ت ٣١٠هـ)، وأبو بكر ابن الأنباري (ت ٣٢٧هـ) وأبو عمر الزاهد غلام ثعلب (ت ٣٤٥هـ)، وابن درستويه (ت ٣٤٧هـ) وابن مقسيم (ت ٣٥٤هـ).

وفي العصر الحديث حقّق هذا الكتاب الأستاذ عبد السلام هارون، رحمه الله رحمة واسعة، سنة ١٣٦٨هـ - ١٩٤٨م، وطبع بالقاهرة في دار المعارف.

المسائل الخلافية ومصطلحات الكوفيين فيها:

المسألة الأولى:

أملّ ثعلب في «هذا»^(٣). قال: «هذا» تكون مثلاً، وتكون تقريباً^(٤)، فإذا كانت مثلاً، قُلت: هذا زيدٌ، هذا الشخصُ شخصُ زيدٍ، وإن شئتَ قُلت: هذا زيدٌ قائماً، ولكنك قد قرئتُه، وتكون تشبيهاً في: كزيدٍ هذا منطلق، وكزيدٍ قائمٌ، وهذا يجري مجرى الخبر.

قال: وقال سيبويه: هذا زيدٌ منطلقاً، فأراد أن يُخبر عن «هذا» بالانطلاق، ولا يخبر عن زيد. ولكنه ذكر زيداً ليعلم لمن الفعل. قال أبو العباس: وهذا لا يكون إلا تقريباً^(٥)، وهو لا يعرف التقريب. والتقريب مثل «كان» إلا أنه لا يُقدّم فعله كما يُقدّم في «كان» لأنه ردُّ كلامٍ فلا يكون قبله شيءٌ.

وقال الكسائي: سمعت العرب تقول: هذا زيدٌ إياه بعينه، فجعله مثل «كان» وقالوا: ترعّ ابنُ جُوَيْبَةَ في اللحنِ حين قرأ: ﴿هُؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطَهَرُ لَكُمْ﴾^(٦)،

(٣) أملّ إملاً، لغة الحجاز. وأملى: إملاءً. لغة تميم. وجاء القرآن باللغتين قال تعالى: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحُكْمُ﴾ [البقرة: الآية ٢٨٢]، وقال ﴿فَهِيَ تُمْلِي عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

(٤) مصطلح «مثال» يقابل اسم الإشارة، ومصطلح «تقريب» يقابل كان وأخواتها، وهما مصطلحان كوفيان.

(٥) والمقصود بعبارة: لا يعرف التقريب هو سيبويه (ت ١٨٠هـ). ومصطلح الفعل عند الكوفيين يعني اسم الفاعل، وهنا هو «قائم».

(٦) الآية ٧٨ من سورة هود. ينظر المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لابن جني ١: ٣٢٥. وقرأ عيسى بن عمر بها، وابن مروان، وهو قارئ المدينة، وسعيد بن جبير والحسن وابن أبي إسحاق قرأها بالنصب، فقال سيبويه: احتبى ابن مروان في اللحن حين قرأ ﴿هُنَّ أَطَهَرُ لَكُمْ﴾. الكتاب ٢: ٣٩٧.

وجعلوه حالاً، يعني «أطهر». وليس هو كما قالوا، هو خبر لـ«هذا»، كما كان في «كان»، إلا أنه لا يُدخَلُ العماد مع التقريب^(٧)، من قِبَلِ أَنَّ العماد جوابٌ والتقريب جواب فلا يجتمعان. وإذا صاروا إلى المكثي^(٨) جعلوه بين «ها» و«ذا»، فقالوا: ها أنا ذا قائماً، وجاء في القرآن بإعادتها^(٩)، ويقولون: ها نَحْنُ الأءِ، وها نَحْنُ هؤلاء أعادوها وحذفوها. وهذا وهذا كله مع التقريب، ويجذفون الخبر لمعاينة الإنسان، فقالوا^(١٠):

أَحْوَلِي تَنْفُضُ اسْتِكَ مِذْرَوِيهَا لِتَقْتُلَنِي فَهَذَا عُمَارَا

فحذف الخبر كأنه قال: ها أنا ذا حاضرٌ، أو في هذا المكان. وإذا جاؤوا مع «هذا» بالألف واللام كانت الألف واللام نعتاً لـ«هذا»، فقالوا: هذا الرَّجُلُ قائمٌ^(١١).

رأي ثعلب: أن «هذا» ليس اسم إشارة، بل هو عامل كـ«كان» فينصب الخبر، والاسم مرفوع بعده. وأنكر على سيبويه عدم معرفته بما سمّاه التقريب، وعوّل على رأي الكسائي، وفي توجيه إعراب «أطهر» وقراءتها شاذة، أعربوها خبراً للتقريب، ورأي ثعلب والكسائي أن «هُنَّ» عماد، والعماد ضمير فصل يفصل بين اسم كان وخبرها هنا.

إنَّ ما ذهب إليه سيبويه هو الصواب فـ«هذا» اسم إشارة مبتدأ. و«زيد» خبره، وإعراب «منطلقاً» و«قائماً» حال من «زيد»، وتوجيه إعراب سيبويه في هذه المسألة

(٧) العماد: مصطلح كوفي يعني «ضمير الفصل» .

(٨) والمكثي بتشديد النون وتخفيفها مصطلح كوفي يعني الضمير.

(٩) وإعادتها قوله تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ [آل عمران: ٦٦].

(١٠) ديوان عنتره ص ٧٥. وينظر الخزانة ٣: ٣٦٢ وأمالى المرتضى ١: ١٥٦. والمذرون: الألبان والمقترنان، وذكر الميداني في مجمع الأمثال ١: ١٧١ «جاء ينفض مذرويه»: يضرب المثل لمن يتهدّد من غير حقيقة. والأبيات قالها عنتره في هجاء عمارة بن زياد العبسي.

(١١) مجالس ثعلب ٥٢ - ٥٤.

يعتمد على استقامة الكلام وصحة المعنى وتدوُّقه. وأما قراءة مَنْ قرأ بالنصب في ﴿هُنَّ أَظْهَرَ﴾، وهي قراءة شاذَّة، فقد لَحَنَ، وقال الخليل (ت ١٧٥هـ) وسيبويه (ت ١٨٠هـ)، والأخفش (ت ٢١٤هـ) - وهؤلاء أئمة البصريين إنَّ هذا لا يجوز، ولا تكون «هُنَّ» هاهنا عمادًا، وإنما تكون عمادًا فيما لا يتمُّ الكلام إلاَّ بما بعدها، نحو: كانَ زيدٌ هوَ أذاك، لِتدَلَّ على أنَّ «الأخ» ليس بنعتٍ^(١٢).

المسألة الثانية:

نرى ثعلبًا يعرض ما قاله المازني (ت ٢٤٩هـ) وهو من أشياخ البصريين في أسلوب التعجب. مثال ما رواه أبو العباس: قال أبو عثمان المازني: قالتِ العرب: زُهَيِّ الرَّجُلُ وما أزهاهُ! وشُعِلَ الرَّجُلُ وما أشغَلَهُ! وجُنَّ الرَّجُلُ وما أجنَّهُ!. وقال المازني: وهذا الضرب شاذُّ أيضًا، يحفظ حفظًا^(١٣).

وقال أبو العباس: وهذا غلطٌ، هذا كثر في كلام العرب حتى صار مدحًا وذمًا، فتعجَّبتِ العرب من المفعول لأنه صار مدحًا وذمًا، وإِنَّمَا يَتَعَجَّبُ من الفاعل^(١٤).

وأما رأي البصريين فهو الاقتصار على القاعدة النحوية في أسلوب التعجب فقد اشترط النحاة أن تصاغ صيغتنا التعجب (ما أفعله) و(أفعل به) من فعل مبني للمعلوم ولا تصاغان من فعل مبني للمجهول، وألا يقاس على ما ذهب إليه ثعلب، وما قاله المازنيُّ عليه جمهور النحاة^(١٥).

(١٢) معاني القرآن للفراء ٢: ٢٣ وإعراب القرآن للنحاس ص ٤٢٩.

(١٣) مجالس ثعلب ص ٣٢٩. ونقل السيوطي هذا النص في المزهري ١: ٢٣١.

(١٤) نفسه ص ٣٣٠.

(١٥) شرح المفصل لابن يعيش ٧: ٩٤ وشرح الكافية للرضي ٢: ٣٠٨ وارتشاف الضرب لأبي

حيان ٤: ٤٠٨٢.

وأما مذهب ثعلب في بناء أفعال التعجب من الفعل المبني للمجهول أو ما سمّوه: لما لم يسمّ فاعله لغرض المدح والذم فهو كثير، كما زعم، ولكنه لم يُقدّم الشواهد الكثيرة أو الأمثلة المفيدة فاكتفى بشيء مسموع عن العرب قليل. والحق ما ذهب إليه المازني، والسبب في ذلك أن بناء فعل التعجب من المبني لما لم يُسمّ فاعله يُؤدي إلى اللبس. ورأى ابن مالك جواز ذلك عند أمن اللبس^(١٦).

المسألة الثالثة:

ويقف ثعلب للمازني بالمرصاد فيخطئه عندما قال بدخول الباء الزائدة على مفعول (كفى) بالشاذ، وقال المازني في قول الشاعر^(١٧):

فكفَى بنا فَضلاً على مَنْ غيرنا حُبُّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ إِيَّانا

وإنما تدخل الباء على الفاعل، وهذا أيضاً شاذ. ولكن قد حكي هذا على المفعول. قال أبو العباس: وكلُّ هذا غلط، العرب تقول: كفى يزيد رجلاً، ونعم يزيد رجلاً، ونعم زيد رجلاً. وحكى الكسائي (ت ١٨٩هـ) عن العرب: مررتُ بأبياتٍ جادَ يهنُّ أبياتاً، وحادَ أبياتاً، وجُدُنَ أبياتاً، ثلاث لغات.

وكذا مررتُ بقومٍ نعمَ قومًا، ونعمَ بهم قومًا، ونعموا قومًا، وهذا كثير في كلام العرب، لا يقال شاذ. والمعنى أنهم يقولون: أحسنُ يزيدٍ، فيدخلون الباء في الممدوح، كما يقولون: ما أحسنَ زيداً، ليُعلموا أنَّ الفعل لا يتصرفُ عليه، ولا يُؤخِّدون الفعل، لأنَّ المفسر يدلُّ عليه، ويثنون ويجمعون على الأصل. فهذه ثلاث لغاتٍ مسموعات عن العرب^(١٨).

(١٦) شرح التسهيل ٣: ٤٥ والمساعد لابن عقيل ٢: ١٦٣.

(١٧) البيت للأنصاري. ويُنظر الكتاب ٢: ١٠٥ وأمالي ابن الشجري ٣: ٢٢٢.

(١٨) مجالس ثعلب ص ٣٣٠.

وقول المازني إنَّ دخول الباء على غير فاعل كفى شاذٌ وهذا عليه جمهور النحاة، وفي الشاهد دخلت الباء على المفعول، والأصل دخولها على فاعل كفى ولا المفعول، ويؤيد ما ذهب إليه المازني كثرة دخول الباء على فاعل «كفى» في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾^(١٩). وأما ابن الشجري في أماليه فقد رأى أنَّ دخولها على المفعول به قليل^(٢٠)، ومنهم من حكم عليه بأنه ضرورة^(٢١). وأوَّل البيت تأويلاً مغايراً، على أنَّ الباء داخلة على فاعل كفى، وجعل (حبَّ النبي) بدل اشتمال من الضمير على الموضوع، لأنَّ الضمير مخفوض لفظاً مرفوع محلاً أي معنى^(٢٢).

ورأي ثعلب ومعه الكوفيون، أنَّ الباء تزداد في فاعل أحسن يزيد، وهو هنا موافق للجمهور، إذ الأصل: أحسن يزيد، بمعنى صار ذا حُسنٍ، ثم غيَّرت صيغة الخبر إلى الطلب، وزيدت الباء إصلاً للفظ. وشرط زيادتها أيضاً في فاعل «نعم» و«بئس» أن يكون محلياً بأل أو مضافاً إلى محلي بأل، أو مضافاً إلى مضافٍ معرفٍ بها، أو ضميراً مستتراً وجوباً، بشرط أن يكون ملتزماً فيه الأفراد والتذكير، وعائداً على تمييز بعده، مفسرٍ ما في هذا الضمير من الإبهام^(٢٣). واستند الكوفيون إلى المسموع عن العرب، نحو: نَعِمَ بِهِ رَجُلًا، ونَعِمَ يزيدُ رَجُلًا.

وتزداد الباء على فاعل كلِّ فعلٍ ماضٍ ثلاثي محوّل إلى فعلٍ دالٍّ على مدح أو ذمٍّ مشربٍ معنى التعجب، إضافةً إلى معناه اللغوي الأصيل، نحو: جَادَ بِثوبِكَ ثوبًا، وطَابَ بِطعامِكَ طعامًا ونحوها، ويدخل في هذا النوع من الأفعال: نَعِمَ وبئسَ. وهذا رأي الفراء (٥٢٠٧هـ) والأخفش (ت ٥٢١٤هـ) والمبرد (ت ٥٢٨٥هـ) وهذان الأخيران بصريان، ولا

(١٩) النساء: ٨١.

(٢٠) أمالي ابن الشجري ٣: ٢٢٢.

(٢١) رصف المباني ٢٢٦.

(٢٢) الخزانة ٦: ١٢١ و رصف المباني ٢٢٦.

(٢٣) الكتاب ٢: ١٧٨.

يجوز الكوفيون دخول الباء على فاعل فعل لم تتوفر فيه الشروط المذكورة فلا يقال: قَامَ بِأَخِيكَ وَلَا قَعَدَ بِأَخِيكَ^(٢٤).

المسألة الرابعة:

وكان لثعلب موقف حسنٌ من القراءات القرآنية، فهو نحوي كوفي ينظر إليها باحترام ويكبرها، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾^(٢٥) برفع «وملائكته»، قال: يجوز ولم نسمع من قرأ به^(٢٦). ويُقال: إنَّ زَيْدًا وَعَمْرُو قَائِمَانِ، وَإِنَّ زَيْدًا وَعَمْرًا قَائِمَانِ. قال: أي ثعلب، هذا مثل قوله^(٢٧):

فَمَنْ يَأْكُ أَمْسَى بِالْمَدِينَةِ رَحْلُهُ فَإِنِّي وَقِيَّارٌ بِهَا لَعْرِبٌ
وَأُنشِدُ أَيْضًا^(٢٨):

يَا لَيْتَنِي وَأَنْتِ يَا لَمَيْسُ فِي بَلَدٍ لَيْسَ بِهِ أَنْيْسُ

قال أبو العباس: والفراء يقول: لا أقول إلا فيما يتبين فيه الإعراب. والكسائي يقول فيما يتبين وفيما لا يتبين.

ومعنى ذلك أنَّ الكسائي، وهو صاحب قراءة مشهورة، لا يجيز الرفع بالعطف على اسم «إِنَّ» إلا إذا كان اسمها مبنياً لا يظهر فيه الإعراب، كما في قوله تعالى:

(٢٤) معاني القرآن للفراء ٢: ١٢٠.

(٢٥) الأحزاب: ٥٦.

(٢٦) هذه قراءة الرفع في «وملائكته» مروية عن ابن عباس، وعبد الوارث عن أبي عمرو. يُنظر مجالس ثعلب ص ٣١٦ وتفسير أبي حيان ٧: ٢٤٨. ولم أعثر في كتب القراءات على سند لها.

(٢٧) هذا البيت لضابئ البرجمي قاله مع أبيات أخرى زمن عثمان رضي الله عنه، عندما كان محبوباً، حين هجا قومًا من بني حروث بن نخش. ينظر الكتاب ١: ٧٥.

(٢٨) الرجز لجران العود ديوانه ص ٥٢ والخزانة ٤: ١٩٧.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغُونَ﴾^(٢٩). قال الفراء: وأمّا «الصابغون» فإنه رفعه على أنه عطف على «الذين»، و«الذين» حرفٌ على جهة واحدةٍ في رفعه ونصبه وخفضه. فلما كان إعرابه واحداً، وكان نصب «إِنَّ» ضعيفاً - وضعفه أنه يقع على الاسم، ولا يقع على خبره - جاز رفع «الصابغين»، ولا أستحبُّ أن أقول: إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ وَزَيْدٌ قائمان لتبَيُّن الإعراب في «عبد الله»^(٣٠).

نجد أن البصريين وجَّهوا قراءاتهم على حذف الخبر، فجاءت «وملائكتُهُ» بالرفع، وهذا وجه صحيح تسلم فيه القاعدة النحوية، والمعنى موافق للإعراب ولا ضير في ذلك، وما ذهب إليه الكوفيون جاء على أصول النحو العربي، فقد اعتمدوا القياس في توجيههم، فالعطف على موضع اسم «إِنَّ» قويٌّ، فالرفع على الابتداء، وهذا قياس صحيح. وما ذهب إليه الكسائي في كلمة «الذين» في تفسيره وتوجيهه يُوقع الدارس في الإبهام، صحيح أنها مبنية، وإعرابها واحد، وعليه فقد جاز رفع لفظ «الصابغين».

المسألة الخامسة:

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٣١)، ف«هو» عماد عند سيبويه، وذكر ثعلب أن الكسائي وسيبويه قالا: «هو» من ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ عماد، فقال الفراء: هذا خطأ، من قبل أن العماد لا يدخل إلا على الموضع الذي يلي الأفعال، ويكون وقاية للفعل، مثل: إِنَّهُ قَامَ زَيْدٌ، ثم يستعمل بعد فيتقدّم ويتأخّر، والأصل في هذا مثل: إِنَّمَا قَامَ زَيْدٌ. فالعماد ك«ما». وليس مع ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ﴾ شيء يقية^(٣٢).

(٢٩) المائة: ٦٩.

(٣٠) معاني القرآن للفراء ١: ٣١١.

(٣١) الإخلاص: ١.

(٣٢) مجالس ثعلب ص ٤٢٢.

هذا الذي نسبه ثعلب لسيبويه بأنَّ «هو» عماد، أي ضمير الشأن أو ما يسميه البصريون ضمير الفصل ليس صحيحًا، فلم يُقَلَّ سيبويه هذا، بل إنَّه للمبرِّد (ت ٢٨٥هـ)، فقد ذكر الرَّجَاجِيَّ في مجالس العلماء: قال أبو العباس محمد بن يزيد، قوله **عَلَّ**: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فهذا مضمَّر على شريطة التفسير، كقولك: إنه أُمَّةٌ لله ذاهبة^(٣٣). وقد قال جماعة من النحويين والكسائي إنَّ «هو» ضمير شأن.

إنَّ ثعلبًا منع مجيء العماد في أول الكلام، من غير أن يسبقه «إنَّ» أو «كان» أو «ظنَّ» ونحوها، بحيث يكون العماد بعدها وقاية لها من الدخول على ما لا تدخل عليه. وهذا الأمر أجازه الكسائي من الكوفيين ووافقه المبرِّد من البصريين. والحقيقة أنَّ ثعلبًا لم يوضِّح رأيه في إعراب «هو»، وعند الرجوع إلى كتاب (معاني القرآن) للفراء نجد يقول: وهذا من صفاته أنه واحد أحد، وإن كان نكرة. قال أبو عبد الله يعني في اللفظ، فإنَّه مرفوع بالاستئناف كقوله: ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾^(٣٤). وقد قال الكسائي فيه قولاً لا أراه شيئاً. قال: هو عماد، مثل قوله: ﴿إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ﴾^(٣٥). فجعل «أحد» مرفوعاً، وجعل «هو» بمنزلة الهاء في «إنَّه»، ولا يكون العماد مستأنفاً به حتَّى يكون قبله «إنَّ» أو بعض أخواتها، أو كان أو الظنَّ^(٣٦).

فقد ذهب الفراء إلى أنَّ «هو» مبتدأ، و«الله» خبره، و«أحد» مستأنف، أي أنه قد يكون خبراً لمبتدأ محذوف، وهو هنا متفق مع سيبويه^(٣٧). والجمهور أجمعوا على إعراب «هو» مبتدأ، وليس ضمير شأن، وابتدأ بالضمير الذي لم يتقدَّم ذكره،

(٣٣) مجالس العلماء الزجاجي ص ١١٥ - ١١٦.

(٣٤) هود: ٧٢.

(٣٥) النمل: ٩.

(٣٦) معاني القرآن للفراء ٣: ٢٩٩.

(٣٧) مجالس العلماء للزجاجي ص ١١٦.

لأنَّ هذه السورة ثناء على الله تعالى، خالصة ليس فيها شيء من ذكر الدنيا، ونزلت جوابًا للمشركين حين سألو النبي ﷺ: أياكلُ رثك؟ أم يشربُ؟ أم من ذهبٍ أم من فضةٍ؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، ثم قالوا فما هو؟ فقال: أحد، وهذا من صفاته^(٣٨).

ولم يكن ثعلب متعصبًا للكوفيين، علمًا أنَّه رأس هذه المدرسة، فقد نراه منصفًا في مواقفه من بعض المسائل، منها: إعمال «ما» النافية عمل ليس، فهو يرى أنها عاملة عمل ليس، وبذلك يكون قد خالف شيخه الفراء وجمهور الكوفيين، وقال أبو العباس: قال أهل البصرة: ما عبدُ الله قائمًا، مشبه «ليس»، وإذا جاز ذا المعنى^(٣٩)، ردُّوه إلى الأصل، فقالوا: ما عبدُ الله إلا قائمٌ، وما قائمٌ عبدُ الله. هذا مذهبهم.

فأما: ما قائمًا، فليس يلزمهم. وأنشد الفراء:

قد سَوَّأَ النَّاسُ مَا يَا لَيْسَ بِأَسَ بِهِ وَأَصْبَحَ الدَّهْرُ ذُو الْعِرَيْنِ قَدْ جُدِعَا

فجعل «ليس» تقوم مقام التبرئة. هكذا ينشد الفراء. وهذا شاذٌّ، فشبّهوه بالشاذِّ، فهذه لغة الحجاز مشهورة، وبها نزل القرآن^(٤٠).

ما ذهب إليه الفراء ومعه الكوفيون قياس، فاحتجُّوا بأن قالوا إنَّ «ما» لا تعمل في الخبر، لأنَّ القياس في «ما» أمَّا لا تعمل البتَّة لأنَّ الحرف إنَّما يكون عاملاً إذا كان مختصًا كحرف الجرِّ لما اختصَّ بالأسماء عمل فيها. وهي مشتركة في الدخول على الأسماء والأفعال نحو: ما زيدٌ قائمٌ، وما يقومُ زيدٌ، وبهذه الحالة أهملت في لغة تميم. وهو القياس^(٤١).

(٣٨) معاني القرآن للفراء ٣: ٢٩٩.

(٣٩) والمقصود من هذه العبارة: (وإذا جاز هذا المعنى): وذلك بأن يقترن النفي بإلا، أو يتقدّم الخبر.

(٤٠) مجالس ثعلب ٤٢٢. ولم أعر على الشاهد في معاني القرآن.

(٤١) الإنصاف في مسائل الخلاف ص ٧٦ والمسألة (١٩).

وأما أهل الحجاز فقد أعملوها لأنهم شبهوها بـ«ليس» من جهة المعنى. واحتجوا بأن قالوا: الدليل على أن «ما» تنصب الخبر، وذلك أن «ما» أشبهت «ليس» فوجب أن تعمل عمل «ليس» وعمل «ليس» الرفع والنصب^(٤٢).

والحق ما ذهب إليه البصريون لأن «ما» شابهت «ليس» في المعنى، وهذه المشابهة اقتضت أن تعمل مثلها، وجاء في القرآن الكريم ما يثبت ذلك ويدحض دعوى الكوفيين. من ذلك قوله تعالى ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾^(٤٣)، وقوله: ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾^(٤٤).

المسألة السادسة:

ويذكر ثعلب مسألة خلافية أخرى في مجالسه وهي إعمال مبالغة اسم الفاعل، وينقل رأي شيخيه الكسائي والفراء اللذين يمنعان ذلك بحجة أن هذه الصيغ لا تتصرف، ولا تقوى صيغ المبالغة على العمل كالفعل، وأنشد ثعلب في مجالسه^(٤٥):

ثَقِيلٌ عَلَى مَنْ سَاسَهُ غَيْرَ أَنَّهُ رُكُومٌ عَلَى أَرِيهِ الرَّوْثِ مِثْلُ

وقال: لا يتعدى فَعُولٌ ولا مفعالٌ، وأهل البصرة يُعدُّونه. والفراء والكسائي يأيانه إلا من كلامين. وقال: رُكُومٌ يَرُكُمُ^(٤٦). ونقل ثعلب في موضع آخر: أنت زِيدًا ضَرُوبٌ، وقال: ياباه أصحابنا، لأنه لا يتصرف. ومثله مضرابٌ وضَرَابٌ أيضًا، وأهل البصرة يميزونه^(٤٧).

(٤٢) الإنصاف في مسائل الخلاف ص ٧٧.

(٤٣) يوسف : ٣٢.

(٤٤) المجادلة: ٢.

(٤٥) لسان العرب مادة (نثل). ومجالس ثعلب ص ١٥٠.

(٤٦) مجالس ثعلب ص ١٥٠. ورُكُومٌ يَرُكُمُ: أي ناب الفعل مناب رُكُوم صيغة المبالغة.

(٤٧) نفسه ص ٢٣٦. ومعنى قوله: لا يتصرف أي: لا يقوى على العمل كالفعل.

وحجّة الكوفيين في عدم إعمال «فَعُولٌ» و«مِفْعَالٌ» و«فَعَّالٌ» عمل الفعل في المنصوب ضَعْفُهَا عن أَنْ تعمل عَمَلَ الفعل، لذلك يقدِّرون فعلاً محذوفاً قبل الاسم المنصوب ليعمل فيه.

وفي المثالين اللذين جاء بهما ثعلب «أنت زَيْدًا ضُرُوبٌ». و«أنت ضروبٌ زيدًا» لم يجوز عمل «فَعُولٌ» صيغة المبالغة إلا بتقدير فعل محذوف يعمل في الاسم المنصوب سواء أكان متقدِّماً على صيغة المبالغة أم متأخراً عنها. وأجاز الفراء إعمال «فَعِلٌ» و«فَعَّالٌ» في الفعل وقصر ذلك على الشعر^(٤٨).

وأما البصريون فيجيزون إعمال صيغ مبالغة اسم الفاعل، فصيغة «فَعُولٌ» و«مِفْعَالٌ» و«فَعَّالٌ» يجوز فيها الإعمال قياساً على ما جاز في اسم الفاعل من التقديم والتأخير والإضمار والإظهار^(٤٩).

والتوجيه في هذه المسألة ما ذهب إليه البصريون لأنهم اعتمدوا المعنى وتماه في الإعراب أولاً، وثانياً أخذهم بالقاعدة النحوية وثالثاً قياسهم على كلام العرب. فعندما أعربنا «زيداً» مفعولاً به لمبالغة اسم الفاعل، وقع عمل المبالغة على زيد. وقد ذكر سيوييه من كلام العرب ثلاثة عشر شاهداً شعرياً، وستة شواهد نثرية على إعمال صيغ مبالغة اسم الفاعل عمل فعلها، وسأكتفي بشاهدين اثنين من الشعر وآخرين من النثر وأوجِّهُهُمَا، قال أبو طالب بن عبد المطلب^(٥٠):

ضُرُوبٌ بِنَصْلِ السَّيْفِ سُوْقٍ سِمَانِهَا إِذَا عَدِمُوا زَادًا فَإِنَّكَ عَاقِرٌ

(٤٨) معاني القرآن للفراء ٣: ٢٢٨.

(٤٩) الكتاب ١: ١١٠-١١٢ وينظر أصول النحو لابن السراج ١: ١٢٤، والمقتضب ٢: ١١٤.

(٥٠) ديوان أبو طالب بن عبد المطلب الورقة ١١ وذكره ابن الشجري ٢: ١٠٦ والخزانة ٣:

٤٤٦. وهو يرثي أبا أمية بن المغيرة وكان زوج أخته عاتكة بنت عبد المطلب. ونصل

السيف: شفرته. وعدموا: افتقروا.

وقال القلاخ^(٥١):

أخا الحرب لباسًا إليها جلالها وليس يولّج الخوالف أَعْقَلًا
وسمعنا من يقول: «أما العسل فأنا شرّاب»، وقال: إنّه لمنحازٌ بوائِكها»^(٥٢).

ف«العسل»، و«بوائِكها» و«سوق» و«جلالها» هذه معمولات لمبالغة اسم الفاعل، وهي مفعول به أعربت بناءً على صحة المعنى واستقامة الكلام وعلى السماع والقياس معًا في أصول النحو، وليس في النحو ما يمنع ذلك بل هو ما يوافق القاعدة النحوية، وبعيد عما ذهب إليه الكوفيون.

وقال ثعلب: ضَرَيْتُكَ إِيَّاكَ، وَضَرَيْتُكَ أَنْتَ، يجعلون المرفوع مثل التوكيد والعماد، والتوكيد لا يكون أَوَّلَ الكلام. وأهل البصرة يقولون: ضَرَيْتُكَ إِيَّاكَ بدل، ونحن نقول: هما توكيد. ويقولون: رأيتُكَ أَنْتَ، ومررتُ بك أَنْتَ، صحيحٌ على ما فسّرنا. قال: وما رأيتُ كإيّاكَ، لم يجيء إلا في الشعر. وأنشد^(٥٣):

فأحسِنْ وأجملْ في أسيرِكَ إنّه ضَعيفٌ ولم يأسِرْ كإيّاكَ أسِرْ

وقال ثعلب في مجالسه: «مَنْ ضَرَيْتُكَ إِيَّاكَ». قال: أهل البصرة يقولون: ضَرَيْتُكَ إِيَّاكَ بدل، ضَرَيْتُكَ أَنْتَ تأكيد، وهما جميعًا تأكيد. وقولهم: بدل خطأ، لأنّ البدل يقوم مقام الشيء، وهذا لا يقوم مقامه، لأنه لا يقع الثاني موقع الأول^(٥٤).

(٥١) الكتاب ١: ١١١. والبيت للقلاخ بن حزن بن جناب. وأخو الحرب: الملازم لها والمستعدّ. والجلال جمع جُل بالضم. وهو ما يُلبس فجعله لما يلبس المحارب. والخوالف: جمع خالفه. وهي عمود في آخر البيت. والأعقل: الذي تصطك ركبتاه في المشي ضعفًا أو خلقة.

(٥٢) الكتاب ١: ١١٢.

(٥٣) مجالس ثعلب ١٦١. وما رأيت كإيّاكَ ضرورة شعرية، والشاهد لم يعرف قائله.

(٥٤) نفسه ٦٢٥.

إنَّ مذهب الإمام ثعلب في هذه المسألة يوافق البصريين في التوكيد ويخالفهم في البدل، فليس الضمير المنفصل في: رأيتُهُ إيَّاهُ، ولا رأيتُكَ إيَّاكَ بدلاً، وإنما هو توكيد أيضاً، لأنَّ البدل يلزم منه أن يقوم مقام الأول، و«إيَّاكَ» لا يقع موقع الكاف، ووافق ابن مالك (ت ٦٧٢هـ) وعَلَّلَ ذلك بأن نسبة المنصوب المنفصل من المنصوب المتصل في نحو: رأيتُكَ إيَّاكَ كنسبة المرفوع المنفصل من المرفوع المتصل في نحو: فَعَلْتَ أنتَ^(٥٥). ونحن نعلم أنَّ سيبويه والبصريين معه أجازوا إعراب «أنتَ» في «فَعَلْتَ أنتَ» توكيداً وبدلاً^(٥٦).

ويظهر أنَّ المعنى في «ضربتُكَ أنتَ» و«ضربتُكَ إيَّاكَ» واحد، ففي كلِّ منهما تكرير للأول بمعناه لا بلفظه، فالأولى أن يكون كلاهما تأكيداً لاتحاد المعنيين^(٥٧). وأن يمنع بدل المضمَر من المضمَر توحيداً للقاعدة النحوية ومنعاً للتداخل بين أبواب النحو، وهذا ما فعله ابن مالك^(٥٨).

وأما رأي البصريين في هذه المسألة فهو على النحو الآتي:

يجوز أن يكون ضمير الرفع المنفصل توكيداً أو بدلاً من الضمير المتصل المرفوع قبله، نحو: قُمتَ أنتَ. ويمكن أيضاً أن يكون ضمير الرفع المنفصل توكيداً للضمير المتصل قبله سواء أكان منصوباً أم مجروراً، نحو: رأيتُكَ أنتَ، أو مررتُ بِكَ أنتَ، قال سيبويه في (باب ما تكون فيه أنت وأنا ونحنُ وهُوَ: وصفاً): اعلم أنَّ هذه الحروف كلها تكون للمجرور، والمرفوع والمنصوب المضمَرين، وذلك قولك: مررتُ بِكَ أنتَ، ورأيتُكَ أنتَ، وانطلقتَ أنتَ^(٥٩).

(٥٥) شرح التسهيل ٣: ٣٠٥.

(٥٦) الكتاب ٢: ٣٨٥ - ٣٨٦.

(٥٧) شرح الكافية ١: ٣٣٢.

(٥٨) شرح التسهيل ٣: ٣٠٥.

(٥٩) الكتاب ١: ٣٨٥.

وقال سيبويه أيضاً: واعلم أنّ هذه الحروف لا تكون وصفاً للمظهر، كراهية أن يصفوا المظهر بالمضمر، كما كرهوا أن يكون «أجمعون ونفسه» معطوفاً على النكرة في قولهم: مررتُ برجلٍ نفسه، ومررتُ بقومٍ أجمعين، وإن أردت أن تجعل مضمرًا بدلاً من مضمر، قلت: رأيتُك إِيَّاكَ، ورأيتُهُ إِيَّاهُ. فإن أردت أن تُبدل من المرفوع قلت: فَعَلْتَ أنتَ وفَعَلَ هُوَ. ف«أنتَ، وهُوَ» وأخواتهما نظائر إِيَّاه في النصب^(٦٠).

إذا كان في المسألة رأي فالرأي ما ذهب إليه ثعلب في إعراب الضمير المنفصل في: رأيتُك إِيَّاكَ توكيداً لا بدلاً، وهذا ما صرح به ابن مالك، فقد جاء إعرابهما موافقاً المعنى ومطابقاً القاعدة النحوية ولم يخرمها، ويخرج عليها، والتعليل في ذلك أنّ نسبة المنصوب المنفصل من المنصوب المتصل في نحو: رأيتُك إِيَّاكَ كنسبة المرفوع المنفصل من المرفوع المتصل في نحو: فَعَلْتَ أنتَ.

المسألة السابعة:

ويعرض الإمام ثعلب لمسألة نصب «جفن» في قول الشاعر^(٦١):

نَجَا سَالِمٌ وَالتَّنْفُسُ مِنْهُ بِشِدْقِهِ وَلَمْ يَنْجُ إِلَّا جَفْنَ سَيْفٍ وَمِئْرَا

قال: وقال الفراء: هكذا أنشدني يونس، أي بنصب «جفن»، فقلت له: لم نصب «الجفن» فقال: أراد سَيْفَ. قال أبو العباس: قال الفراء: هذا خطأ^(٦٢).

ما ذهب إليه يونس بن حبيب (ت ١٨٢هـ) في نصب «جفن» على طرح الخافض، والتقدير: بجفن سيف. وقد تابعه ابن سيده الأندلسي (ت ٤٧٦هـ) في (المخصص)^(٦٣). وتابعه ابن السراج في (الأصول في النحو)، فقال: نجا ولم ينج،

(٦٠) الكتاب ١: ٣٨٦.

(٦١) أشعار الهذليين للسكري ص ٢٣١.

(٦٢) مجالس ثعلب ص ٥٢٤.

(٦٣) المخصص لابن سيده ١٢: ١٣١ واللسان مادة (جفن).

كقولك: أَفَلَتَ ولم يُفَلِتْ، أي: لم يفلت إفلاتًا صحيحًا، كقولك: تَكَلَّمْتُ ولم أتكلّم، ثم قال: إلّا جفن سيف ومئزرا، كأنّه قال: لكن جفن سيفٍ ومئزرا^(٦٤).
وأما مذهب الكوفيين فيعتمد السماع أساسًا في هذه المسألة، فلا يميز ثعلب والفراء نصب «جفن» على نزع الخافض، ورأيهما هذا كراي جمهور النحاة، الذين ذهبوا إلى أنّ ذلك مقصور على السماع، ولا يطرّد الاستغناء إلّا عن حرف الجرّ المتعيّن مع «أنّ» و«أنّ»^(٦٥). وعلى أيّة حال فإنّ إعراب «جفن» على مذهب البصريين منصوب بنزع الخافض، أو مفعول به إذا جاءت لكن حرف استدراك، في حين أعربه الكسائيّ منصوبًا على الاستثناء. ولم يوضّح ثعلب إعراب «جفن» بل إنّه نقل قول الفراء.

المسألة الثامنة:

ويأتي الإمام ثعلب إلى مسألة: يا أَيُّهَا الرَّجُلُ، ويا أَيُّهَا القَوْمُ، ويا أَيُّهَا المرأَةُ، ويا أَيُّهَا المرأَةُ، فيذكر رأي إمامي البصريين قال: وقال الخليل وسيبويه وأصحابهما: يا تنبيه، وها تنبيه، و«أيُّ» المنادى، والرجل وما بعدها وصف لازم. قال: وهذا لا يصحّ. قال الفراء الدليل على أنّه ليس كما قالوا أنّه يُقال: يا أَيُّهَا. أقبل، فيسقط الثاني الذي زعم أنّه وصف لازم. ولكن قال الفراء: قولهم يا أَيُّهَا اكتفوا بالرجل من ذا، و«ذا» من الرجل، ويجمعون بينهما، فيقولون: يا أَيُّهَا الرجل. وأنشد^(٦٦):

أَيُّهَذَا كُؤَالًا زَادُكُمْ
وَدَرَانِي وَاغِيًّا فَيَمَنْ يَغِلُّ

(٦٤) الأصول في النحو لابن السراج ١: ٢٩١.

(٦٥) الكتاب ٣: ١٢٦-١٢٧ ومعاني القرآن ٢: ٢٢٢ و٣١٤.

(٦٦) شرح التسهيل ٣: ٣٩٩ وجمع الهوامع ٣: ٥٠.

فجاء بـ«هذا» وأسقط «الرجل». وتأويله يا «أيُّ» ثم لم يعرف ما بعده فقال: هو هذا الرجل، فاستأنف به، فلذلك قالوا: يا أيُّها الرَّجُلُ ذو المالِ، فردُّوا ذا المالِ على الرَّجُلِ^(٦٧).

وفي موضع آخر ذكر الإمام ثعلب المسألة نفسها وهي، إذا قال: يا رجُلُ، فقد قَصَدَ قَصْدَهُ مثل: يا زيدُ. وإذا قال: يا أيُّها الرَّجُلُ، اختلف الناس فيه، فقال سيبويه وأصحابه: الرَّجُلُ تابع لـ«أيُّ»، وخطأه الفراء: قال: هو يا أيُّ هذا الرَّجُلُ أراد: يا أيُّ هو هذا الرَّجُلُ، كذا هو عند الفراء وسيبويه يقول: فيه تنبيه في موضعين: يا، وهما. وهذا باطل^(٦٨).

رأي البصريين أن «أيُّ» اسم مبهم يلزمه التفسير، وذلك بأن يأتي بعدها اسم معرّف بأل كالرجل ونحوه من الأجناس، فتكون «أيُّ» والرجل كاسم واحد، ويعربون «أيُّ» منادى و«الرجل» تابع له، لا يجوز أن يفارقه^(٦٩). وأجاز البصريون أن يلي «أيُّ» اسم الإشارة، واشتروا أن يليه الاسم المحلّي بأل، نحو: يا أيُّهذا الرَّجُلُ^(٧٠).

وافق الإمام ثعلب شيخه الفراء في كون «الرجل» ليس وصفاً لازماً لـ«أيُّ»، وأنّ الأصل في «يا أيُّها الرَّجُلُ» يا أيُّهذا الرَّجُلُ، على أنّ «هذا الرَّجُلُ» مستأنفة، وقد يسقط اسم الإشارة «ذا» وتبقى الهاء دليلاً عليه، فيقال: يا أيُّها الرجل، وقد تسقط «الرجل» ويبقى اسم الإشارة «يا أيُّهذا». ولكن لا يجوز أن تسقط الهاء فيقال: يا أيُّ الرجل، لأنّها جزء من اسم الإشارة المستغنى عنه بـ«الرجل»، وحجّة الكوفيين في

(٦٧) مجالس ثعلب ص ٥٢.

(٦٨) نفسه ص ٦٥٤.

(٦٩) الكتاب ٢: ١٨٨ - ١٨٩ والأصول ١: ٣٣٧.

(٧٠) نفسه ٢: ٩٣.

ذلك هي: كثرة الجمع بين اسم الإشارة وذو الألف واللام، نحو: يا أيُّهَذَا الرَّجُلُ^(٧١)، يدل على أَنَّ الهاء جزء من اسم الإشارة. فالكوفيون يعربون «أيَّ» منادى، وما بعدها جملة مستأنفة حُذِفَ صدرها. وَيُضَعَفُ قولهم تقدير حذف اسم الإشارة، ومنعهم الجمع بين تنبيهين لتأكيد التنبيه كما يقول البصريون^(٧٢)، في الوقت الذي أجازوا فيه الجمع بين جحدين^(٧٣).

المسألة التاسعة:

وذكر ثعلب مسألة نحوية تكلم فيها على قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ إِذْ كَانَ عِنْدِي ثَلَاثَةٌ أَثْوَابٍ فَمَعَ الثَّلَاثَةَ أَثْوَابٍ﴾، يقال: ثَلَاثَةٌ أَثْوَابٍ، وَثَلَاثَةٌ أَثْوَابًا، وَثَلَاثَةٌ أَثْوَابٌ، وَتُقَدَّمُ، فيقال: عِنْدِي أَثْوَابٌ ثَلَاثَةٌ. هكذا الأصل. واكتفوا بالثنوية بلا عدد، فقالوا: عِنْدِي دِرْهَمَانٍ، لِأَنَّ الاثْنَيْنِ لَا يَخْتَلِفَانِ. فَإِنْ جِئْتَ مَعَهُمَا بِاثْنَيْنِ كَانَ وَاحِدًا، فَقُلْتَ: عِنْدِي دِرْهَمَانِ اثْنَانِ. فَجَاؤُوا بِهِ عَلَى الْأَصْلِ. وَقَالَ الْأَخْفَشُ: جَاؤُوا بِهِ تَوْكِيدًا. وَلَيْسَ بِشَيْءٍ^(٧٥).

ما ذكره ثعلب في آخر المسألة هو رأي الأخفش ورد في معانيه عندما وجَّه قوله تعالى توجيهاً نحويًا: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾^(٧٦)، فجاء بقوله «جميعًا» توكيدًا، كما قال ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ إِذْ كَانَ عِنْدِي ثَلَاثَةٌ أَثْوَابٍ﴾^(٧٧)، ففي قوله «إلهين» دليل على

(٧١) شرح التسهيل ٣: ٣٩٩.

(٧٢) إعراب القرآن للنحاس ٤٣٠ ومعاني القرآن للزجاج ١: ٩٩.

(٧٣) المقتضب ٤: ٢١٩.

(٧٤) النحل: ٥١.

(٧٥) مجالس ثعلب ص ٦٥٢.

(٧٦) يونس: ٩٩.

(٧٧) النحل: ٥١.

«الاثنين»^(٧٨). فالأخفش يرى أن «اثنين» وصف مؤكّد لما قبله^(٧٩).

يظهر لي جلياً أنّ ثعلباً قصد من عبارته: (واكتفوا بالثنوية بلا عدد، فقالوا: عندي درهماً، لأنّ الاثنين لا يختلفان، فإن جئت معهما باثنين كان واحداً) أنّ الأصل عنده: لا تتخذوا اثنين إلهين، فيكون إعراب «اثنين» مفعولاً به أوّل، ولكنه تأخر، و«إلهين» مفعولاً به ثانياً.

والحقّ ما ذهب إليه الأخفش من البصريين، وما عناه ثعلب ليس بشيء لأنّه بعيد في المعنى، مغرب في الإعراب، ويظهر لي رجحان رأي الأخفش لأنّ «اثنين» جاءت بعد تمام الكلام، فجاءت تأكيداً لإلهين التي دلّت على العدد والمعدود معاً.

منهج الإمام ثعلب في الردّ على البصريين:

يمتاز هذا النحوي البارع بالحكمة والقصد في إطلاق أحكامه، فليس عنيماً في ردّه أبداً، بل كانت هذه الردود صادرة عن فهم للمسائل، وقد لا يذكر رأيه أحياناً، بل إنه ينقل ما قاله شيخاه الكسائيّ والفراء، وإذا ما اختلف هذان في رأيٍ ما وجدناه يتبع الفراء، ومن عباراته التي استعملها في دفاعه عن الكوفيين وانتصاره لهم قوله: هذا غلط، وهذا باطل، وهو خطأ، لا يصحّ، وليس بشيء^(٨٠). وفي مسألة التقريب ردّ على سيبويه قائلاً: إنّه لا يعرف التقريب^(٨١).

ومنهج ثعلب في البحث والردّ كان يعتمد على: السماع والقياس والتعليل، وسأعرض لها بإيجاز:

(٧٨) معاني القرآن للأخفش ١: ٣٧٨.

(٧٩) معاني القرآن للزجاج ٣: ٢٠٤ وارتشاف الضرب لأبي حيان ص ١٩٢٦.

(٨٠) مجالس ثعلب ٥٢، ٥٤، ٤٢٢، ٣٣٠.

(٨١) المصدر نفسه ص ٥٢ - ٥٤.

١- السماع: استعمل ثعلب الشاهد القرآني أساساً في توضيح مسأله، وكان رجلاً ديناً يحترم القراءات القرآنية ويقف منها موقفاً موافقاً بخلاف بعض البصريين كالمازني مثلاً، ففي قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٨٢)، أتى بالشاهد هنا ليوضح رأي سيبويه في أنّ «هو» عماد^(٨٣)، وذكر قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾^(٨٤)، ليكون محور المسألة التي ردّ فيها رأي البصريين وعلى رأسهم الأخفش في كون اثنين توكيداً^(٨٥). وجاء بقراءة ﴿هُؤَلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾^(٨٦). ليبين قلة علم البصريين التي أدّت بهم إلى الحكم على القراءة باللحن، ولو عرفوا التقريب ما فعلوا ذلك. والحقُّ يُقال أنّ ثعلباً كان ينتقي الشواهد القرآنية التي تُكوّن المسألة النحوية ويتعرّض لموضع الاستشهاد دون التعرّض للتفصيلات الكثيرة، ولا يكثر من أوجه الإعراب، وموقفه من القراءات تُظهر احترامه وإجلاله وتقديره الشديد للقراءات القرآنية. ولم ألاحظ اهتمامه بالحديث النبوي الشريف في ردّه على البصريين، ولا يعني هذا أنّه لم يستشهد بالحديث الشريف، لكنّ استشهاده به كان قليلاً قياساً بالشواهد القرآنية. وفيما يخصّ الشواهد الشعرية، كان يسوق الشاهد ليوضح به الرأي الذي يريد بيانه واعتماده، وهذا ما رأيناه في قول الشاعر^(٨٧):

(٨٢) الإخلاص: ١.

(٨٣) مجالس ثعلب ص ٤٢٢.

(٨٤) النحل: ٥١. قال أبو إسحاق: فذكر اثنين توكيداً كما ذكر واحداً توكيداً في قوله: ﴿إِنَّمَا هُوَ

إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الأنعام: ١٩]. إعراب القرآن للنحاس تحقيق زهير غازي زاهد ص ٤٨٠.

(٨٥) إعراب القرآن ص ٤٨٠.

(٨٦) هود: ٧٨.

(٨٧) مجالس ثعلب ٥١٣.

يا صاح يا ذا الضامرِ العنْسِ والرَّحْلِ ذِي الأَقْتَابِ والحِلْسِ

جاء به ليخطئ سيبويه في رواية رفع «الضامر». وساق الشاهد الشعري^(٨٨) ليغلط به المازني:

فكفى به فضلاً على مَنْ غيرُنَا حُبُّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ إِيَّانَا

واستشهد ثعلب بكلام العرب ليدعم رأيه فقد كان ينقل عن الكسائي كثيرًا وعن سماعه فقال: مررتُ بأبياتٍ جادَ بهنَّ أبياتًا، وجادَ أبياتًا، وجُدُنَ أبياتًا^(٨٩)... ليستدل بهذه الشواهد على جواز دخول الباء على فاعل كل فعل ماضٍ ثلاثي محوّل إلى فعل دالٌّ على مدحٍ أو ذمٍّ خاص مشرب معنى التعجب.

وهنا وجدت شيئًا لم أكن لأنساه وهو أنَّ ثعلبًا وافق أصحابه في منع إعمال صيغ المبالغة علمًا أنَّ هذا العمل لصيغ المبالغة من المسموع بكثرة عن العرب في إعمالها، فهو بذلك يخرم قواعد الكوفيين حرماً بالغًا؛ ويخالف منهجهم العام في التوجيه النحوي وذلك بالاستشهاد بالقليل والنادر.

٢- القياس: لم يكن ثعلب قياسًا، فهو الابن البار لمذهبه النحوي، فقد كان دائم الاعتداد بالسماع، وتمسك بالنصوص شعراً ونثرًا، وبنى القاعدة النحوية على المسموع عن العرب، وإن كان قليلاً، فهو يقيس، من ذلك: التعجب من الفعل المبني لما لم يُسمَّ فاعله، وهذا قياس، وإن كان المسموع قليلاً نادرًا، وذلك إذا كان لمدح أو ذم^(٩٠).

ومثال آخر ساقه قياسًا وهو جواز دخول الباء على فاعل «نعم» و«بئس» وغيرها من الأفعال الثلاثية الماضية المحوّلة إلى فعل دالٌّ على مدحٍ أو ذمٍّ، نحو: جاد

(٨٨) مجالس ثعلب ص ٣٣٠.

(٨٩) نفسه ٣٢٩.

(٩٠) نفسه ٣٣٠.

بثوبك ثوبًا. وطاب بطعامك طعامًا^(٩١).

ويؤكد قياسه عندما دحض رأي ابن جويّة معاصره حين قرأ: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾^(٩٢) وجعله حالاً يعني أظهر، يقول ثعلب: وليس هو كما قالوا، هو خبر لهذا كما كان في كان^(٩٣). وقال ثعلب موضحاً قياسه: إذا جاؤوا مع «هذا» بالألف واللام كانت الألف واللام نعتاً لهذا، فقالوا: هذا الرَّجُلُ قائمٌ. وقد أجاز أهل البصرة إذا كان معهوداً أن ينصب الفعل، وقد أجاز بعض النحويين، والفراء يأباه، وإنما نعتوا هذا بالأسماء فقالوا: مررتُ بهذا الرَّجُلِ، ورأيتُ هذا الرَّجُلَ، فجعلوه تابعاً لهذا، لأنّه يكون بين يدي الرجل أجناس فلا يدري إلى أيّها أشرت^(٩٤).

ومن كلياته التي تعبر عن صورة القياس عنده، قوله: «إذا أضفت الأوقات إلى مرفوع فارفع، وإلى منصوب فانصب، ويجوز ذا في ذا، وذا في ذا»^(٩٥).

ويمكن أن أقول: إنّ ثعلباً صورة أمينة تُظهر آراء الذين سبقوه، وما كتاباته إلا سجل يستوعب فيه آراءهم، وتكثر الآراء الزاحرة في مجالسه تحكي صور الخلاف بين الكوفيين والبصريين، وهو ناقل لهذه الآراء معلق عليها بما يشير إلى التزامه منهج الكوفيين في القياس، وكيف سار على دربهم لا يحيد، ويرى آراءهم أعلاماً نصبت أمام عينيه، ولا يمكن تجاوزها.

الخاتمة:

وصفوة القول أن مجالس ثعلب تحوي ثروة نحوية كبيرة، فكان لرئاسته مذهب

(٩١) نفسه ٣٣٠.

(٩٢) هود: ٧٨.

(٩٣) مجالس ثعلب ص ٥٣.

(٩٤) نفسه ص ٥٤.

(٩٥) نفسه ص ٥٥.

الكوفيين أثر واضح في الكتاب يتجلى بهذه الكثرة من المسائل النحوية التي عالجها وفصل القول فيها، موردًا رأيه ورأي شيوخه الكوفيين، واستعمل الشواهد القرآنية بكثرة وكلام العرب شعرًا ونثرًا، فكان أمينًا بنقله وفيًا لأستاذه الكسائيّ والفراء، فإن اختلفا أتبع الفراء، وقد يخالفهما أحيانًا، وهذه المجالس فيها مصطلحات كوفية كثيرة، وتعليقات مبسطة تدل على عقلية ثعلب النحوي المصرّف لما يعرض له من أساليب تصريف العالم المتمكّن الثبّت.

المصادر والمراجع

- الأسترابادي، رضي الدين محمد بن الحسن (ت ٦٨٨هـ): شرح الكافية في النحو، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- الأخفش الأوسط، سعيد بن مسعدة (ت ٢١٤هـ): معاني القرآن، تحقيق: فائز فارس، الكويت، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- الأنباري، أبو البركات (ت ٥٧٧هـ): الإنصاف في مسائل الخلاف، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م.
- أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف الغرناطي، (ت ٧٤٥هـ): البحر المحيط، تحقيق: عادل عبد الموجود وآخرون، دار السعادة، مصر، ١٣٢٠هـ.
- البغدادي، عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب ولبّ لسان العرب (ت ١٠٩٣هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
- ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى (ت ٢٩١هـ): مجالس ثعلب، تحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ١٩٤٨م.
- الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر (ت ٢٥٥هـ): البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان (ت ٣٩٢هـ): الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٢م.

- ابن جنّي، أبو الفتح عثمان (ت ٣٩٢هـ): المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تحقيق: علي النجدي ناصف ود. عبد الحلّيم النجار، ود. عبد الفتاح شليبي، القاهرة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.
- ديوان الأعشى الكبير، ميمون بن قيس: شرح الدكتور محمد محمد حسين، مكتبة كلية الآداب، القاهرة، ١٩٥٠م.
- ديوان أمية بن أبي الصلت: تحقيق بحجة عبد الغفور الحدّثي، مطبوعات وزارة الإعلام العراقية، بغداد، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
- ديوان جرّان العود الثميري، دار الكتب المصرية، ١٣٥٠هـ.
- ديوان عنتر بن شدّاد، تحقيق: عبد المنعم عبد الرؤوف شليبي، المكتبة التجارية، القاهرة، د.ت. وتحقيق: محمد سعيد مولوي، دمشق، المكتب الإسلامي، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.
- الزبيدي، محمد بن الحسن (ت ٣٧٩هـ): طبقات النحويين واللغويين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ومحمد علي البحايي، الحلبي الباني، القاهرة، الطبعة الثانية، د.ت.
- الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم بن السريّ (ت ٣١١هـ): إعراب القرآن ومعانيه، تحقيق: إبراهيم الأبياري، المؤسسة المصرية العامة للنشر والتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٣م.
- الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق (ت ٣٣٧هـ) مجالس العلماء، تحقيق: عبد السلام هارون، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، ١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م.
- السكري، أبو سعيد: أشعار الهذليين، تحقيق عبد الستار فراج، مراجعة محمود محمد شاكر، دار العروبة، القاهرة، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م.
- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت ١٨٠هـ): الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- ابن السراج، أبو بكر محمد بن سهل (ت ٣١٦هـ): الأصول في النحو، تحقيق: د. عبد الحسين القتلي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- ابن السيراني: شرح أبيات سيبويه، تحقيق: د. محمد علي سلطاني، مطبوعات مجمع اللغة العربية، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ): **همع الهوامع شرح جمع الجوامع في علم العربية**، عُني بتصحيحه محمد بدر الدين النعساني، مطبعة دار السعادة، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٣٢٧هـ.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ): **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مصطفى الحلبي البابي، القاهرة، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.
- الفراء، أبو بكر زكريا يحيى بن زياد (ت ٢٠٧هـ): **معاني القرآن**: تحقيق محمد علي التنجار، وأحمد يوسف نجاتي، دار الكتب المصرية، ١٩٥٥م.
- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٧٧٠هـ): **تأويل مشكل القرآن**، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.
- المالقي أحمد بن عبد النور: **رصف المباني في شروح حروف المعاني**، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دمشق، الطبعة الثانية، دار القلم، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- ابن مالك، محمد بن عبد الله (ت ٦٧٢هـ): **شرح التسهيل**، تحقيق: عبد الرحمن السيد، ومحمد بدوي المختون، هجر، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٥هـ): **المقتضب**، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٣٨٥هـ.
- ابن منظور، محمد بن منظور (ت ٧١١هـ): **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ١٩٨٥م.
- النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل (ت ٣٨٨هـ): **إعراب القرآن**، تحقيق: د. زهير غازي زاهد، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
- ابن النديم (ت ٣٨٥هـ): **الفهرست**، القاهرة، د.ت.
- ابن يعيش، موفّق الدين محمد بن يعيش بن علي (ت ٦٤٣هـ): **شرح المفصل**، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

المقالات والآراء

هُويتي الشعرية

سليمان العيسى (*)

الشعر.. هذا الكائن الغريب الذي لم تستطع البحوث والدراسات أن تضع له تعريفاً يطمئن هو، أو نطمئن نحن، إليه حتى الساعة. إنه ما يزال يستعصي على التعريف، ويرفض كل إطار محدد يوضع فيه. ولكنه سيظل أبداً - في رأيي - يحمل دقات قلب صاحبه، وتنفسه الطبيعي، وحتى لون عينيه.

في الوقت نفسه يرفض الشعر أن يستجيب لدعوتنا حين ندعوه.

لكنم حاولت أن أجلس إلى مكتبي، وأفكر في موضوع معين، علني أستطيع أن أكتب عنه قصيدة أو حتى بضعة أبيات.

ولكن قلبي لم يكن يسعني بما أريد.

ولكنم أعجبت بأولئك الباحثين الذين يحددون لأنفسهم موضوعاً للدراسة في أي وقت يشاءون، ثم ينكبون على جمع المعلومات عنه حتى يستكملوها، ويدؤون بعد ذلك في تحرير دراستهم خطوة خطوة بدأب وانتظام.

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

لم لا أستطيع - أنا الشاعر - أن أفعل مثلهم ؟
 سيكون ذلك لأنني اخترت الشعر، وأثرته على الدراسة الأكاديمية...
 أو لأن طبيعتي قادتني إلى هذا، وليس إلى تلك ؟
 أكون منغمساً في أمور الحياة أحياناً. وفجأة.. أحس هاجساً يُلحُّ عليّ، ويجعلني
 أبتعد عنها، وأنساق إلى هاجسي الخاص حتى أملاً نفسي به.
 وتبدأ القصيدة، أو الأبيات الشعرية، تنثال على أصابعي وورقي حتى أنتهي منها،
 وأنتقل بعد ذلك إلى تأمل السطور السوداء التي كتبتها ومراجعتها، والتدقيق فيها،
 وإجراء بعض التصحيحات، أو تعديل بعض الكلمات والتعابير، حتى أرضى عنها،
 وأضعها جانباً.

الشعر يفرض نفسه..

والقصيدة تحاصر شاعرها حتى يكتبها

وهي قطعة منه، أو صورة لذاته التي تعتمل فيها عوامل كثيرة تشكل مجموعها
 هوية الشاعر. أتراني مخطئاً حين قلت مرة:

لست أنا الذي أكتب القصيدة، وإنما هي التي تكتبني ؟

لقد حاولت منذ أمد بعيد أن أجسّد عملية ولادة القصيدة وتحققها في قطعة
 شعرية أعطيها عنوان «مولد القصيدة» أقول فيها على لسان القصيدة نفسها:

أومضُ في الأعماق لمحّ الشهابِ	في شارعٍ، في هدأةٍ، في اصطخابِ
أومضُ وخرز البرق في رأسه	أتركه، أمضي وراء السحابِ
يظنُّني ضعفٌ.. يلثمُّ الرؤى	ينسى يدًا دقت بقلب الضبابِ
وينطوي يومٌ، وعامٌ، فما	للعمرِ، للتاريخِ عندي حسابِ

وبغتةً ينفضُ عن جفنه شيئاً كما رفَّ جناحاً عُقابُ
 كما هوت فوق الثرى قطرةً من غيمةٍ مجهولة، من سرابِ
 وَهْمٌ.. أعادت؟ إنه صوتها أعرُفه، يهمس خلف الحجابِ
 يشتدُّ، يجتاح بلا موعدٍ بلا صدى، يُذرني بالعقابِ
 يُضيءُ بالذكرى، يصبُّ السما في شفتي غمغمةً من ربابِ
 يا للصِّراعِ الحلو.. ما بيننا! أرهقته.. ما زلتُ حتى استجابِ

الشعر مرآة لذات الشاعر فيما هو عميق فيها، وما هو طارئ، فيما هو أساسي، وما هو ثانوي.

وهي في جميع الأحوال تتطور ككرة الثلج التي تتدحرج في طريقها، فتتقص أو تزيد، ولكن مركز الثقل فيها يبقى الدعامة التي تحدد مسيرتها طول الحياة. والآن.. ما الخيوط الأساسية في نسيج ذاتي الشاعرة التي يمكن أن تؤلف ما نسميه هوية الشاعر، أو طعمه، أو نكهته التي يعرف بها ؟
 إنها أولاً طفولتي..

طفولتي في القرية، على ضفاف نهر العاصي..

وفي بيت والدي الشيخ أحمد بالذات.

لشدَّ ما شدني هذا الخيط، وظهر في نتاجي الشعري:

دراستي في مكتب الشيخ أحمد..

حفظي للقرآن الكريم وأنا في السابعة..

وبعدئذ.. للمعلقات، والمتنبي، ومئات القصائد القديمة والحديثة..

وتمكُّني من العربية الفصحى..

كل ذلك أعطى شعري هذا الطابع العربي الذي ظل على امتداد العمر مركز الثقل.. بالرغم من اطلاعي فيما بعد على الآداب الأجنبية، وحفظي وترجماتي للكثير من روائعها.

تلك الطفولة الغنية ثقافيًا كانت فقيرة مادياً، إلى الحد الذي جعل والدي يتأخر في إرسالني إلى المدرسة الابتدائية الوحيدة التي كانت في المدينة حتى الرابعة عشرة من عمري.

* * *

لقد حَزَّ في نفسي منذ الصغر أن أرى أهلي وأقرانهم من الفلاحين يكُدُّون، ويتعبون في العمل الزراعي ولا يجنون منه إلا القليل، على حين ينعم آغا القرية بحياة هادئة، في بيته الجميل، بأعلى الجبل، ويأتي في نهاية الموسم لتحصيل جل ما أعطته الأرض.

هذا الرفض للظلم والاستغلال سجلته في الأبيات الأولى التي كتبتها في طفولتي، كما في هذين البيتين الساخرين:

ألا يا أيها الفقراء موتوا لكم في جنة الفردوس قوت
لقد بُنيت لكم ثَمَّ البيوت وكوثرتم بها يجري شهيا

وظل هذا الرفض يشكّل جزءاً لا يتجزأ من ذاتي حتى الآن، ويملي عليّ عشرات القصائد، ومئات الأبيات التي تتحدث عن جهد الكادحين وهمومهم.

ولعله هو الذي دفعني ذات يوم إلى كتابة قصة أبي ذر الغفاري الشعرية، الشخص الذي اخترته نموذجاً للدفاع عن هموم المحرومين وعذابهم عبر التاريخ.

هناك حيط ثالث في نسيج ذاتي الشاعرة وهو رفض الاحتلال، والحرص على الاستقلال والحرية.

لقد نشأت في لواء إسكندرون، في تلك المرحلة التي كانت تحاك فيها المؤامرات لسلخه عن وطنه الصغير سورية، ووطنه العربي الكبير .

وكانت أبيات شعري وقصائدي التي تندد بالاستعمار الفرنسي الذي كان يجثم على صدر سورية آنذاك، والاستيلاء التركي، سلاحه في المعركة قبل الهجرة وبعدها، حين أخذت المصائب تتوالى، وتعمل في جسد الوطن العربي اغتصاباً وتمزيقاً.

ولأنني قروي، مستضعف، كادح من بقعة مغتصبة، ينتمي إلى وطن عربي واسع، مترامي الأطراف، عميق الجذور، ولكنه متخلف ممزق، يتعرض باستمرار للاعتداء والاقتطاع والتجزئة، فإن هناك عنصراً آخر في ذاتي الشاعرة - وربما كان أهم هذه العناصر وأبعدها أثراً في تحديد هويتي الشعريّة - وهو الانتماء القومي العربي.

لقد حاول شعري على - امتداد العمر - أن يعبر عن هذا الانتماء، في جولاتي الكثيرة في أرض الوطن من المحيط إلى الخليج، وفي متابعتي المشكلات التي يتعرض لها جملةً وتفصيلاً.

ومبكراً، سجلت هذا الهم القومي الذي شغل حياتي وشعري في الصفحة الأولى من إحدى مجموعاتي الشعريّة القديمة، حين تركت هذه الأبيات الثلاثة تتحدث عني:

إنها حَبَّات رَمَلٍ عَطِشَتْ فتحدّى اليأسَ فيها الظمأُ
أنا في أعماق قومي صرخةٌ تتشظى، لا قصيدٌ يُقرأُ
حَسْبُ لحنٍ ينتهي في وتري أنه في صدر غيري يبدأُ

بعد طباعة أعمال الشعريّة الكاملة، خطر لي أن أنظر إلى مكانة كلٍّ من هذه «المكوّنات» المختلفة في هذه الآثار.. فماذا رأيت ؟

لقد شغلت الطفولة مكانة ليست بالقليلة في كتاباتي الشعريّة للصغار والكبار،

ولا سيما في ديواني: أحكي لكم طفولتي يا صغار.

أقول في «أحكي لكم طفولتي يا صغار»:

في الحارة الصغيرة

في بيتنا القرميد

عاش أبي يكافح الأيام يا صغار

كان وديعاً كنسيم الصيف، كالأشعار

يَعْلَم الصغار والكبار

في بيتنا، يَعْلَم القرآن

والصرف والنحو، وحسن الخط، والبيان

شيخ يحبُّ الناس مُبصرين

يقاتل الظلام بالحرف الذي يُبين

* * *

وأنا في الدارِ تعلَّمْتُ

أُستاذي الرائع كان أبي

جَوَّدْتُ على يده القرآن

وحفظتُ، حفظتُ عن العربِ

قِصصًا وقصائد كاللهبِ

أُستاذي الرائع كان أبي

وفي المسرحية نفسها أقول في النشيد الختامي عن الاستغلال والظلم الذي يحيق

بالكادحين الذي بينون كل شيء ولا يحصلون على شيء:

العطاء

والبناء

كلُّ ما فوق الثرى

كل ما تحت السماء

من عماراتٍ ودورٍ

من قلاعٍ وقصورٍ

من حقولٍ ناضرة

وثمارٍ فاخرة

هو صنع الفقراء

* * *

قريتي كانت فقيرة

يا صغاري

عرفت حر الظهيرة

في النهار

عرفت برد الشتاء

عرفت طعم الشقاء

واستمّر الناس فيها يكدحون

حزهم يقتسمون

فقرهم يقتسمون

ورغيف الدُّرّة الصفراء فيما بينهم يقتسمون

وإذا مرّ نهار ضاحكٌ يقتسمون

كما كان للواء إسكندرون، بلدي الصغير، قصائد كثيرة، ألّفت شطراً كبيراً من «كتاب اللواء» الذي جمعته أخيراً، أقتطف منها هذه الأبيات التي قلتها في الذكرى العشرين لسلب هذه البقعة الغالية من الأرض العربية:

عشرون.. يا وطني الصغير أحسُّها ضَرَبَاتِ قَلْبِي
لم أنسَ يا بلدي، ففِيكَ على الرصاص فتحتُ هدي
أطفالكُ الثوار هم شعري كما كانوا.. وحيبي

* * *

وفيما يخص الوطن العربي وأقطاره، فقد اجتمع لدي:

ديوانُ الجزائر

وديوان فلسطين

وديوان اليمن

وديوانُ العراق

وديوان لبنان

وديوان أنا ومصر العربية

إضافةً إلى الدواوين الخاصة بسورية مثل:

ديوان دمشق - حكاية الأزل

وديوان حلب

وديوان الساحل العربي السوري.. إلخ.

لقد حفلت هذه الدواوين بهمّ عربي واحد ينبض فيها جميعاً.

كان الشعر الذي ضمته بين دفتيها يتحدث عن الوطن العربي أرضًا وناسًا، وماضيًا وحاضرًا، كما يتحدث عن المشكلات التي يعانها، وكفاحه الذي يصل أحيانًا إلى حد الثورة. وفي ثورة الجزائر وثورة فلسطين التي لم تهدأ بعد وفي المقاومة التي خاضها وما يزال يخوضها لبنان، أنصع مثال على ذلك.

ولعل مرحلة الوهج القومي - كما أوتر أن أسميها - بدأت في شعري بقصيدة «الزحف المقدس» يوم أعلن جمال عبد الناصر تأميم قناة السويس. واستمر هذا الوهج الذي بعثته مصر في جنبات الوطن العربي كله يعيش في قصائدي اللاحقة الواحدة تلو الأخرى إلى أن بلغ ذروته في إعلان الوحدة بين سورية ومصر وقيام الجمهورية العربية المتحدة، التي كانت حدثًا هزَّ الأرض العربية من أقصاها إلى أقصاها. يجد القارئ ذلك في ديواني الخاص (أنا ومصر العربية).. في هذه المرحلة بالذات أتلمس خيوط هويّتي الشعريّة لأجدها في ذروة تحقّقها وتوهجها.

من قصيدة (في عيد الوحدة) أقتطف هذه الأبيات:

أنا في زحمة الحناجرِ أنسابُ	جنونًا حينًا، وحينًا ذهبًا
لحظاتٌ والليلُ يرقصُ،	والأضواءُ تعلو مدينتي إكليلا
وعلى الأفقِ نجمةٌ هزَّها العيدُ،	فروّتْ جاراتها تقبيلًا
يا ليالي الضّياعِ والقيّدِ زولي	نحن باقون وحدةً لن تنزولا

من ديوان فلسطين سأكتفي بتسجيل هذه الأبيات التي قيلت عندما مر نعيش فدائي على ضفاف نهر بردى في دمشق:

في جسدِ النهرِ الميّتِ منذ قرون
دبَّت كالنَّارِ قُشَعْريرةٌ

كشرارةٍ برقيٍّ ..

راحت تُلهب ظهر الأرض المقهورة

كالسهم الأحمر مرَّ النعش

ليقول: أنا الدربُ

صمتي، والموت يجلّلي، صمتي الدربُ

وأنا الجسدُ المزروعُ رصاصًا

فجرَ الأمسِّ .. أنا الشعبُ

أما جنوبيّ لبنان فقد كانت لي معه وقفات من صميم الشعر. سأقف قليلاً عند هذا الذي أنشدته ذات يوم في النبطية من قصيدة بعنوان:

شفق من الجنوب وكانت المقاومة في أوج اشتعالها:

يلقني السوادُ

يلقني الرماد

يُخطني الشروقُ

يُخطني الغروبُ

أتيه بين الخطو والخطو

وبين الجرح والجرح ..

سهوبٌ .. دونها سهوبٌ

أمدٌ للشعر يدي ..

لجمرةٍ لم تشتعلْ ألوبُ

أعودُ من جثّة حُلْمِي
 تَمَّحِي فِي نَاطِرِي الدَّرُوبُ
 وَفِي حَحِيمِ «الهُوَّة» العَمِيَاءُ
 وَحَيْثُ صَارَ الكُفْرُ بالعَرُوبَةِ انْتِمَاءً
 يَلُوحُ لِي شَفَقُ
 يَزِلْزِلُ العَسَقُ
 يَرِدُنِي شَمْسًا بِلَا غُرُوبِ
 يَلُوحُ لِي الجَنُوبُ

* * *

وأما العراق فقد حرصت على أن يضم ديوانه تلك الهوة بين الماضي المجيد والحاضر الذي يعاني الاحتلال والطغيان والتمزق، وقد وضعتُ فيه الحوارية الشعرية بين شهرزاد الأسطورة وبين الشاعر على ضفاف شط العرب في البصرة.

في هذه الحوارية مررتُ بعدد من الأعلام الذين عاشوا فيها وتركوا بصماتهم الباقية على تراثنا العربي من الخليل بن أحمد إلى الجاحظ، إلى الأصمعي فجرير والفرزدق وأبي نواس، وكنت أحاول أن أمد خيوط هويتي العربية خلال هذا النسيج الشعري كله، وأن أتحدث عن ذكرياتي الحميمة في العراق، خلال دراستي الجامعية في دار المعلمين العالية ببغداد، وعن الصداقة التي ربطتني بشاعر العراق الراحل رفيق الدراسة بدر شاكر السياب.

* * *

هنالك أعمال أخرى تحمل عناوين لا توحى بعلاقة ما بهوية الشاعر، ولكن المواقف التي تنطلق منها، وتعبّر عنها، تمثل خيوطاً حساسة في نسيج ذاته الشاعرة، مثل مسرحية ابن الأيهم التي تمثل الصراع بين العنجهية الفردية والالتزام الديني، ومسرحية أبي محجن الثقفي التي تُبدي الصراع بين الحرية الفردية والخضوع للنظام، ومسرحية ميسون التي تقدم مثلاً للتضحية في سبيل التحرر، وقصة أبي ذر الغفاري الشعرية المطولة التي ذكرتها فيما سبق والتي حاولت أن تعبر بحماسة عن الكفاح في سبيل العدل الاجتماعي.

* * *

بإيجاز... لعل خير ما يجسد هويتي الشعرية تلك العبارة التي رددتها، وما زلت أرددتها، في أكثر من مناسبة:
 أنا خلية في جسد عربي،
 تبحث عن ملايين الخلايا من أخواتها،
 وتكافح لكي يتحرك الجسد،
 وتُبعث فيه الحياة.

تذكرة بأهم أحكام توكيد الفعل بالنون

د. محمد مكي الحسني الجزائري (*)

الأثر المعنوي لهذه النون هو توكيد المعنى، وتخليص زمن المضارع للاستقبال، وتقوية الاستقبال في صيغة الأمر أو إرجاعها إليه. وتكون النون ثقيلة مفتوحة، أو خفيفة ساكنة، وقد اجتمعتا في قوله تعالى: ﴿...لَيْسَجَنَّ وَلْيَكُونَا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [يوسف / ٣٢].

ويُجيز البصريون أن تكتب المخففة نوناً كما هو شائع: لِيَكُونُوا! أما الكوفيون فيحيزون كتابة النون المخففة بالألف مع التنوين، كما في الآية الكريمة؛ فَإِنْ وَقَفْتَ عَلَيْهَا وَقَفْتَ بِالْأَلْفِ، كقول الشاعر:

وَإِيَّاكَ وَالْمَيْتَاتِ، لَا تَقْرَبَنَّهَا وَلَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ، وَاللَّهُ فَاعْبُدْ

الأصل: وَاللَّهُ فَاعْبُدَنَّ، أي: اُعْبُدْ! وقول الآخر:

أَقْصِرْ، فَلَسْتَ بِمُقْصِرٍ، جُرْتَ الْمَدَى وَبَلَغْتَ حَيْثُ النَجْمِ حَتَّى، فَارْبَعَا

والأصل: اِرْبَعَنَّ أي: اِرْبَعْ = تَوَقَّفْ!

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

ولا يُؤكِّد بالتَّوْنَيْنِ الخفيفة والثقيلة إلا الفعل المضارع وصيغة الأمر.

أولاً: الفعل الماضي لفظاً ومعنى لا يُؤكِّد بالتُّون أبداً.

أما إن كان ماضياً لفظاً، مستقبلاً معنئاً، فقد يُؤكِّد بهما على قِلة، كما في حالة

الدعاء. ومنه قول الشاعر:

دَامَنَّ سَعْدُكَ، لَوْ رَحِمْتَ مُتَيْمًا لَوْلَاكَ لَمْ يَكُ لِلصَّبَابَةِ جَانِحَا

أي: يدوم سعدك في المستقبل، لأن الدعاء لائق بالمستقبل، وعدده ابن هشام (في

المغني) شاذاً.

وأقلُّ منه أن يكون الفعل المضارع مُنْفِيًّا ب (لم)، التي تَقْلِبُ زمنه إلى الماضي.

وإنما سَوَّغَ توكيد المنفي ب (لم) أنه مضارع في اللفظ، كقول الشاعر يَصِفُ جبلاً عَمَّهُ

الخصب وحَقَّه النبات:

يَخْسِبُهُ الجَاهِلُ - مَا لَمْ يَعْلَمًا - شَيْخًا عَلَى كَرْسِيِّهِ مُعَمَّمَا

الأصل: يَعْلَمَنَّ.

وكما جاء في متن «غاية البيان» في الفقه الشافعي المشهور بمتن «الرُّبْد» لابن

أرسلان (٧٧٣ - ٨٤٤هـ):

فَعَامٌ بِعِلْمِهِ لَمْ يَعْمَلَنَّ مُعَدَّبٌ مِنْ قَبْلِ عِبَادِ السُّوْتَنِ

وَكُلُّ مَنْ بَغَيْرِ عِلْمٍ يَعْمَلُ أَعْمَالُهُ مَرْدُودَةٌ لَا تُقْبَلُ

ثانياً: توكيد صيغة الأمر.

يجوز توكيد صيغة الأمر مُطْلَقًا، نحو: اجْتَهِدَنَّ، أَدْرُسَنَّ

وقد تُخْرَجُ هذه الصيغة إلى الدعاء، كما في شعرٍ لأحد الأنصار (عبد الله بن

رواحه) كان عليه الصلاة والسلام يُرَدِّدُهُ يومَ غزوةِ الخندق:

فَأَنْزَلْنَاهُ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَتَبَّتْ الْأَقْدَامُ إِنْ لَا قَيْنَا

نلاحظ التوكيد في (أنزلن) وعدمه في (تبت).

ونحو:

إِسْتَقْدِرَ اللَّهُ خَيْرًا وَارْضَيْنَ بِهِ فَبَيْنَمَا الْعُسْرُ إِذْ دَارَتْ مَيَاسِيرُ

ونحو ما جاء في خطبة الوداع، إذ قال عليه الصلاة والسلام:

«أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه، تَعَلَّمَنَّ أَنْ كَلَّ مُسْلِمٌ أَخًا لِلْمُسْلِمِ...»

تَعَلَّمَنَّ: مطاوع عَلَّمَ (عَلَّمْتَهُ فَتَعَلَّمَ). جاء في معاجم اللغة:

يقال: تَعَلَّمَ (بصيغة الأمر) في موضعٍ إِعْلَمَ!

وعلى هذا: تَعَلَّمَنَّ = إِعْلَمَنَّ، أي إِعْلَمُوا!

ثالثًا: توكيد الفعل المضارع.

المضارع لا يؤكد إذا كان خبرًا صرْفًا، نحو: تُشْرِقُ الشَّمْسُ كُلَّ يَوْمٍ.

١- يجب توكيد المضارع حين يكون مثبتًا، مستقبلًا، جواب قسم، مبدوءًا باللام المفتوحة

التي تدخل على جواب القسم، ولا يفصل بينه وبينها فاصل، نحو قوله تعالى:

﴿وَالْقَمَرَ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق / ١٨، ١٩]؛ وقوله:

﴿تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ [الأنبياء / ٥٧]؛ ونحو: والله لأعملنَّ الخيرَ جهدي.

٢- يمتنع بعد القسم توكيد المضارع بالنون، إذا فقد شرط الثبوت فيكون منفيًا:

أ) إما لفظًا، نحو: إن دُعيت للشهادة فوالله لا أكتم الحق. وكقول

امرئ القيس:

والله لا يذهب شيخي باطلا حتى أبيض مالگًا وكاهلا

القاتلين الملك الحلا حلا خير معد حسبًا ونائلاً

وإما تقديرًا، نحو قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفُ﴾ [يوسف / ٨٥] أي لا تفتأ تذكره، لأن حذف (لا) النافية كثيرٌ في جواب القسم عند أمن اللبس. ومن هذا قول الشاعر:

فحالِف، فلا والله تَهْبِطُ تَلْعَةً من الأرض، إلا أنت للذلِّ عارِفُ

فالأصل: والله لا تهبط تلعةً إلا أنت...

ب) ويمتنع توكيده إذا فقد شرط الاستقبال، فيكون زمنه للحال بقرينة تدل على هذا كقول الشاعر:

لئن تكُّ قد ضاقت عليكم بيوتكم لِيَعْلَمُ ربي أن بيتي واسعُ
لأن المعنى هنا على الحالية! (اللام في «لئن» هي الموطئة للقسم). ونحو: والله
لتذهبُ الآن!

ج) ويمتنع توكيده إذا كان مفصلاً من لام الجواب، نحو قوله تعالى: ﴿... وَلَسَوْفَ
يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى / ٥] (سوف) تؤكد الوعد وإن تأخر إلى حين!
٣- يُستحسن توكيده، لكنه لا يبلغ درجة الواجب (أي يجوز التوكيد وعدمه)، وأمارته:
أ) أن يكون المضارع فعل شرطٍ للأداة (إن) المدغم فيها (ما) الزائدة للتوكيد،
أي (إمّا)، نحو:

إمّا تحذرنَّ من العدوِّ تأمنُ أذاه. (الأصل: إن تحذرن...)

ومنه الآية: ﴿إمّا يبلغنَّ عندك الكبرَ أحدهما أو كلاهما﴾ [الإسراء / ٢٣].

والآية: ﴿فإمّا ترينَّ منَ البشرِ أحداً فقولي﴾ [مریم / ٢٦].

وكقول الشاعر:

يا صاح إمّا تجدني غير ذي جدّة فما التخلّي عن الخلالن من شيمي

هنا لم يؤكد الشاعر الفعل بالنون، إذ يصح أن تقول: إمّا تكرمي / تكرميني أكرمك.

• أما إن كانت الأداة غير « إن » فتأكيده قليل، نحو: حيشما تكوننَّ آتاك. وأقلُّ منه أن يقع الفعلُ جوابَ شرط، نحو:

ومَهْمَا تَشَأْ مِنْهُ فَزَارُهُ تُعْطِكُمْ ومهما تَشَأْ مِنْهُ فَزَارُهُ تَمْنَعُ

«تمنعاً» أصله تَمْنَعُنْ بنون التوكيد، قَلْبُهَا أَلِفًا للوقف، وهو جواب الشرط.

أو يأتي بعد أداة غير مصحوبة ب (ما) الزائدة، نحو:

مَنْ نَشَقُّقَنْ مِنْهُمْ فَلَيْسَ بِأَيِّ أَبَدًا، وَقَتْلُ بَنِي قُتَيْبَةَ شَائِي
من نَشَقُّقَنْ، أَي مَنْ نَطْفُرُ بِهِ.

(ب) أن يكون المضارع بعد (ما) الزائدة التي لم تدغم في (إن) الشرطية، كقول الشاعر:

إِذَا مَاتَ مِنْهُمْ مَيِّتٌ سَرَقَ ابْنُهُ وَمِنْ عِضَّةٍ مَا يَنْبُتُنُّ شَكِيرُهَا

أو كقولهم في المثل: بَعَيْنٌ مَا أَرَيْنَكَ! المعنى: إعملْ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكَ، وَلَا تَبْطِئْ!

(ج) أن يكون المضارع مسبقاً بأداة طلبٍ تفيده:

- الأمر، نحو: لِيَتَحَدَّرْنَ مَدِيحَ نَفْسِكَ، وَلِتُدْعَنَّ الشَّاءَ عَلَيْهَا، وَإِلَّا كُنْتَ هَدَفًا

للسخرية والمهانة.

- النهي، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُحْسَبَنَّ اللَّهُ عَافِيًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم/ ٤٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا...﴾ [الكهف/ ٢٣].

وكقول الأعشى:

وَذَا النُّصْبِ الْمَنْصُوبِ لَا تَنْسُكُنَّهُ وَلَا تَعْبُدِ الْأَوْثَانَ وَاللَّهِ فَاعْبُدَا!

- العَرْض، نحو:

أَلَا تَنْسِينَ إِسَاءَةَ مَنْ أَعْتَبَكَ؟ أَي مَنْ أزال سبب عتابك؟

- التحضيض، نحو:

هَلَا تَمَنَّ بوعِدٍ غيرِ مُخْلِفةٍ كما عهدتُك في أيامِ ذي سَلَمٍ

- التمني، نحو:

فَلَيْتَ لِكِ يومِ الملتقى تَرِينَنِي لكي تعلمي أني امرؤُ بك هائمٌ

- الاستفهام، نحو:

أَتَهْجُرُنَّ خليلاً صانِ عهدكمو وأخلص الودَّ في سرِّ وإعلانٍ؟

ونحو:

فَهَلْ يَمْنَعُنِي ارتيادي البلا دَ من حَذَرِ الموتِ أن يَأْتِيَنِي؟

- الدعاء، نحو:

لا يَبْعَدُنْ قومي الذين هُمُو سَمُّ العُداةِ وآفةِ الجُرُزِ

لا يَبْعَدُنْ: أي لا يهلكن، وآفة الجُرُزِ: كناية عن الكرم.

٤- يجوز الوجهان إذا كان المضارع مسبوقةً بـ (لا) النافية، ولم يكن جواباً لقسَم،

نحو قوله تعالى:

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال / ٢٥]؛ وقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا

يَشْعُرُونَ﴾ [النمل / ١٨].

ملاحظة:

جملة (لا تصيبن...) - بخلاف (لا يحطمنكم) - واقعة في جواب شرط مقدَّر

(إن تصيبكم)، وليست جواباً للأمر (اتقوا)، لأن المرتب على الاتقاء عدم إصابتها

أحدًا لا خصوصًا ولا عمومًا.

مقارنة تحليلية بين الخطاب وعلم المعاني

بحث أعدّه بالفارسيّة د. حسين هاجري

ترجمه إلى العربيّة أ. د. عيسى علي العاكوب(*)

مقدمة:

أنشئ هذا البحثُ أولاً بالفارسيّة بقلم أحد أساتذة اللغة الفارسيّة وآدابها في إيران، ثمّ رأى المترجمُ أنّ القضية التي يعالجها تهمّ الباحث العربيّ في مجال علوم البلاغة، والدّرس الحديث فيما يعرف بالخطاب وتحليله، كما تهمّ القارئ العربيّ العامّ؛ ومن هنا نقله إلى العربيّة.

ويعالج البحثُ مشكلّةً يواجهها الدرسُ البلاغيّ الحديث في اللغة الفارسيّة، تتمثّل في ضالة إفادته من مباحث علم المعاني التقليديّة، في الوقت الذي يفيد فيه كثيراً من مباحث علم البيان والبدیع. ويُرجع الباحثُ ذلك أساساً إلى أنّ مباحث علم المعاني الفارسيّ مستمدّة من اللغة العربيّة وآدابها، وأنها عاجزة عن بيان النكات البلاغيّة في اللغة الفارسيّة؛ لاختلاف طبيعة اللغتين، ولأنّ علم المعاني العربيّ أكثر انسجاماً مع اللغة العربيّة التي من طبيعتها أنّها قادرة على تغيير الدلالات بتغيير التراكيب.

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

ويقترح البحثُ مخرجًا لعلم المعاني الفارسيّ من هذا المأزق بالاستفادة من منجزات تحليل الخطاب في العصر الحديث التي تنسجم والمباحث التي يُعالجها علم المعاني. وثمة، في أيّة حال، محاولة جيّدة لتوسيع نطاق القضايا التي يعالجها علم المعاني في الفارسيّة. ونحسب أنّ القارئ العربيّ في حاجة إلى الاطّلاع على هذه المحاولة، التي قد تزيد خبرته في النظر إلى مباحث علم المعاني العربيّ. ولعلّ القارئ العربيّ الحديث، خاصّةً، لا يعلم أنّ البلاغة العربيّة بعلومها الثلاثة هي الركنُ الركيزي في صرح البلاغة الفارسيّة.

مقارنة تحليلية بين الخطاب وعلم المعاني:

المعاني والبيان والبديع هي العلوم التي يقع مجموعها تحت عنوان "علم البلاغة". وفي الزمان الحاضر لم يظفر علمُ المعاني، مقارنةً بالعلمين الآخرين، إلاّ بقدر قليل من الإقبال والاهتمام. ويميل النقاد في نقد النصوص الأدبيّة وتحليلها في الأعمّ الأغلب إلى الاستفادة من الفنون البيانيّة والبديعيّة. وهذا الإقبالُ القليل على علم المعاني مُلاحظٌ في الجامعات أيضًا، إذ ليس لدى أساتذة الأدب رغبةٌ في تدريسه، ولا ييدي الطلبة، حتّى بعد إكمال دراسة هذا العِلْم، مهارةً كافيةً في تحصيل فنونه ومباحثه في النصوص الأدبيّة. وفي اختبار الماجستير أيضًا يكون أقلّ قدرٍ من الأسئلة في الكلّيات الأدبيّة من نصيب علم المعاني^(١).

ويرى بعضُ النقاد أنّ سببَ الازورار عن علم المعاني وضالة جاذبيّته إمّا هو مباحثه التي استمدّت من اللغة العربيّة والأدب العربيّ، وعجزها عن بيان النكات

(١) في اختبار الماجستير لعام ١٣٨٣-١٣٨٤ هـ. ش، لم يأت إلاّ ثلاثة أسئلة متعلّقة بعلم

المعاني، من بين ٣٨ سؤالاً للكلّيات الأدبيّة.

البلاغية في اللغة الفارسية؛ ذلك لأنّ مباحث علم المعاني لا تتمتع مثل مباحث علم البيان بخاصية عالميّة، ولا بدّ من اكتشاف قواعد معاني كلّ لغة من اللغات على نحو مخصوص مستقل^(٢). ومهما يكن، فإنّ الارتباط الحميم بين الشعر العربيّ والشعر الفارسيّ استلزم أن يستعمل علماء البلاغة [الفُرس] مصطلحات علم المعاني العربيّ نفسها في اللغة الفارسية أيضاً. وإنّ علم المعاني في اللغة الفارسية اليوم هو تقريباً ترجمة لعلم المعاني في اللغة العربيّة، قد أرفقت بقليل من الأمثلة الفارسيّة.

الموضوعُ الأساسيّ لهذه المقالة هو بيانٌ لأسباب ضالة الإقبال على علم المعاني [في تدريس اللغة الفارسيّة وأدبها]، واقتراحٌ للخروج من هذا الوضع. وابتغاء الوصول إلى هذا المقصد لا بدّ، فضلاً عن معرفة سير تطوّر علم المعاني، من معرفة العوائق القائمة التي تحول دون تهيئة ظروف استعمال هذا العلم. وبديهيّ أنّه ابتغاء فهم هذا الأمر لا بدّ من معرفة هدف علم المعاني، وتاريخ موجز لتطوّره، وأدوات التحليل فيه.

نشأة علم المعاني:

كان علم المعاني في الماضي ضمن مجموعة من فضاء أكبر، كانت تسمّى [في اليونانيّة] ريتوريقا Rhetoric. وقد تُرجم تعبير ريتوريقا في مجال علوم البلاغة بـ«فنّ الخطابة»، وكان اسمُ كتاب أرسطو في هذا الشأن [قبل أن يُترجم إلى العربيّة باسم «كتاب الخطابة»] «ريتوريقا» أيضاً. وفضلاً عن الفلسفة والمنطق، كان أرسطو أيضاً رائداً في مجال البلاغة، وهو يعرض لهذا المبحث لأوّل مرّة. اهتمام أرسطو في هذا الكتاب أكثر تركيزاً على فنّ الخطابة، الذي راج في اليونان في ذلك الوقت. وتبعاً لذلك كانت الريتوريقا في الأصل مهارة تُعلّم تأثير الكلام، ثمّ فيما بعد اجتذبت أيضاً الكتاب في مجال تأثير الكتابة.

(٢) شميسا، سيروس: علم المعاني، المقدّمة.

كان أرسطو يعدّ الربطوريقا [البلاغة] متعلّقة بالخطابة فقط، وكان يعتقد أنّ وظيفتها هي بيان أسباب تأثير الخطابة في السامع. ومن هذه الوجهة اختلفت عن فنّ الشعر أو الشعرّيّات (بويطيقا Poetics)؛ لأنّه في فنّ الشعر، تُظهر العواطف والانفعالات، وعلى الجملة القضايا التخيلّيّة، على حين في فنّ الخطابة تُعرض الحقائق والوقائع على نحو مؤثّر خلّاب. وتعبير آخر، كان الشعر عند أرسطو محاكاةً، أمّا الخطابة فقد كانت طريقة في الكلام تستفيد من وسائل الإثارة والجذب جميعًا. وهذه الأدوات والوسائل، كالتشبيه والاستعارة والمبالغة والجناس، كانت تُستعمل كلّها في التأثير في السامع.

تحديات علم المعاني:

نقل علماء المعاني أصول الخطابة في التأثير في المخاطب إلى المجال الأدبيّ وبينوا أيضًا أنّ الكتابة الجيدة أيضًا، على غرار الخطابة، يجب أن تكون مؤثّرة في المخاطب، ورأوا أنّ مطابقة الكلام لمقتضى الحال أيضًا سبب لتأثير الكتابة وخلابتها^(٣)؛ لكنّه منذ البدء لم يوفّر لبعض الموضوعات في علم المعاني الدقّة والوضوح الكافيان. وكان الاصطلاح الأوّل «مطابقة الكلام لمقتضى الحال»؛ لأنّه في فنّ الخطابة كان من السهل تعرّف حال المخاطب وتحديد مقتضى حاله، أمّا في الكتابة فلم يكن من السهل تعرّف حال المخاطب. ولهذا السبب قدّم العلماء المعاصرون المتخصّصون في علم المعاني في توضيح «مقتضى الحال» تفاسير مختلفة، من قبيل:

١- يُعنى بـ«مقتضى الحال» مقتضى أوضاع التكلّم وأحواله؛ من مثل أنّه في حال التعزية لا بدّ من استعمال كلماتٍ وعباراتٍ خاصّة، وفي حال التهنئة لا بدّ من استعمال إمكاناتٍ أخرى في الكلام.

(٣) يقول السكاكي في تعريف علم المعاني: «علمٌ تُعرف به أحوال اللفظ العربيّ التي بها يطابق مقتضى الحال». [هذا، على الحقيقة، تعريفُ الخطيب القزوينيّ لعلم المعاني، وليس تعريف السكاكي، كما يذكر الكاتب. المترجم] (علوى مقدّم، محمد: معاني وبيان؛ ص ٢٩).

٢- يُعنى بـ«مقتضى الحال» استعمال ألفاظٍ ومفردات مناسبة لمقام الشخص وموقعه في الأثر الأدبي. من ذلك مثلاً أنّ الفردوسي استعمل في شأن إسفنديار لفظي الحصان والفرس، وفي شأن رستم لفظي الجواد والربّ... وشيءٌ بديهيّ أنّ هذه الألفاظ أكثرُ رسميّة واحترامًا وعظمة، وهي تشير إلى محبة الفردوسي القويّة لرستم:

لنرّ أنّ حصان إسفنديار يأتي إلى المغلف من دون فارس
وأنّ جواد رستم المحارب سيمضي إلى الإيوان من دون رتّه^(٤)

٣- يُعنى بـ«مقتضى الحال» مراعاة انسجام ألفاظ النصّ وعباراته بعضها مع بعض؛ أي الامتناع عن خلط الأساليب اللغويّة المختلفة؛ ومن ثمّ لا ينبغي الجمع بين ألفاظ قويّة الفصاحة وأخرى عاميّة وسوقيّة أو خاصّة بيئة معيّنة.

٤- يُعنى بـ«مقتضى الحال» انسجام أجزاء الأثر الأدبي بعضها مع بعض؛ أي التناسب بين المقدّمة وصلب الموضوع والنتيجة، وذلك مثل مناسبة براعة الاستهلال لصلب الموضوع التي سعى الفردوسي إلى تحقيقها، يُشاهد مثال بارز لذلك في حكاية رستم وسُهراب^(٥).

وقد اقتصر سعي علماء علم المعاني لإيضاح مفهوم «مقتضى الحال»، الذي بُنيت نماذج منه قبل، على التعريف وبيان الأسس النظرية، وأغفلوا بيان المحدّات والاستعمالات اللغويّة العلميّة لتلك الأسس. وبتعبير آخر، لا تُوضَع الأصول والقواعد التي ينبغي أن تُراعى في الأشكال التعبيريّة المختلفة للنصّ لتحقيق المطابقة لمقتضى الحال بافتراض كلّ واحدٍ من تعريفاته السابقة؛ ثمّ تحت أيّ من العوامل المؤثّرة في بناء الجمل تستطيع العبارات والألفاظ إظهار هدف مقتضى الحال. وعلى هذا النحو، فإنّ كتب علم المعاني الفارسيّ الموجودة الآن، مع أنّها سعت إلى إيضاح

(٤) ربه: صاحبه

(٥) شميسا، سيروس: علم المعاني، ص ٣٢.

المفهوم المفتاحي لمقتضى الحال في الكتابة وجلائه وأشارت إلى أنّ الكتابة كالحظابة محتاجة إلى مطابقة مقتضى الحال، لم توفّق إلى كشف القواعد اللغوية لذلك؛ ثمّ للسبب نفسه اضطرت إلى تكرار عين المباحث التقليدية المستمدّة من علم المعاني في اللغة العربيّة، وربطتها بقليل من الشواهد والأمثلة الفارسيّة.

الموضوع الثاني في علم المعاني هو اختيار وحدة التحليل. ووحدة التحليل في علم المعاني هي الجملة، ويُدرَسُ موضوع المطابقة لمقتضى الحال أساساً على مستوى الجملة. وللسبب نفسه لم تُعرض مباحث من قبيل ارتباط بناء الجمل بسياق الكلام. وتبعاً لذلك، نواجه تناقضات كثيرة عندما يُنصّر أنّ الجملة هي وحدة التحليل ويُغض الطرف عن السياق الكلّي للكلام. وفي معرض المثال، نشير إلى أسباب حذف المسند إليه.

أحد أسباب حذف المسند إليه، تعظيمه وإعلاء شأنه، كما في البيت الآتي:

يُسْقَطُ قَطْرَةً مِنَ السَّحَابِ فِي الْيَمِّ وَيُنْزَلُ نَظْفَةً مِنَ الصُّلْبِ فِي الرَّحْمِ
فَيَصْنَعُ مِنْ تِلْكَ الْقَطْرَةِ لَوْلُؤَةً لِأَلَاءِ وَيَصْنَعُ مِنْ هَذِهِ النَّظْفَةِ صُورَةً قَدْ وَقَامَةٌ^(٦)

حيث حُذِفَ الْمَسْنَدُ إِلَيْهِ، وَهُوَ «اللَّهُ» سَبْحَانَهُ.

وأحياناً يُحذف المسند إليه احتقاراً له وكراهيةً لذكر اسمه:

لَيْسَ مُحَقِّقًا، وَلَا عَالِمًا بَلْ حَمَارٌ يَجْمَلُ أَسْفَارًا
فَأَيُّ عِلْمٍ وَخَبْرٍ لَدَى هَذَا الْأَحْمَقِ عَمَّا إِنْ كَانَ مَا يَحْمَلُهُ حَطْبًا أَوْ دَفْتَرًا^(٧)

(٦) الأبيات لسعد الشيرازي وهي بالفارسية:

ز صلب آورد نظفه ای در شکم
وزین، صورتی سر وبالا کند

زا ابر افکند قطره ی سوی یم
از قطره لولوی لا لا کند

(٧) الأبيات لسعد الشيرازي وهي بالفارسية:

چارای بر او کتابی چند
که بر او هیزم است یا دفتر

نه محقق بود نه دانشمند
آن تھی مغزرا چه علم و خبر

والمسند إليه هنا هو «العالم الذي لا يعمل»، الذي حُذِفَ بسبب انحطاط مقامه^(٨).
 بديهياً أنّ تعظيم المسند إليه أو تحقيره إنّما يُدرك من البناء الكلي للكلام، ثمّ بعد حصول هذا الإدراك يمكن إصدارُ الحُكْمِ في شأن حذف المسند إليه في جملة من الجمل. ومن وجهة أخرى، لا تستطيع علامةً واحدة الدلالة على مفهومي متناقضين، ما لم تظهر في الارتباط بالسياقات الكلامية المختلفة دلالةً على مفهومات مختلفة. ويمكن القولُ مثلاً إنّّه في الأبيات السابقة، هذا السياقُ الكلي للكلام هو الذي وضع علامةً خاصّةً (حذف المسند إليه) في معنيين مختلفين.

الموضوعُ الثالث في علم المعاني هو أنّ الشخص subject أو الكاتب محتازٌ وحرّ، وهو وحده العاملُ المؤثّر في تشكيل النصّ، ولا يهتمّ بأثير عوامل من قبيل البنى الإيديولوجيّة والقدرة على استعمال اللغة، ممّا هو مجالُ اهتمام التّقاد التحليليين للخطاب.

إنّ سبب المقارنة بين علم المعاني وتحليل الخطاب هو اشتراكهما في كفيّة استعمال اللغة ومعرفةً عمليّةً تعاملها مع المحيط. وبتعبير آخر، تحليلُ الخطاب هو استمرارٌ لعلم المعاني في المجالات المختلفة للعلوم الإنسانيّة، وقد نحنا نحو توصيف أكثر دقّةً معتمداً على منجزات علم اللغة.

ومن وجهة أخرى، إذا ما عددنا منشأ علم المعاني فنّ الخطابة (Rhetoric) وجعلنا الخطابة أيضاً نوعاً من الخطاب، فقد أرجعنا^(٨) نشأة تحليل الخطاب إلى نظريات الخطابة القديمة (أرسطو، سيشرون، لوجينوس)، ومن هذه الناحية تتّضح النشأة المشتركة بينه وبين علم المعاني.

(٨) علوى مقدّم، محمد: معاني وبيان، ص ٣٨.

الخطاب وتحليل الخطاب:

استُعمل مصطلح الخطاب (Discourse) في معنيين في مجال العلوم الإنسانية. إذ استُعمل أولاً بمعنى «مقطع لغويّ كبير»، أجزأؤه مرتبطٌ ببعضها ببعض على نحو ما، وله هدفٌ خاصٌ^(٩). وهذا التعريف مبنيٌّ على نظرة مستمدّة من علم اللغة. وقد كان العاملُ الأساسيُّ لتشكّل مفهوم الخطاب هذا هو كشف القواعد وملاحظة الخاصيّات الموجودة في وحدات لغويّة أكبر من الجملة. ومن هذه الوجهة، لا توجدُ سلسلةٌ جملٌ جيّدة البناء سليمةٌ نحوياً بالضرورة عملاً اتصالياً موفّقاً؛ فلو أنّنا مثلاً في إجابة هذا السؤال: «من أين أنت؟»، قلنا: «يسقط الثلجُ غدًا»، لما كنّا قد قدّمنا إجابةً مناسبة، مع أنّ الجملتين كليهما صحيحتان نحوياً. وبناءً على ذلك، يؤكّد دُرُسُ الخطاب قدرتنا على تركيب الجمل وربطها بموضوع الخطاب، بزيادة القدرة الاتصاليّة.

وهذا التعاملُ اللغويّ يتوجّه أساساً إلى الخاصيّات الشكلية لمقاطع لغويّة أكبر من الجملة؛ خاصيّاتٍ مثل تتابع الألفاظ، والبنى النحويّة، وتناسب الألفاظ، وترتيب بناء النصّ نفسه، وبنى أكبر من الجملة كالمقطع والسيناريو.. وغير ذلك^(١٠).

وقد عبّر الخطابُ بالمعنى الثاني عن تلازم التعبير (utterance) والممارسة الاجتماعيّة (social practice) أو معنى ذلك^(١١). وتحليلُ الخطاب عبارةٌ عن إعداد العدة والعمل المناسب وإعمال ذلك في كشف ارتباط الكلام (أو النصّ) بالممارسات الفكرية- الاجتماعيّة. ولا بدّ من أن يُوضع في الحسبان أنّ تبلور وجهات النظر

(٩) مكاريك، إيرنا ربما: دانش نامه نظريه های ادبي معاصر، ص ٢٥٦.

(١٠) نفسه.

(١١) يار محمدي، لطف الله: گفتمان شناسی رایج وانتقادی، ص ١٤٢.

الفكرية - الاجتماعية، في صورة ممارسة مناسبة، يحصل بفضل تأليفات خاصة في المتن تسمى بنى الخطاب (discourse structures). وقد أحرز تحليل الخطاب بمعنييه السابقين منجزاتٍ مهمّة يمكن الاستفادة منها في علم المعاني.

منجزات تحليل الخطاب المفيدة في علم المعاني:

لما كان هدفُ كاتب هذه المقالة عرضَ الإمكانيات الموجودة بالقوّة في مجال تحليل الخطاب، وكان من الصّعب إعدادُ استقصاء كامل في هذا المجال، يُشار هنا فقط إلى بعض المنجزات المهمّة أيضاً. وابتغاء معرفة هذه الإمكانيات كلّها وانسجام إجراءاتها مع أهداف مباحث علم المعاني وموضوعاته، يُحتاج إلى دراسة جامعة يقوم بها الخبراء في هذا المجال.

١- كشف الخصائص الموجودة في الوحدات اللغوية الأكبر من الجملة:

مثلاً قيلَ قبلُ، يبحث علم المعاني قواعدَ مطابقة الألفاظ لمقتضى الحال في الجملة أساساً، أمّا في تحليل الخطاب فيتوجّه إلى تحليل القدرة الاتصالية مع المخاطب المبنية على تركيب الجمل وارتباطها بموضوع الخطاب. ومن هنا تُعدّ معرفة القوانين المتعلقة بارتباط الجمل بعضها ببعض، وارتباطها بالسياق (context)، شرطاً أساسياً لحصول اتصال جيّد. وتبعاً لذلك، يُهتمّ في تحليل الخطاب بالخصائص الشكلية والتناسب بين المفردات وترتيب بنى النصّ نفسه، والبنى الأكبر من الجملة مثل المقطع والسيناريو...

ويستفيد تحليل الخطاب، في دُرُس علاقات الوحدات الأكبر من الجملة، من منجزات علم اللغة الوظيفي (functional linguistics)، الذي ممثله البارز مايكل هاليداي (Michael Halliday). ويبيّن هاليداي الواجب الأصليّ لعلم اللغة الوظيفي على هذا

النحو: «الشكل الخاص الذي يتخذه النظام النحوي لكل لغة له ارتباط قوي بالحاجات الاجتماعية والفردية التي ينبغي أن تسدّها تلك اللغة»^(١٢) وعلى هذا النحو فإن كل لغة من أجل إجراء بيان واحد تضع تحت تصرف مستعملي اللغة أشكالاً مختلفة، ويبحث عالم اللغة الوظيفي في تحديد القواعد التي تجعلنا نختار واحداً من هذه الأشكال. وبديهي أنّ علم اللغة الوظيفي يستطيع أن يجعلنا واعين في شأن استعمال اللغة، سواءً أكان ذلك في الاستعمال اليومي أم في الاستعمال الأدبي. ومن هذه الوجهة، يُلاحظ تشابه كبير بين علم المعاني وعلم اللغة الوظيفي. وفي علم المعاني أيضاً يرتبط اختيار شكل التعبير اللغوي بمقتضى حال المخاطب، ويدلّ استعمال الجملة في المعاني الثانوية حقاً على الاستفادة من الأوضاع اللغوية نفسها التي يشير إليها هالدي.

إنّ بحث السيد الدكتور يار محمدي^(١٣) الذي يحمل العنوان: «تحقيق في مقابلة الإرجاع الصريح والضمي في النصوص الإنكليزية والفارسية»^(١٤) نموذجٌ لتحليل الخطاب، إذ يحلّل من خلال دراسة أنواع الإرجاعات المختلفة مستوى وضوح النصّ وكيفية هذا الوضوح. وإنّ مستوى الإبهام أو الوضوح يرتبط إلى حدّ ما بموضوع الإطناب والإيجاز في علم المعاني. وتبعاً لذلك يمكن الاستفادة من الطريقة المستعملة في هذا البحث في علم المعاني في سبيل تحديد وضوح النصّ.

تعيين درجة قطعية النصّ (modality) في تحليل الخطاب هو أيضاً من المجالات التي

(١٢) مكارنيك، ايرنا ربما: دانش نامه نظريه های ادبي معاصر، ص ٢٥٧.

وابتغاء معلومات أكثر راجع :

Halliday, M.A.K. Language as social semiotic: The social interpretation of language and meaning. London: Edward Arnold ١٩٧٨

(١٣) أستاذ في قسم اللغة الإنكليزية وآدابها في جامعة شيراز.

(١٤) يار محمدي، لطف الله: نفسه، ص ٩.

تكون محلّ اهتمام في مجال علم المعاني. وفي علم المعاني يكون الخبرُ على ثلاثة أنواع من جهة حال المخاطب، وهي: الخبرُ الابتدائيّ والخبرُ الطلبيّ والخبرُ الإنكاريّ. فإذا كان المخاطبُ خاليّ الذهن في شأن فائدة الخبر وليس لديه أية درجة من الإنكار، يكون الكلامُ عاديًّا وغير محتاج إلى شيء من أدوات التوكيد. يُسمّى هذا النوعُ من الخبرِ الخبرَ الابتدائيّ. وحين يكون لدى السامع في شأن فائدة الخبر تردّد، ويُزال هذا التردّد بقليل من التأكيد، أو لا يكون لدى السامع تردّد، لكنّ المتكلّم ابتغاءً إحداث قدرٍ أكبر من التأثير يؤكّد الكلام، يُسمّى الخبرُ طليبيًّا. أمّا حين يكون المخاطبُ منكرًا فائدة الخبر، فإنّ المتكلّم في هذه الحال يؤكّد كلامه بأدوات وألفاظ وعبارات أكثر، وإذا لزم الأمرُ يُقسم أيضًا؛ ويُسمّى هذا النوعُ من الخبرِ الخبرَ الإنكاريّ.

هذا التقسيمُ للخبر مقصودٌ على إطار الجملة، ولا يذكر لنا أيّ درجة للقطع أو التأكيد يقدّم النصُّ الكامل.

إنّ أحد الجوانب التي يهتمّ بها محلّلو الخطاب في تحليل عمل اللغة دراسةً درجة قطعيّة الكلام (modality). وفي كتاب «مدخل إلى النحو الوظيفي An Introduction to Functional Grammar»^(١٥) يذكر هاليدي M.A.K Halliday ثلاث وظائف أساسية للغة:

١- الوظيفة الفكرية (ideational) التي يبيّن الشخص من خلالها تجربته وإحساسه إزاء العالم الخارجيّ.

٢- الوظيفة التفاعلية (interactional) حيث يستفيد القائل أو الكاتب من قضيّة لكي يتّصل بالآخرين.

٣- الوظيفة النصّية (textual) التي من خلالها ينظّم القائل أو الكاتب الرسالة

Halliday, M.A.K. (١٩٨٥), An Introduction to Functional Grammar, London: Edward Arnold.

المبنية على الوظيفتين السابقتين في صورة قولٍ أو نصٍّ مكتوب (أو في صورة أخرى ممكنة) وينقلها إلى الآخرين.

أحد مجالات الوظيفة التفاعلية بيانُ درجة القطعية (modality) في الكلام. وميزانُ القطعية هو نظرةُ القائل أو الكاتب فيما يتصل بدرجة النجاح في إكمال العمل. ويستطيع المحللون، بفضل تحديد المستويات المختلفة للقطعية والعلاقات اللغوية المحددة لكلٍ منها المتعلقة بدرجة قطعية نصٍّ، تقديم الاستنتاجات، ثمّ باستعمال الأساليب الإحصائية المناسبة يقدمون تفسيراً مناسباً للنتائج المستفادة. جاء تقديم هذين النموذجين لبيان أنّ تحليل وحداتٍ من الجملة (فضلاً عن تحليلات الجمل الموجودة) يُظهر حقائق أكثر اتساعاً وحِدَّةً في شأن النصِّ ومناسبتها لمقتضى الحال (مقصود علم المعاني).

٢- تأثير العوامل الثقافية والاجتماعية والإيديولوجية في اللغة:

أدخلت طريقة التحليل النقدي للخطاب، بغية تجنّب أوجه القصور الموجودة في تحليل الخطاب الشائع في علم اللغة، مفهوماتٍ من قبيل القدرة والإيديولوجية أيضاً في تحليل الخطاب، وربطت استعمال اللغة بسياقاتٍ أوسع اجتماعية وثقافية، واستفادت في الوقت نفسه من الطرائق الدقيقة في تحليل النصِّ بالأسلوب المتبع في تحليل الخطاب. وتُجمع الطرق المختلفة في التحليل النقدي للخطاب على «المضيّ إلى ما هو أبعد من التوصيف اللغويّ لكي نستطيع الحصول على الإبانة، والإشارة إلى أنّ الفوارق الاجتماعية قد بدت في لغة الناس وفي ألسنتهم. كذلك لا بدّ بمساعدة هذه الطرق من القدرة على كشف هذه الفوارق الاجتماعية وتغيير شروطها»^(١٦).

ويحصل تبلورٌ عوامل من قبيل القدرة والإيديولوجية بطريق تركيبات خاصة في

(١٦) بينكوك، الستر: «كفتمأهاى قياس ناپذير»، ترجمة سيد على أصغر سلطاني؛ فصلنامه

النصّ تُسمّى بنى الخطاب (discursive structures)؛ لأنّ هذه التركيبات بعضها متّصلٌ بعلم اللغة وبعضها الآخر بعلم اجتماع المعنى. وبعض هذه التركيبات معروفةٌ في علم المعاني، من مثل: استعمال المجهول في مقابل المعلوم أو العكس، حذف المسند إليه، اختيار الدور. بعضٌ آخر منها نتاجٌ بحوث في علم اللغة ودُرُس الخطاب، وفي حال استعمالها في مجال علم المعاني يمكن أن تقدّم تحليلاً إضافياً، مثل الاستفادة من الأنماط المختلفة للجملة، واختيار مفردات وتعبيرات خاصّة (التسمية)، والبيان بصورة الجنس أو النوع، والبيان بصورة المحدّد أو غير المحدّد، والبيان بالصورة الشخصية أو غير الشخصية.. وغير ذلك^(١٧).

وإنّ منجزات بحوث علم اللغة وبحث الخطاب أكثر من القضايا السابقة وهي تزداد يوماً بعد يوم. وعند رُبط علم المعاني بهذه المنجزات واستفادته أدوات من أدواتها سيحتلّ منزلةً أسمى من المنزلة التي هو عليها اليوم؛ وعلى هذا النحو نكون قد استطعنا إيجاداً ترابط مبارك بين الميراث الثقافي والعلمي لأجدادنا ومنجزات العصر.

الخلاصة:

ابتغاءً زيادةً قبول علم المعاني الفارسيّ وحاذيّه، يُقترح أن ندمج الموروث المستمدّ من اللغة العربيّة بالمنجزات الجديدة في حقول النقد الأدبيّ الجديد، من قبيل تحليل الخطاب، والتحليل النقديّ للخطاب، والنحو الوظيفي، والنقد البلاغيّ. وعلى هذا النحو سيمكّن علم المعاني، مستعملاً أدوات فعّالة، من إجراء تحليل أكثر جدّيّة وعمقاً للنصوص الأدبيّة، وسيظفر بمنزلة أسمى في فضاء البلاغة الفارسيّة.

(١٧) يار محمدي، لطف الله: نفسه. وفي هذا الكتاب، بالمناسبة، حدّد عدداً من المؤلفات

المتّصلة بالخطاب في اللغة الفارسيّة.

وَعُلِّمَ أَنَّ أَهَمَّ التَّحْدِثَاتِ الَّتِي يُوَجِّهُهَا عِلْمُ الْمَعَانِي أَمْرَانِ، وَحَدَّةُ التَّحْلِيلِ وَتَحْدِيدُ الْعَوَامِلِ الْمُؤَثِّرَةِ فِي تَوْلِيدِ الْقَوْلِ؛ وَاقْتُرِحَ لِإِزَالَةِ هَذِهِ النِّقَاطِصِ، إِضَافَةً إِلَى تَعْرِيفِ أَدَقِّ لِمَقْتَضَى الْحَالِ فِي الْكِتَابَةِ»، أَنَّ يُسْتَفَادَ فِي اخْتِيَارِ وَحْدَةِ التَّحْلِيلِ وَتَحْدِيدِ الْعَوَامِلِ الْمُؤَثِّرَةِ مِنْ مَنَحَزَاتِ عِلْمِ اللُّغَةِ فِي مَجَالِ تَحْلِيلِ الْخُطَابِ.

كَانَ هَدَفُ كَاتِبِ الْمَقَالِ مَجْرَدَ عَرْضِ اقْتِرَاحِ، وَقُدِّمَتْ إِضَاحَاتٌ مَخْتَصِرَةٌ فِي شَأْنِ حُدُودِ الْمَوْضُوعِ. وَبِيَدَيْهِ أَنْ تَنْفِذَ هَذَا الْاِقْتِرَاحَ مَنْوُطٌ بِإِجْرَاءِ بَحْثِ جَامِعٍ وَكَامِلٍ فِي هَذَا الْمَجَالِ.

المصادر

- سلطاني، علي أصغر؛ قدرت، گفتمان وزبان؛ چاب اول، تهران، نشرني، ١٣٨٤.ش.
- شميسا، سيروس؛ معاني؛ چاب اول، تهران، نشر ميتر، ١٣٨٤.ش.
- علوي مقدم، محمد ورضا أشرف زاده؛ معاني وبيان؛ تهران، انتشارات سمت، ١٣٧٤.ش.
- فصلنامه علوم سياسي، ش٤، ١٣٧٨.ش.
- مكاريك، ايرناريمان؛ دانش نامه نظريه هاي ادبي معاصر؛ مترجم: مهران مهاجر، محمد نبوي؛ - چاب اول، تهران، انتشارات آگاه، ١٣٨٤.ش.
- يار محمدي، لطف الله؛ گفتمان شناسي رايج وانتقادى؛ چاب اول، تهران، انتشارات هرمس، ١٣٨٣.ش.

معجم النسبة بالألف والنون(*) للدكتور أحمد مطلوب

عرض: د . عبد الإله نبهان(*)

هذا معجم لغوي جمع فيه صاحبه بالتتبع والمراجعة والاستقراء ما وقع عليه من الكلمات المنسوبة المنتهية بألف ونون زائدتين، منها ما ورد ذكره في المعجمات القديمة، ومنها ما ورد في المعجمات الاصطلاحية المعاصرة، ومنها ما ورد في كتب الثقافة العامة. وقد بلغ مجموع هذه الكلمات قديمها وحديثها ٤٤٨ كلمة . ومثل هذه الحصيلة مثيرة للانتباه والتساؤل، لأن هذه النسبة (بالألف والنون) عدت ضمن شواذ النسب. قال الأستراباذي تحت عنوان «شواذ النسب»: «وقد يلحق ياء النسب أسماءً أبعاض الجسد للدلالة على عظمها، إما مبنية على فُعال كأنافي للعظيم الأنف، أو مزيداً في آخرها ألف ونون كحَياني ورَقَباني وجُماني للطويل الجُمَّة، وليس البناءان بالقياس، بل هما مسموعان. وإذا سميت بهذه الأسماء ثم نسبت إليها رجعت إلى القياس، إذ لا تقصد المبالغة إذن، فنقول: جُمي ولجِيي على قول الخليل، ولجوي على رأي يونس» [شرح الشافية ٢: ٨٤].

ويستفاد من إشارة الأستراباذي أن هذه النسبة التي هي شاذة حسب تعبيره جاءت لغرض المبالغة ولم تأت اعتباراً، فحَياني تقال لمن طالت لحيته، ورَقَباني تقال للغليظ الرقبة، وكذلك جُماني تقال للطويل الجُمَّة وهي مجتمع شعر الرأس .

(*) مكتبة لبنان - ناشرون . بيروت - ٢٠٠٨ .

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

وقد عامل المرحوم عباس حسن هذه الأمثلة معاملة القدماء، فعدها من المسموعات المخالفة للضوابط والأحكام، وذهب إلى أنّ الواجب أن نحكم بشذوذها وألاّ نقيس عليها وعدّ من هذه الأمثلة: فوقاني وتحتاني ورقباني وشعراني [النحو الوافي ٥٦١: ٤] وعلى هذا المذهب سائر كتب النحاة .

في هذا المعجم «معجم النسبة بالألف والنون» ذكر صانعه الدكتور مطلوب أن النسبة بالألف والنون وردت في القرآن الكريم في كلمة «رَبَّانِيَّون» جمع «رَبَّانِيّ» وقد زيدت فيه الألف والنون لأنه موصوف بعلم الربّ، على حين «الرَّبِّيّ» هو المنسوب إلى الربّ، فهناك إذن فرق دلاليّ بين النسبتين، وكان الخليل بن أحمد قد سمّى ذلك بالعدول قال: «كلّ شيء من ذلك عدلته العرب تركته على ما عدلته عليه، وما جاء تامّاً لم تحدث العرب فيه شيئاً فهو على القياس» [سيبويه ٣: ٣٣٥] وكان من المعدول على غير قياس: زبانيّ نسبة إلى زبينة، وصنعاني وبهرانيّ ودستوانيّ وبحرانيّ ورؤحانيّ وجُمَانيّ ولحيانيّ ورقبانيّ، وذكر سيبويه أنك إنما تقول: لحيانيّ ورقبانيّ لأنّ المعنى قد تحوّل، أي أن هذه النسبة قد دلّت على معنى لا تدل عليه النسبة القياسية: رقبنيّ ولحويّ. كما وردت هذه النسبة في عدد من الأحاديث النبوية الشريفة، فقد ورد «البحرانيّ» نسبةً إلى البحر وهو قعر الرّحم، وورد «الحرقانيّ»: الشديد الحرق والسواد، كما ورد: الجوّانيّ مقابل: البرانيّ. زد على ذلك عشرات الكلمات التي وردت بهذه الزيادة للنسبة، مما حدا بالدكتور أحمد مختار عمر أن ينكر أن تكون هذه الصيغة من شواذ النسب أو من نادر معدول النسب، وجوّز استعمالها لأنها تحمل معنئاً إضافياً على مجرد النسبة كالوصفية للترفة بين الأبنية وما تدلّ عليه، مثل «نفسانيّ» نسبةً إلى علم النفس ونفسيّ «نسبة إلى النفس» و«روحانيّ» نسبة إلى علم الروح و«روحيّ» نسبة إلى الروح وهي «ترفة دقيقة ما أحرانا أن نلتزم بها» [العربية الصحيحة ١٠٣ نقلاً عن مطلوب: ١٢] وقد ورد في ديوان الأدب للفارابي عددٌ من هذه الكلمات المنسوبة كما ورد في غيره .. وقد جمع الدكتور مطلوب هذه الكلمات جميعاً مع ذكر دلالتها أو دلالاتها وشواهداها، وأضاف إليها ما ورد في المعجم الطبي

الموحد وفي معجم حِثِّي الطيبي، كما أضاف ما التقطه من كتب المصطلحات الأخرى وكتب الثقافة العامة التي تمكّن من الاطلاع عليها. وقد استقرى دلالة هذه النسبة في سياقاتها المختلفة التي وردت فيها، فوجد أن القدماء جنحوا إلى هذه النسبة لأنهم سعوا إلى تحقيق دلالة لا تحققها النسبة بالياء المشدّدة وحدها ومن ذلك:

- الدلالة على الوصف والمبالغة: بلتعاني «حاذق وظريف متكلم»

- الدلالة على الحرفة والصنعة: الباقلاّني «بائع الباقلاء»

- المملّكية: الديراني: صاحب الدير

- النسبة إلى الأماكن: الإسكندرانيّ

- النسبة إلى القبيلة أو الأبّ: البهرايّ

- أمن اللبس والتفريق بين المتشابهات: السفرجلاني (بائع السفرجل)

- النسبة إلى أشياء أخرى: الجوّاني - العقلاني

إنّ الكلمات المنسوبة بالألف والنون كثرت كثرة تجعلها بعيدة جدًّا عن أن تدخل تحت مفهوم التّدرة، وقد أشار السيوطي إلى أن شواذّ النسب المخالفة للقاعدة الأساسية التي وضعها النحاة كثيرة كثيرة لا تُحصى [المجم ٦: ١٧٣ عن مطلوب].
وأمام هذه الكثرة من الكلمات المنسوبة بالألف والنون انتهى الدكتور مطلوب إلى أن هذه النسبة فصيحة وإن خرجت عن قواعد النحاة، ولا مانع من اللجوء إليها واستعمالها ضمن شروط حددها على النحو الآتي:

١- الحاجة إليها في العلوم المستحدثة ووضع المصطلحات العلمية والألفاظ الحضارية.

٢- دلالتها الدقيقة على المعنى المقصود لا تتحقق بالياء المشدّدة وحدها كالوصف أو المبالغة أو التوكيد أو الدلالة على حرفة.

٣- خلوصها من الالتباس بغيرها .

ورأى الدكتور مطلوب أن هذه الأسباب تدعو إلى الأخذ بهذا البناء في المصطلحات العلمية والألفاظ الحضارية، دون أن يكون في ذلك خروجٌ عن روح اللغة العربية، ففي هذا البناء تبقى ياء النسبة المشدّدة، ويزاد قبلها ألف ونون للدلالة على معنى من

المعاني التي تقدّم ذكرها، وكان أبو العباس المبرد قد أشار إلى ذلك بقوله: «واعلم أن أشياء قد نُسب إليها على غير القياس للّبس مرة وللاستثقال أخرى، وللعلاقة أخرى، والنسب إليها على القياس هو الباب» [المقتضب ٣: ١٤٥].

ومن الألفاظ (المصطلحات) المستحدثة التي صيغت على هذا الباب قولهم:

العُلَمائيّ نسبةً إلى العُلْم بمعنى العالم

الضعفاني Diploid والضعفانية Diploidy

العُضْوانِي Organoid هو شبيه العضو أما العضويّ فيقابل Organic

وقد نقل الدكتور مطلوب مقبوسًا عن ساطع الحصري يسوّغ فيه استعماله مصطلح

العقلاني والعقلانية قال الحصري:

«استعملت كلمتي العقلانيّ والعقلانيّة مقابل كلمتي Rationalist

وRationalisme الإفرنسيّتين لأنني لم أجد كلمتي العقلي والعقلية وافيتين بالمرام. من

المعلوم أن المقصود هنا الاعتماد على العقل وتحكيم العقل في كل شيء، وهذا لا يمكن

أن يستفاد من كلمة العقلية أبدًا. فكان من الضروريّ إيجاد صيغة جديدة مشتقة من

العقل غير كلمة العقلية العامة، فاخترت كلمة العقلانيّ والعقلانيّة قياسًا على كلمات»

«جُسْمانيّ» و«روحانيّ» و«عُلَمائيّ» التي صارت تستعمل كثيرًا بمعانٍ تختلف عن معاني

كلمات مثل «جسّميّ» و«روحيّ» و«علميّ».

إنّ هذا المعجم الذي جمع ٤٤٨ كلمة من الكلمات القديمة والمستحدثة يمكن

أن ينمو ويزداد مع الأيام، ولكن الكمية التي قدّمها تقدّم قضية تحمل برهانها، فحواها

أنه علينا أن نخرج هذا البناء عن دائرة الشذوذ كما فعل الدكتور أحمد مختار عمر،

ونعدّه من الأبنية الصحيحة التي نلجأ إليها عندما تدعو إليها المناسبة ويقتضيها المعنى

ويتحقق بها الغرض.

أحيي الدكتور أحمد مطلوب صانع المعجم على جهده المثمر، وأتمنّ صيره الطيب

الذي أئبغ أطيب الثمر.

معجم ألفاظ علم المخطوط العربي

د. أحمد شوقي بنين (*)

يُعدُّ تحديد المصطلح الخطوة الأولى لفهم النصوص فهماً علمياً صحيحاً يمكن الباحثين من التقويم العلمي المتن، ومن إصدار أحكام سليمة يمكن الاطمئنان إليها. ولا يستقيم أي بحث في أي ميدان من ميادين المعرفة ما لم تحدّد مصطلحاته تحديداً علمياً صحيحاً. فتحديد المفاهيم والتدقيق في معاني الألفاظ أمر أساسي وشيء ضروري قبل البحث في علم من العلوم ودراسة ظواهره وقضاياها. التعريف قبل التصديق كما يقول المناطقة. وقبل الحديث عن معجم مصطلحات علم المخطوط العربي، الذي ظلت اللغة العربية تفتقر إليه بالرغم من جهود القدماء وتقدمهم في مجال وضع المعاجم ارتأينا أن ننظر في هذا الموضوع في لغات غير اللغة العربية. وبعد المراجعة والفحص تبين أن مشكلة وضع معجم خاص بمصطلحات المخطوط هي مشكلة قائمة حتى في هذه اللغات التي ظل معظمها يعاني هذا النقص حتى الخمسينيات من القرن الماضي.

وفي عام ١٩٥٣م تأسس في أوروبا المجلس الدولي للبايوغرافيا. وكان أول مشروع ناقشه ودعا إلى تنفيذه معجم متعدد اللغات للألفاظ المتعلقة بالمخطوط الوسيط، لإيمانهم بأن تقدم الفيلولوجيا وعلم المخطوط والبايوغرافيا مرتبط بوضع هذا المعجم. فقد توالى الاجتماعات بين أهل الاختصاص في مختلف اللغات الغربية وطالت المناقشات التي أثمرت خلافاً عدة ووجهات نظر مختلفة، يستحيل معها تحقيق

(*) باحث في الأدب والتراث من المغرب.

المشروع بالصيغة التي قدم بها في المجلس الدولي للباليوغرافيا. فاستقر الأمر على أن يختصر العمل في وضع معجم مختصر باللغة الفرنسية يُعتبر أساساً ونموذجاً يُحتذى ويُنقل إلى اللغات الأخرى. وفي هذا الإطار أُنيطت بأحد الفيلولوجيين الفرنسيين دونيس مزريل (D.Muzerelle) في عام ١٩٧٥م مهمة إنجاز المعجم، الذي ينبغي أن لا يتجاوز كونه وثيقة عمل يُقتدى بها لوضع معجم متعدد اللغات كما أُريد له أن يكون من قبل^(١). وبعد عشر سنوات من العمل الدؤوب واستشارة أهل الاختصاص ظهر المعجم المختصر - سُمِّي كذلك لأن الشروح التي وُضعت للألفاظ كانت في غاية الاختصار والإيجاز - واقتصر فيه صاحبه على المعاني التقنية للألفاظ دون الإفاضة في مختلف معانيه اللغوية. وحتى اليوم فإن اللغات الأوربية - باستثناء هذا العمل المختصر - مازالت خلواً من هذا المعجم برغم الجهود التي تُبذل في هذا الصدد وبرغم الأعمال التي ينشرها الفيلولوجيون الغربيون في هذا المجال.

أما في اللغة العربية فإن اهتمام القدماء بوضع المعاجم لا يحتاج إلى دليل. إن الأبحاث اللغوية الأولى تمثّلت في دراسة الألفاظ القرآنية والمصطلحات الحديثة. فوضعوا كتباً في مفردات القرآن سُميت بغريب القرآن. ووضعوا معاجم في غريب الحديث^(٢). ولما أحسوا بالحاجة إلى الألفاظ للتعبير عمّا جدّ في حياتهم وحضارتهم بحكم التطور والاحتكاك بغيرهم، ضمّنوا ألفاظ القدماء معاني جديدة أو اشتقوا منها ألفاظاً أسبغوا عليها معاني اصطلاحية أو عرّبوا بعض الألفاظ الأعجمية

(١) أشرف على هذا الإنجاز الفيلولوجي الفرنسي شارل سمران (Ch. Samaran) أحد الاثنين اللذين يدعيان وضع مصطلح كوديكولوجيا.

(٢) أول كتب غريب القرآن هو الذي نُسب لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما (٥٦٨هـ). وأول معاجم غريب الحديث هو الذي نُسب لأبي عبيدة معمر بن المثنى (٢١٠هـ).

واحتفظوا ببعضها دون تغيير أو تبديل. فظهر في العربية ما اصْطُلِحَ عليه بالمعرب والدخيل.

وبعد هذه المرحلة وضعوا معاجمهم في الألفاظ والمعاني، وقد اعتمدت أول ما اعتمدت على أعمالهم اللغوية الأساسية الأولى. ومما يُوَكِّد حيوية اللغة العربية التي هي لغة القرآن، ظهور معاجم على مر التاريخ. فلا يكاد يمر عصر من العصور دون قيام العلماء واللغويين بوضع الكتب المعجمية. وهو دليل على حيوية هذه الأمة واعتزازها بلغة القرآن. ومع هذا الاهتمام المستمر للباحثين العرب - قدماء ومحدثين - بهذا الميدان اللغوي الصرف فإن اللغة العربية مازالت تعاني نقص وضع معجم خاص بمصطلحات الكتاب العربي المخطوط، يدرس نشأتها ومعانيها ومفاهيمها وتحولاتها المعجمية التي عرفها قديماً. ويعرف من ثم المصطلحات التي عرفتها الكوديكولوجيا الحديثة. فالعربية كباقي اللغات أخذت قسطها من هذا العلم الجديد. فكان لا بد من إيجاد مصطلحات في العربية أو غيرها من اللغات الأجنبية للتعبير عما ظهر من مواد في هذا المجال الحيوي في علم الكتاب.

لقد انطلق القدماء في وضع معاجمهم من تلكم الرسائل والكتب المختصرة التي وضعها الأوائل. فيسرت لهم الأمر وعبدت لهم الطريق. أما المحدثون فليس أمامهم إلا المخطوطات ومصادر القدماء يقرؤونها قراءة متأنية ويتلمسون المصطلحات التي تفيدهم في وضع هذا المعجم. والقراءة المتأنية والبحث الدقيق ضروريان لفهم معاني المصطلحات الواردة وتطور مفاهيمها حسب المكان والزمان. وسنرى فيما بعد بعض سوء الفهم الذي وقع فيه كثير من الباحثين في تصورهم لعدد من الألفاظ المتعلقة بالكتاب المخطوط. وعلى العموم فإن الإقدام على إنجاز هذا المعجم يُعَدُّ نوعاً من المخاطرة لصعوبة الموضوع، ولأن علم المخطوط العربي أو الكوديكولوجيا العربية

مازالت موضوعاً بكثرًا في التراث العربي. ويدعو البحث عن المصطلحات إلى استشارة كتب التراث العربي القديم بدءًا بكتب الحديث. ثم قراءة ما نُشر عن الباليوغرافيا والتحقيق العلمي وكل ما له علاقة بالكتاب المخطوط كفهارس الكتب وتقارير المكتبات وما شابه ذلك. وقد يتبين للباحث أن هذه الأعمال على من كثرتها وتنوعها لا تفي بالغرض المقصود. فكان لابد من اللجوء إلى بعض الكتب التقنية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بصناعة المخطوط، كالكتب المتعلقة بالتفسير أو التجليد والصور التوضيحية والزخارف والرسوم، أو بالطباعة الحديثة أو الكتب الخاصة بحرفة الدباغة وحتى كتب الطب البيطري، لاختيار الألفاظ المتعلقة بالرقوق والجلود.

إن أول محاولة تُذكر في هذا المجال هي تلكم التي قام بها المستشرق آدم جاسيك (Adam Gacek) البولوني الأصل والكندي الجنسية، فقد وضع معجمًا باللغة الإنكليزية^(٣)، عن مصطلحات المخطوط العربي. إنه كتاب قيم مع أنه يحتوي مجموعة من المصطلحات ترتبط بعلوم عربية أخرى أكثر من ارتباطها بالكتاب العربي المخطوط وعلمه. ومع ذلك فإنه عمل رائد، يرجع الفضل لصاحبه في اقتحام ميدان جديد طالما كان موضع إهمال وعدم اكتراث^(٤). وكانت أول محاولة في اللغة العربية في هذا المجال تلكم التي أخذت على عاتقي القيام بها مع الأستاذ مصطفى طوي. وأثمرت هذا المعجم الذي توالى طبعاته إلى أن صدرت الطبعة الثالثة. وذلك بسبب الزيادة والحذف والتنقيح الذي يفرضه تقدم البحث. وبالرغم من الجهود المضنية والمتواصلة التي بُذلت في إنجاز هذا العمل من حيث البحث عن المصطلحات وشرحها وترتيبها فإننا نؤكد أن اللغة العربية مازالت تفتقر إلى معجم لألفاظ الكتاب المخطوط يجري فيه تأصيل

(٣) طبع بدار بريل (Brill) بليدن بهولندا عام ٢٠٠١م.

(٤) لابد من الاعتراف أننا استفدنا من هذا الكتاب في وضع معجم مصطلحات المخطوط العربي.

المصطلح، وتُحدد فيه المفاهيم تحديداً علمياً صحيحاً. ويقوم بوضعه مجموعة من ذوي التجربة والمراس من أصحاب الاختصاص بإشراف مؤسسة أو مجمع يجري فيه تبادل الخبرات والاستفادة من نتائج البحوث المنشورة في مجال الكتاب العربي المخطوط والكوديكولوجيا العربية. ومما يُؤسف له أننا لا نستشعر أي ملمح في هذا الاتجاه في مجامع اللغة أو المراكز العلمية العربية على تعددها واهتمام الكثير منها بشؤون المخطوطات.

مصادر البحث عن المصطلح:

لا يستطيع أحد أن يُنكر الجهود التي بذلها المحدثون في توثيق الرواية وضبطها، وفي البحث في حياة الرواة وفي سلوكهم. فقد وضعوا كتب الجرح والتعديل وأصلوا لأصول الرواية والسماع، كما صنع الرامهرمزي والخطيب البغدادي والقاضي عياض وابن الصلاح وابن جماعة والعموي والغزي وغيرهم، فأثمرت هذه الأعمال مجموعة من المصطلحات استعارها الباحثون المحدثون المشتغلون بقضايا المخطوط كالتوثيق والتحقيق والضبط^(٥)، والجزء والصحيفة وغيرها. والذي دعاهم إلى هذه الاستعارة هو تمسكهم بمناهج المحدثين وحرصهم على التحري في الكتابة والتوثيق في الرواية، والضبط في الأخذ والأداء. ولم يكن توظيفهم لهذه المصطلحات توظيفاً حديثاً صرفاً، بل أخضعوها لمقتضيات الممارسة الفيلولوجية التي تهدف إلى توثيق النصوص ونشرها، فتغايرت المضامين من علم الحديث إلى السياق العلمي الجديد. فلم يعد الجزء هو النسخة التي تشتمل على حديث فأكثر مع تعدد الأسانيد، بل أصبحت قسماً من

(٥) ليس هناك تعريف جامع لهذا المصطلح عند المحدثين، فهو لفظ تتنازع معان كثيرة وإن كانت كلها تدور في فلك الرواية. فهناك ضبط الراوي، وضبط الرواية، وضبط الكلمات، وضبط الكتاب، وضبط الأسماء، وضبط سطر، وضبط صدر ويُقصد به الحفظ وغير ذلك.

الكتاب اختُلف في حجمه وفي عدد أوراقه^(٦). ولم ينحصر التوثيق في صيانة المصنّف والدقة في النقل والبعد عن العبث والتحريف والتزوير والعناية بأنماط التوثيق كالوقفيات والتملكات والإجازات وغيرها، بل أصبح يعني عند المؤرخين المحدثين جمع الوثائق وتنظيمها وفهرستها ووضعها رهن إشارة الباحثين. ولم تعد الوثيقة مرتبطة بالبحث التاريخي كما هو الشأن عند المؤرخين، بل أخذت معناها الأصلي اللاتيني القديم وأصبحت تعني كل ما يعطينا معلومة من المعلومات كالمخطوط والمطبوع والدورية وغيرها، وليس فقط تلکم الرسالة أو ذلكم الظهير الذي يعتمد في البحث التاريخي. ولم يقتصر اليوم لفظ التحقيق على الإحكام والإثبات والتصديق كما كان عند القاضي عياض وعند غيره من القدماء، بل أصبح مجموعة من الوثائق والأساليب والبنيات يجب التمسك بها واعتمادها في نشر النصوص ودراستها دراسة علمية.

ومن المصطلحات الحديثة التي استعارها الفيلولوجيون لفظ النسخة، فهي كلمة عربية وأصلها سامٌ توجد في السريانية والعبرية. وتعني من حيث التأثيل والأصل نقل الشيء من مكان إلى آخر. والنسخ حسب الزبيدي هو اكتتابك عن كتاب حرفاً بحرف^(٧). والمكتوب: المنقول منه النسخة بالضم وهو الأصل المنتسخ منه^(٨). ومعنى النسخة قديماً الوسيلة المثلى لنقل النصوص الإسلامية. فهي عند المحدثين ما اشتمل على حديث فأكثر، ويتنظمها إسناد واحد. وتعني الكتاب أو السفر. وهي الإبرازة عند

(٦) بعض المستشرقين شبهوا الجزء بالملزمة أو ما سموه بالبسيا (Pecia).

(٧) تاج العروس (نسخ) وقد نقله عن التهذيب للأزهري (٧/ ٨٤) ونصه اكتتابك كتاباً عن كتاب حرفاً بحرف تقول نسخته وانتسخته فالأصل نُسخة والمكتوب منه نسخة لأنه قام مقامه. اهـ.

(٨) الزبيدي: تاج العروس. مادة «نسخ». اقترح رمضان عبد التواب رحمه الله النسخة بالفتح

للكتاب المطبوع لتقتصر بالضم على الكتاب المخطوط.

ابن النديم صاحب الفهرست بمعنى أن القدماء كانوا يبرزون أي يظهرون كتبهم في نسخ مختلفة من حيث الزيادة والحذف نتيجة مختلف الإملاءات المتعددة^(٩). ومن المستشرقين من استعمل لفظ «التأليف» للتعبير عن النسخة كما صنع المستشرق الفرنسي كلود كاين (Claude Caen) فيما يخص كتاب «المنهاج في أحكام خراج مصر» لأبي الحسن علي المخزومي المتوفى عام (٥٨٥ هـ) قال: إن هناك تأليفين أي نسختين أو إبرازتين لهذا الكتاب: تأليف أول في آخر الفاطميين نحو سنة (٥٦٥ هـ) وتأليف ثان أضاف إليه إضافات ومراجعات في عام (٥٨٠ هـ)^(١٠).

وإضافةً إلى المصطلحات الحديثة التي تفيد الفيلولوجيين في الضبط والتوثيق والتحقيق استعار القاموس الكوديولوجي مجموعة من المصطلحات المتداولة عند المجلدين أو المسفرين والمزّمين والدباغين والوراقين والنساخين وغيرهم، تتلخص في مواد الكتابة وأدوات الترميم والتجليد والنساخت وما إلى ذلك. ونريد هنا أن نستجلي معاني مجموعة من المصطلحات استعملت خطأ أو في غير مكانها أو أسيء فهمها. فلفظ «ورق» وهو من مواد الكتابة في القلم، يتحدد معناه حسب سياق الكلام وتاريخ النص الذي ورد فيه. فقد يعني ورق البردي، وقد يعني الجلد أو الرق، كما قد يعني الكاغد الذي عرفه العرب في القرن الثاني الهجري. لفظ ورق في نصوص القرن الأول

(٩) قال ابن النديم في شأن (كتاب الجمهرة) لابن دريد: «وآخر ما صحّ من النسخ نسخة أبي الفتح عبد الله بن أحمد النحوي لأنه كتبها من عدة نسخ وقرأها عليه». الفهرست ص (٩٣). وصرّح ابن عربي أن لكتابه (الفتوحات المكية) نسختين أي إبرازتين. وذكر برجستراسر أن الإبرازة قد تكون من غير صنع المؤلف. كتاب (عجائب المخلوقات) للقزويني وصل في أربع إبرازات. اثنتان من صنع المؤلف، واثنتان أخريان من صنع غيره أُبجرتا بعد وفاته فلحقتهما إضافات بعيدة عن فكر القزويني. أصول نقد النصوص ص (٣٠).

(١٠) أطلقت النسخة قديماً على وصفة الدواء التي يصف فيها الطبيب الدواء للمريض.

المجري يُقصد به ورق البردي أو القرطاس. وقد يُقصد بالورق الصحف من الرق. يقول ابن شهاب الزهري: جمع القرآن على عهد أبي بكر في الورق، الغالب على الظن أن المقصود به صحيفة الرق. والصحف مفردتها صحيفة تعني ما يُكتب فيه من ورق وغيره، كالجلد والقماش والنبات والحجر والرّق والعظم، وقد يُطلق على المكتوب فيها^(١١). وقد روى القدماء أن الخليفة أبا بكر الصديق رضي الله عنه جمع القرآن في صحف، والمقصود بها كل مواد الكتابة المتداولة في عهد الرسول من كرايف وعسب ولخاف ومهارق وغيرها، وقد فهمها الكثير بأنها صحف من الجلد فقط. وقد اشتق من مادة (ص ح ف) لفظ المصحف بفتح الميم وكسرها. وهي الكتاب في الجاهلية وصدر الإسلام. ويؤكد هذا المعنى ما جاء في كتاب القصد والأمم لابن عبد البر، يقول: «من جملة ما وُجد في الأندلس إثنان وعشرون مصحفًا محلاة، كلها من التوراة، ومصحف آخر محلى بفضة. وكان في المصاحف مصحف فيه عمل الصنعة وأصباغ اليواقيت»^(١٢). أما مصحف بضمّ الميم فلفظ حبشي حسب ما جاء في كتاب «الإتقان» للإمام السيوطي، أُطلق على القرآن لما جُمع في الصحف على عهد أبي بكر الصديق باقتراح عبد الله بن مسعود رضي الله عنه^(١٣). وأكد المستشرق الألماني نولدكه (ت. ١٩٣٠م) أن مادة (ص ح ف) توجد في العربية وفي الحبشية بمعنى حفر، نقر وكتب.

(١١) الصحيفة هي النسخة عند المحدثين، وهي ما اشتمل على حديث فأكثر وينتظمها إسناد

واحد. وجاءت الصحيفة بمعنى القرطاس.

(١٢) ابن عبد البر: القصد والأمم ص (٣٥).

(١٣) أكد المستشرق الألماني نولدكه (ت. ١٩٣٠م) أن مادة (ص ح ف) توجد في العربية وفي

الحبشية بمعنى حفر، نقر، كتب وتوجد كذلك في الحميرية اليمنية حسب ابن دريد (٣٢١هـ)

ومعروف أن الحبشية استعارت الأبجدية الحميرية وهذا يؤكد الأصل السامي للفظ مصحف.

وتوجد كذلك في الحميرية اليمينية حسب ابن دريد (٣٢١ هـ). أما القرطاس^(١٤)، فلفظ يوناني لاتيني عرفه العرب في الجاهلية وورد في القرآن، ولكن معانيه تختلف باختلاف الزمان والمكان. فالقرطاس قبل الإسلام هو الجلد أو الرق، وبعد فتح مصر أُطلق على ورق البردي. وفي القرن الثاني اكتُشف الكاغد الصيني فسمّوه قرطاسًا. إن اللفظ يأخذ معناه حسب زمان النص الذي ورد فيه. وقد يُخطئ من لم يضع نصب عينيه تاريخ النص الذي استعمل فيه هذا اللفظ. وأما الكاغد^(١٥)، فلفظ صيني kög. Dz اكتشفه الصينيون في بداية القرن الثاني الميلادي. وقد عرفه العرب خلال القرن الثاني الهجري إثر انتصار الجيش الإسلامي بقيادة حاكم سمرقند على إخشيد فرغانة، الذي كان يُناصره الصينيون الذين يعرفون صناعة الكاغد. فقد أسر المسلمون منهم عددًا كبيرًا فعلموهم هذه الصناعة التي لم تلبث أن انتقلت إلى العالم العربي، فأقاموا مصنعًا للكاغد في بغداد على عهد الرشيد، فأصبح مادة للكتابة. يقول القلقشندي: «وبقي الناس يكتبون على الرق إلى أن ولي الرشيد الخلافة، وقد كثر الورق وفشا عمله بين الناس، فأمر ألا يكتب الناس إلا في الكاغد، لأن الجلود ونحوها تقبل المحو وإعادة فتقبل التزوير، بخلاف الورق فإنه متى حُجّي فسد وإن كُشِط ظهر كشطه. وانتشرت الكتابة على الورق في سائر الأقطار

(١٤) قرطاس مثلثة القاف حسب قدماء العرب - والواقع أنها بالفتح حسب أصلها اليوناني - اللاتيني Khartas. ولعلَّ أصلها صيني كاغد (Kög- dz) وحرف في اللغتين اليونانية واللاتينية وهو الذي أصبح Charte في الفرنسية. ولا بد من الإشارة إلى أنها كلمة قرآنية.

(١٥) احتفظ المغاربة بالاسم الصيني لهذه المادة. فكتبه بعضهم بالطاء فقالوا كاغظ بفتح الغين وسكوها.

وتعاطاها مَنْ قَرَّبَ وَبَعُدَ، واستمرَّ الناس على ذلك إلى الآن»^(١٦).
وقد أُطلق عليه في المشرق لفظ ورق، على حين احتفظ المغاربة بالاسم الصيني.
وقد أُطلق بعض المتأخرين الكاغد على القرطاس. يقول نصر الهوريني: «مصاحف
الخليفة التي بعث بها إلى الأمصار نُسخت على الكاغد»^(١٧)، ما عدا المصحف الذي
كان عنده بالمدينة فإنه على رق الغزال»^(١٨). ويؤكِّد زعم الهوريني ما ورد في كتاب
المصاحف أن أبا بكر الصديق جمع القرآن في قرطيس^(١٩). ويجب التنبيه على أن
القرآن كان يُكتب على رق الغزال طوال القرون الإسلامية الأولى، ولم يكن دائماً جلد
الغزال هو مصدر الرق، بل دأب القدماء على إطلاق رق الغزال على كل جلد مرقق
لطيف بديع استعمل مادة لنسخ كتاب الله العزيز.

وقد ورد قبل قليل أن الرشيد أمر ألا يُكتب إلا في الكاغد لأن الجلود تقبل المحو.
فقد عرفت الحضارات الشرقية والغربية ظاهرة المحو التي تُمارس على الجلود إما للتزوير،
وإما لاستعمالها مرة ثانية لقلّة الرق أو لغلاء سعره. وقد أطلقوا عليها لفظ الطرس أو
الطلس (Palimpseste)^(٢٠). ولما فتح العرب الأندلس والمغرب وصقلية محوا الكتب

(١٦) صبح الأعشى: (٣/ ٤٦٥).

(١٧) إن ثبت هذا الخبر فإنه يؤكِّد أن المصطلح دخل المجتمع العربي قبل دخول المادة نفسها كما
يزعم بعض الباحثين.

(١٨) المطالع النصرية: (١٨).

(١٩) السجستاني: المصاحف: (٢٧). ولكن يكاد يجمع الباحثون على أن مصاحف عثمان
نُسخت كلها على رق الغزال.

(٢٠) Palimpsestos باليوناني و Palimpsestus باللاتيني. دخلت المعجم الفرنسي في عام
١٨٢٣ ومعناه في اليونانية الحفر من جديد. وقد شاعت ظاهرة الطروس في العصور الوسطى
عندما ارتفع سعر الجلود.

اللاتينية واليونانية بعد ترجمتها إلى العربية وكتبوا عليها ثانية لأن سعر الرق والبردي كان عاليًا. فلما خرج العرب من الأندلس محا الإفرنج كتب العرب وكتبوا عليها مع أنهم في غنى عن ذلك لوجود الكاغد الذي نشره العرب في أوروبا. وفي القرن التاسع عشر استطاع الأوروبيون أن يستخرجوا يوسائل كيماوية النصوص اليونانية واللاتينية القديمة من الطلوس العربية وبقيت الطلوس الإفرنجية محتفظة بسر الكتب العربية المطلوسة.

ومن المصطلحات التي تحتاج إلى تحديد المعاني التي أخذتها من الاستعمالات المختلفة كلمة دفتر. أصلها يوناني (Diphēria) ومعناها الجلد. ذكر المؤرخ اليوناني هيرودوت Herodote أنها من الكلمات الفينيقية التي تسربت قديمًا إلى اللغة اليونانية. وقد ظهرت في مجموعة من اللغات السامية مثل الآرامية والسريانية والعبرية، ويُعتقد أنها دخلت العربية عن طريق اللغة الفارسية بمعنى كتاب أو ملزمة أو كراس، وقد أُطلقت فيما بعد على الكتب الكبرى. وتُطلق في وقتنا هذا على الكتب المدرسية التي يكتب فيها التلاميذ أو الطلبة. ومنها كذلك لفظ كراس أو كراسة الذي لم يُحدد معناه القدماء. والغالب على الظن أنه تعريب للفظ اللاتيني كوديكس (Codex) الذي حلّ محلّ اللقافة مع بداية العصر المسيحي. وقد ساعد على ظهوره اكتشاف الرق في مدينة برغامة التركية لمنافسة ورق البردي المصري^(٢١). وقد اختلف القدماء في تحديد معناه، وعدد أوراقه، فمنهم من قال: الكراس هو الدفتر، ومنهم من قال هو كتاب صغير، ومنهم من اعتبره مرادفًا للكتاب. وشكل الكراس الذي يختلف عن اللقافة هو الشكل الذي تَبَنَّتْهُ المجتمعات الإنسانية بما فيها المجتمع الإسلامي. وكان القرآن أول

(٢١) أدى التنافس بين البطالسة والأتاليين (Attalides) إلى منع تصدير البردي إلى برغامة، مما دفع هذه إلى صنع الرق الذي استمدّ اسمه من المدينة نفسها ودخل اللغات باسم المدينة التي صنع فيها parchemin في الفرنسية وPergment في الإنجليزية.

كتاب عربي أخذ شكل الكراس. ومن حيث حجمه وأوراقه ففيها خلاف. أثبت البحث في المخطوطات أن عدد أوراق الكراس عشر ورقات، ولكن توجد مخطوطات بها كراسات من ثمان ورقات أو تسع ورقات أو إحدى عشرة ورقة أو اثنتا عشرة ورقة. ظهر هذا النوع الأخير في الأندلس، ويُعتقد أنه حدث من جرّاء تأثر المسلمين بالنُسخ اليهود، الذين ثبت عندهم أن عدد أوراق كراسات المخطوطات العبرية في الغرب الإسلامي هو اثنتا عشرة ورقة^(٢٢).

ومن الباحثين من يخلط بين الاختصار والتلخيص. فالاختصار هو الإيجاز وحذف الزيادات. أما التلخيص فهو لغةً التبيين والشرح ويعني اصطلاحاً التقريب والاختصار. فهو أعمّ من الاختصار الذي يُعتبرُ جزءاً منه وخطوة من خطواته. فالتلخيص إذن هو الشرح والاختصار. وأختِمْ هذه الأمثلة التي استجليتُ بها بعض ما كان يبدو غامضاً من مصطلحات المخطوط العربي بالحديث عن مصطلحين حديثين من اقتراح باحث رصين^(٢٣)، هما البيلوغرام والبيليوكرونوغرام. وقد استنبطنا من ظاهرة خاصة بالتراث العربي، هي ظاهرة التأليف النصي المحوري، التي تتمثل في كون كثير من المؤلفات العربية قد حظيت بظهور كتب تالية تدور حولها، وترتبط بها بصور متعددة، سواء بالتلخيص أو الاختصار أو الشرح أو الاستدراك أو التحشية أو غيرها. والجدير بالذكر أن ظاهرة التأليف النصي المحوري استمرت في كل عصور الحضارة العربية الإسلامية. ويذكر

(٢٢) معظم الكراسات التي تحتوي على ثمان ورقات وإحدى عشرة ورقة وجدتها محفوظة في مكتبات برلين وتوبنجن بألمانيا.

(٢٣) عرفات كمال نبهان في كتاب عن البيليوغرام. إن لهذه الظاهرة جذورًا في كتابي مفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاش كبرى زاده وكشف الظنون لحاجي خليفة.

صاحب هذه الظاهرة أنها تمثل وجهًا مشرقًا وملمحًا مشرقًا للأخلاق الإسلامية النبيلة، بحيث يؤلف باحث كتابًا في ستة مجلدات ليذيل به كتابًا من حجم صغير^(٢٤).

واقترح صاحب هذا المشروع نظامًا لنظرية التأليف النصي المحوري يتمثل في الببليوغرام، وهو مخطط علاقات النصوص بمعنى أنه يصور العلاقات التأليفية الببليوغرافية بين النصوص. والببليوكرونوغرام^(٢٥)، أي المخطط الزمني لعلاقات النصوص، الذي يمثل المسافات الزمنية التي يستمر فيها تأثير النص في نصوص أخرى تابعة له^(٢٦). ووضع لهذه العملية إطار نظرية لدراسة التأليف وعلاقات النصوص دراسة تكاملية منهجية هي الببليوغرافيا التكوينية (Bibliographie génétique). وهي التي تهتم بالعمليات التكوينية التوالدية للنصوص وعلاقات النسب بينها. وللتدليل على ظاهرة التأليف النصي المحوري نكتفي بما أورده حاجي خليفة عن تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٤٦٣هـ) وما تفرّع عنه من ذيول واستدراكات وصلات وغيرها. فقد ذيله أولاً ابن السمعاني (٦٦٢هـ) في خمسة عشر مجلدًا، ثم جاء عماد الدين الكاتب ووضع ذيلًا على ذيل ابن السمعاني وذكر ما أغفله أو أهمله وسماه السيل على الذيل وهو ثلاثة مجلدات. وذيله ابن الديبشي

(٢٤) كثير من المؤلفين يكتبون كتابًا ويختصرونه. وكثيرًا ما يضيع الكتاب ويقتصر الاختصار. ومنهم من يؤلف ويلخص ويختصر كما صنع السيوطي في كتاب طبقات النحاة الذي هو أجمع طبقات النحاة. فإنه جمع ما في كتب الأقدمين فأوعى في سبعة مجلدات ثم لخصها في مجلد وهو الوسطى ثم اختصره ثانيًا في مجلدين وسماه بغية الوعاة.

(٢٥) Bibliogram: مخطط: gram، كتاب: Biblio.

Bibliochronogram: مخطط: gram، زمني: chrono، كتاب: Biblio.

(٢٦) ظهرت سلسلة متتابعة من الذيول وصلت إلى ثمانية قرون. وهذه الظاهرة لا وجود لها في الثقافات والحضارات الأخرى.

الواسطي (٥٦٣٧هـ) وذكر ما لم يذكره ابن السمعاني. ثم جاء ابن القطيعي وألّف صلة جعلها ذيلًا على ذيل ابن الدبيشي، وأخذ شمس الدين الذهبي (٥٧٤٨هـ) ذيل الدبيشي ولخصه واختصره في نصفه. ولا ابن النجار (٥٦٤٣هـ) ذيل عظيم على تاريخ الخطيب نفسه فأوعى. وذيل ذيل ابن النجار محمد بن رافع (٥٧٧٤هـ). وذيله أيضًا ابن المارستانية، وذيله أيضًا ابن أنجب الساعي (٥٦٧٤هـ). واختصر تاريخ البغدادي أبو اليمن مسعود البخاري (٥٤٦١هـ)^(٢٧).

هذه بعض الأمثلة على مصطلحات المخطوط العربي التي ولدت ونمت مع نمو علم المخطوط من حيث شكله ومادته وزخرفته وصناعته. ويقدر التضلع من هذا التخصص يكون الشعور بضرورة صناعة المصطلح وضبطه وتنميته والمناقشة فيه باعتباره الوسيط في الوصف والتصوير بغاية التفاهم والتقدم^(٢٨).

(٢٧) حاجي خليفة: كشف الظنون: (١/ ٢٨٨).

(٢٨) معجم مصطلحات المخطوط العربي: تقدم ص (٧).

استدراك على الأصمعيات للأصمعي
«عبد الملك بن قريب المتوفى ٢١٦هـ»

القسم الثاني^(*)

أ. ناصر توفيق الجباعي^(**)

مقدمة:

قصيدة عبيد بن الأبرص^(***)

ورد في الخزانة عند الحديث عن الشاهد الثاني والعشرين بعد التسعمئة:

« قَدْ أَتْرُكُ الْقِرْنَ مَصْفَرًّا أَنَامِلُهُ

وهو صدر وعجزه: كَأَنَّ أَثْوَابَهُ جُحَّتْ بِفِرْصَادِ

والبيت من قصيدة لعبيد بن الأبرص أوردها الأصمعي في الأصمعيات^(١) « ولا يوجد لعبيد بن الأبرص أي شعر في الأصمعيات المنشورة، وقال محقق ديوان عبيد:

(*) نُشر القسم الأول في الجزء (٢) من المجلد (٨٤).

(**) باحث في الأدب والنقد من سورية.

(***) هو عبيد بن الأبرص بن عوف بن جشم الأسدي من مضر، أبو زياد، شاعر من دهاة الجاهلية، وحكامها. جعله ابن سلام في الطبقة الرابعة من الجاهليين. انظر: طبقات ابن سلام: ج ١ ص ١٣٨، والمؤتلف والمختلف: الأمدي: ص ٥٠. والأغاني: ج ١٩ ص ٨٤، والخزانة: ج ٢ ص ٢١٥.

(١) خزانة الأدب: البغدادي، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط ١، مكتبة الخانجي، القاهرة، دار الرفاعي الرياض، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م. ١٠ / ١٠٢.

«أوردها الأصمعي في الأصمعيات، ولكنها ليست في مجموعة الأصمعيات التي نشرها ألورد عن مخطوطة في فينا، وليست في اختيارات كرينكو من المفضليات والأصمعيات^(١)». ونورد القصيدة كما جاءت في الديوان، قال عبيد بن الأبرص:

١- طافَ الحَيَالُ عَلَيْنَا لَيْلَةَ الوَادِي مِنْ أُمِّ عَمْرٍو، ولم يُلِمِّمْ لِمِيعَادِ

قوله: ولم يُلِمِّمْ لِمِيعَادِ: أي التَّقِينَا على غَيْرِ مِيعَادِ.

٢- أَلَى اهْتَدَيْتَ لِرَكْبٍ طَالَ سَبِيلُهُمْ فِي سَبَسٍ بَيْنَ دَكْدَاكِ وَأَعْقَادِ

قوله: أَلَى اهْتَدَيْتَ: كَيْفَ اهْتَدَيْتَ. والسَّبَسُ: المَفَازَةُ والقَفْرُ، وما استوى من الأَرْضِ. الدَكْدَاكُ: السُّهُولَةُ أو ما التبدَّ من الرَّمْلِ ولم يَرْتَفِعْ. والأَعْقَادُ: جَمْعُ عَقْدٍ، وهو الرَّمْلُ المتراكَمُ.

٣- يُكَلِّفُونَ سُرَاهَا كُلَّ يَعْْمَلَةٍ مِثْلَ المِهَاءِ إِذَا مَا اخْتَبَّهَا الحَادِي

قوله: يُكَلِّفُونَ: يُجْشِمُونَ. والسُّرَى: السَّيْرُ لِيلاً. واليَعْْمَلَةُ: النَّاقَةُ القويَّةُ على العَمَلِ في سَبِيلِهَا. والمِهَاءُ: البَقْرَةُ.

٤- أَبْلِغْ أبا كَرِبٍ عني وَأَسْرَتَهُ قَوْلًا سَيَذْهَبُ عَوْرًا بَعْدَ إِنجَادِ

قوله: أبو كَرِبٍ: هو عمرو بن الحارث بن عمرو بن حُجْرٍ آكل المَرَارِ (عن ابن الشَّجَرِيِّ). والعَوْرُ: ما انْحَفَضَ من الأَرْضِ. والنَّجْدُ: ما ارتفعَ منها. وأُنْجِدَ الرجلُ: أَتَى بَجْدًا.

٥- يا عَمْرُو ما راحَ من قَوْمٍ ولا ابْتَكُرُوا إِلَّا ولِلْمَوْتِ في آثارِهِم حَادِي

قوله: ابْتَكُرُوا: بَكَرُوا. والحَادِي: السائِقُ. يُرِيدُ أَنَّ المَوْتَ آتٍ على جميع الأَقْوامِ.

٦- يا عمرو ما طَلَعَتْ شَمْسٌ ولا غَرَبَتْ إِلَّا تَقَرَّبَ آجالُ لِمِيعَادِ

(١) ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق: د. حسين نصار، ط ١، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م. ص ٤٦.

٧- هَلْ نَحْنُ إِلَّا كَأَنْوَاحٍ تَمْرٌ بِهَا تَحْتَ التُّرَابِ وَأَجْسَادٍ كَأَجْسَادِ

٨- فَإِنْ رَأَيْتَ بَوَادٍ حَيَّةً ذَكَرًا فَاْمَضِ وَدَعْنِي أَمَارِسَ حَيَّةَ الْوَادِي

قوله: حَيَّةً ذَكَرًا: لَأَنَّهُ أَحْبَبْتُ الْحَيَّاتِ. وَأَمَارِسُ: أَعَالِجُ. حَيَّةُ الْوَادِي: يُطْلَقُ عَلَى الرَّجُلِ نَهَايَةَ فِي الدَّهَاءِ وَالْحُبْثِ وَالْعَمَلِ.

٩- لَا أَعْرِفَنَّكَ بَعْدَ الْمَوْتِ تَنْدُبِي وَفِي حَيَاتِي مَا زَوَّدْتَنِي زَادِي

١٠- فَإِنْ حَيِّتُ فَلَا أَحْسِبُكَ فِي بَلَدِي وَإِنْ مَرَضْتُ فَلَا أَحْسِبُكَ عَوَادِي

١١- إِنْ أَمَامَكَ يَوْمًا أَنْتَ مُدْرِكُهُ لَا حَاضِرٌ مُفْلِتٌ مِنْهُ وَلَا بَادِي

قوله: الْحَاضِرُ: سَاكِنُ الْحَضَرِ. وَالْبَادِي: سَاكِنُ الْبَادِيَّةِ.

١٢- فَاَنْظُرْ إِلَى فِيءِ مُلْكٍ أَنْتَ تَارِكُهُ هَلْ تُرْسَيْنَ أَوْ أَحْيِيهِ بِأَوْتَادِ

قوله: فِيءِ مُلْكٍ: ظِلُّ مُلْكٍ. وَتُرْسَيْنَ: تُتَبَّنَنَ. الْأَوَاحِي: جَمْعُ آخِيَةٍ: وَهُوَ الْحَبْلُ يُدْفَنُ طَرْفَاهُ فِي الْأَرْضِ، وَفِيهِ عُصِيَّةٌ أَوْ حُجْبِيرٌ، فَتَنْظَهُرُ مِنْهُ مِثْلُ عُرْوَةٍ، تُشْتَدُّ إِلَيْهِ الدَّابَّةُ.

١٣- الْخَيْرُ يَبْقَى وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ بِهِ وَالشَّرُّ أَحْبَبْتُ مَا أَوْعَيْتَ مِنْ زَادِ

قوله: أَوْعَى: حَفِظَ فِي الْوَعَاءِ.

١٤- أَذْهَبَ إِلَيْكَ فَيَأْتِي مِنْ بَنِي أَسَدِ أَهْلُ الْقَبَابِ وَأَهْلُ الْجُرْدِ وَالنَّادِي

قوله: أَذْهَبَ إِلَيْكَ: زَجَرَ، يُرِيدُ أَذْهَبَ إِلَى قَوْمِكَ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: فَيَأْتِي مِنْ بَنِي أَسَدِ. الْجُرْدُ: الْحَيْلُ الْقَلِيلَةُ الشَّعْرِ، وَأَهْلُ الْقَبَابِ وَأَهْلُ النَّادِي: هُمُ السَّادَةُ.

١٥- قَدْ أَتْرُكُ الْقِرْنَ مُضْفَرًا أَنَامِلُهُ كَأَنَّ أَنْوَابَهُ جَحَّتْ بِفِرْصَادِ

قوله: الْقِرْنَ: الْمِثْلِيُّ فِي الشَّجَاعَةِ. وَمُضْفَرًا أَنَامِلُهُ: أَيِ طَعْنَتْهُ فَتَزَفَ حَتَّى أَصْفَرَ. وَالْأَنَامِلُ: رُؤُوسُ الْأَصَابِعِ. وَجَحَّتْ: صَبِعَتْ. وَالْفِرْصَادُ: التُّوتُ، شَبَّهَ الدَّمَ بِعَصَارَتِهِ الْحَمْرَاءِ.

١٦- أَوْحَرْتُهُ وَنَوَاصِي الْحَيْلِ شَاحِبَةٌ سَمْرَاءُ غَامِلُهَا مِنْ خَلْفِهِ بَادِي

قوله: أَوْحَرْتُهُ: طَعَنْتُهُ. وَنَوَاصِي: جَمْعُ نَاصِيَةٍ، وَهِيَ شَعْرٌ مُقَدَّمُ الرَّأْسِ. وَشَاحِبَةٌ: مُتَغَيِّرَةٌ اللَّوْنِ مِنْ جُوعٍ أَوْ خَوْفٍ أَوْ غَيْرِهِمَا. وَسَمْرَاءُ: حَرْتَةٌ. وَالْعَامِلُ: مَا سَفَلَ عَنِ السَّنَانِ مِنَ الرَّمْحِ بِذِرَاعٍ أَوْ شِبْرٍ حَيْثُ يُعْقَدُ اللَّوَاءُ. وَبَادِي: ظَاهِرٌ^(١).

قصيدة عمرو بن قعاس المرادي^(*)

جاء في الطرائف عند الحديث عن تائية عمرو بن قعاس أو قنعاس المرادي، «وهي من اختيار الأصمعي وروايته^(٢)» ولا يوجد لهذا الشاعر اسم فيما نشر من الأصمعيات.

أما صاحب كتاب الاختيارين فقد ذكر الشاعر والقصيدة. وأورد منها ثلاثة عشر بيتاً^(٣)، في حين أنها تبلغ خمسة وعشرين بيتاً في الطرائف:

١- أَلَا يَا بَيْتُ بِالْعِلْيَاءِ بَيْتُ وَلَوْلَا حُبُّ أَهْلِكَ مَا أَتَيْتُ

٢- أَلَا يَا بَيْتُ، أَهْلُكَ أَوْعَدُونِي كَأَنِّي كُؤَلٌ ذَنْبِهِمْ جَنَيْتُ

٣- أَلَا بَكَرَ الْعَوَازِلُ، فَاسْتُمِيثُ وَهَلْ أَنَا خَالِدٌ، إِمَّا صَحْوْتُ

أَي بَكَرَنَ يُلْمَنِي فِي التَّطْرَابِ وَإِنْفَاقِ مَالِي. وَاسْتُمِيثُ: أَي طَلَبْتُ. قَالَ وَالظُّبَاءُ تُسَمَّى أَي

(١) وفي خزانة الأدب: ج ٤ ص ٥٠٣. بعد البيت الثاني قوله:

يَطُوفُونَ الْفَلَا فِي كُلِّ هَاجِرَةٍ مِثْلَ الْفَنَيْقِ إِذَا مَا حَتَّتْهُ الْحَادِي

(*) هو عمرو قعاس - ويقال: قنعاس بن عبد يغوث... المرادي جاهلي: انظر: معجم الشعراء:

ص ٢٣٦. والخزانة: ج ٣ ص ٥٥.

(٢) الطرائق الأدبية: تصحيح: عبد العزيز الميمني، المكتبة الأزهرية، تاريخ المقدمة: ١٩٣٧م ص ٧٢.

(٣) الأبيات الواردة في الاختيارين هي: من: ١ إلى ٧ ثم الأبيات: ١١، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦،

٢٥. ص ٢١١ وما بعدها.

تُطَلَّبُ وتُزَمَى نصف النَّهَارِ. قال: ومعنى قوله: استميت: أي صَادُونِي لِأَنِّي كُنْتُ فِي سَاعَةٍ لَسْتُ فِيهَا بِشَارِبٍ. فهل أنا خالِدٌ، إن لم أَشْرَبْ، ولم أَسْكُرْ.

٤- إذا مَا فَاتَنِي لِحْمٌ، غَرِيضٌ ضَرَبْتُ ذِرَاعَ بَكْرِي، فَاشْتَوَيْتُ

الغَرِيضُ: اللَّيْنُ الطَّرِيُّ. ورواية الاختيارين [قَطَعْتُ ذِرَاعَ بَكْرِي]

٥- وَكُنْتُ إِذَا أَرَى زِفَا مَرِيضًا يُسَاحُ عَلَى جَنَازَتِهِ، بَكَيْتُ

أي: إِذَا رَأَيْتُ قَوْمًا مُجْتَمِعِينَ عَلَيْهِ دَخَلْتُ مَعَهُمْ. قال: بَكَيْتُ لِمَا قَالَ: مَرِيضًا قَالَ: بَكَيْتُ، يَقُولُ: أَسْعَدْتَهُمْ أَنْعَى وَأَطْرَبُ مَعَهُمْ.

٦- أَرْجَلُ لِمَتِي، وَأَجْرُ ذَيْلِي وَتَحْمَلُ بِرَّتِي أَفْقٌ، كُمَيْتُ

يُقَالُ لِلذَّكَرِ وَالْأُنْثَى: أَفْقٌ، قَالَ: وَسَأَلْتُ يُونُسَ عَنِ الْأَفْقِ فَقَالَ الشَّدِيدُ الْمُوثِقُ. ورواية الاختيارين: [.. وَأَجْرُ نَوْبِي = وَتَحْمَلُ شِكَّتِي...]

٧- أَمَشِّي، فِي دِيَارِ بَنِي عُطَيْفٍ إِذَا مَا سَامَنِي ضَيْمٌ أَبِيتُ

ورواية الاختيارين:

[..... إِذَا مَا سَاءَنِي أَمْرٌ أَبِيتُ]

٨- وَبَيْتٍ لَيْسَ مِنْ شَعْرٍ وَصُوفٍ عَلَى ظَهْرِ الْمُطَيَّةِ قَدْ بَنَيْتُ

أي: جَعَلْتُ ظَهْرَ الْمُطَيَّةِ بَدَلًا مِنَ الْبَيْتِ. وَقِيلَ عَمِلْتُ بَيْتَ شِعْرٍ فِي هِجَاءِ مَلِكٍ لَمْ يَهْجِهْ أَحَدٌ.

٩- أَلَا رَجُلًا جَزَاهُ اللَّهُ خَيْرًا يَدُلُّ عَلَى مُحْصَلَةٍ، تَبَيْتُ

قوله: الْمُحْصَلَةُ: الْمَرْأَةُ الَّتِي تَسْتَخْرِجُ الذَّهَبَ مِنْ تُرَابِ الْمَعْدِنِ.

١٠- تُرَجَّلُ لِمَتِي وَتَقْمُ بَيْتِي وَأَعْطِيهَا الْإِتَاوَةَ، إِنْ رَضَيْتُ

وقوله: تقم: تكسس. والإتاوة: الأجرة.

١١- وسوداء المحاجر، إلفِ صَحْرٍ تُلَاحِظُنِي التَّلُوعَ، قَدْ رَمَيْتُ

قال اللفظ على الأروية والمعنى على امرأة، شَبَّهَهَا بِالْأَرْوِيَةِ، لامتناعها.

١٢- وَعُصْنٌ، لَيْسَ مِنْ شَجَرٍ رَطِيبٍ هَصَرْتُ إِلِيَّ، مِنْهُ، فَاجْتَنَيْتُ

يُريد امرأةً أَمَاحًا إِلَيْهِ بِقُوْدِهَا.

١٣- وَمَاءٌ لَيْسَ مِنْ عِدٍّ، رَوَاءٍ وَلَا مَاءِ السَّمَاءِ، قَدْ اسْتَقَيْتُ

المعنى: أَنَّهُ رَشَفَ رِيقَ امْرَأَةٍ. قَالَ وَسَأَلَنِي أَعْرَابِيٌّ عَنْ هَذَا فَأَخْبَرْتُهُ فَأَبَاهُ، فَأَخْبَرْتَهُ أَنَّهُ افْتِظَاطٌ كَرِشٍ فَقَالَ: هَكَذَا يَزْعُمُ بِالْبَادِيَةِ.

١٤- وَتَامُورٍ هَرَفْتُ، وَلَيْسَ حَمْرًا وَحَبَّةَ غَيْرِ طَاحِنَةٍ، فَلَيْتُ

التامور: شَيْءٌ يُشَبَّهُ بِالْحَمْرِ وَبِالدَّمِّ وَبِالصَّبْغِ، وَإِنَّمَا يَعْنِي هَهُنَا دَمًا هَرَّاقَهُ، وَحَبَّةٌ نَفْسِهِ: حَاجَتْهَا. يُقَالُ: اجْعَلْ ذَلِكَ فِي حَبَّةِ نَفْسِكَ. وَرَوَايَةُ الْاِخْتِيَارِينَ: [...] قَضَيْتُ]

١٥- وَلَحْمٍ، لَمْ يَذُقْهُ النَّاسُ قَبْلِي أَكَلْتُ عَلَى خَلَاءٍ، وَانْتَقَيْتُ

لم يعرف الأصمعي معناه. وقال غيره: يعني أَنَّهُ ذَبَحَ ابْنَهُ، وَهُوَ سَكَرَانٌ، فَأَكَلَ لَحْمَهُ. [والظاهر أَنَّهُ يَرِيدُ الْاِغْتِيَابَ]

١٦- وَبَرَكَ قَدْ أَثَرْتُ، بِمَشْرِئِي إِذَا مَا زَلَّ عَنْ عُقْرِ، رَمَيْتُ

أي قد أثرت هذا البرك من الإبل (بمشرئي) وهو سيفه. فحين زلّت عن العقر، فَخَافَ أَنْ تُقُوْتَهُ، رَمَاهَا. وَالْعُقْرُ: حَيْثُ تَقَعُ أَيْدِيهَا عَلَى الْحَوْضِ. يَقُولُ: خَافَ أَنْ تَبْرَكَ، فَبَادَرَهَا فَرَمَاهَا.

١٧- وَصَادِرَةٌ مَعًا وَالْوَرْدُ شَيْءٌ عَلَى أَدْبَارِهَا أَصْلًا حَدَوْتُ

١٨- وَعَادِيَةٌ لَهَا دَنْبٌ طَوِيلٌ رَدَدْتُ، بِمُضْعَعَةٍ، مِمَّا اشْتَهَيْتُ

في المخطوطتين اللتين بين أيدينا من كتاب الاختيارين^(١) «علمًا بأن هذا الديوان رواية الأثرم وأبي عبيدة عن الأصمعي. كما أنه لا يوجد للمتلمس شعر في كتاب الاختيارين المنشور للأخفش الأصغر المتوفى سنة (٥٣١هـ). قال المتلمس^(٢):

١- صَبَا مِنْ بَعْدِ سَلْوَتِهِ فُؤَادِي وَأَسْمَحَ لِلْقَرِينَةِ بِانْقِيَادِ

٢- كَأَنِّي شَارِبٌ يَوْمَ اسْتَبَدَّوْا وَحَثَّ بِهِمْ لَدَى الْمَوْصَاةِ حَادِ

قوله: استبدوا: مضوا ولم يُشركوني، ويُقال: تبادوا القوم: إذا أخذ كل واحد قرنه.

٣- عُقَارًا عَتَقْتُ فِي الدَّنِّ حَتَّى كَأَنَّ حَبَابَهَا حَادِقُ الْجِرَادِ

وإنما سُميت عُقَارًا لأنها عَاقَرَتِ الدَّنَّ. والدَّنُّ: وعاءٌ ضخمٌ للخمرِ ونحوه. والحَبَابُ: حَبَابُ الماءِ بالفتح مُعْظَمُهُ، وقيل نفاخاته التي تَعْلُوهُ، وما يطفو على الشَّرَابِ. والجِرَادُ: فصيلةٌ من الحشرات المستقيمات الأجنحة، واحده: جِرَادَةٌ، للذكر والأنثى.

٤- جَمَادٍ لَهَا جَمَادٍ وَلَا تَقُولِي لَهَا أَبَدًا إِذَا ذُكِرَتْ حَمَادٍ

فلا أُعْطِيَتْ خَيْرًا. ويُقال: فلانٌ جامدٌ الحَيْرِ، أي لا تندى يدها بخير ولا شر.

٥- فِيمَا حُبُّهَا عَرَضًا وَإِمَا بِشَاشَةِ كُؤُلٍ عُلِقَ مُسْتَفَادٍ

قوله: العُلُقُ: المأل الكريم، والعُلُقُ: النَّفِيسُ من كُلِّ شَيْءٍ، سُمِّيَ به لِتَعْلُقِ القَلْبِ به، والعُلُقُ: أيضًا الخمرُ لِنَفَاسَتِهَا، وقيل هي القَدِيمَةُ منها.

٦- وَأَعْلَمُ عِلْمَ حَقِّ غَيْرِ ظَنِّ وَتَقْوَى اللَّهِ مِنْ خَيْرِ الْعَتَادِ

قوله: العَتَادُ: العدة. يُقال: أَعَدَّ الشَّيْءَ وَاعْتَدَّهُ؛ وهذا من قول الله عز وجل ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥].

(١) ديوان المتلمس الضبعي: تحقيق: حسن كامل الصيرفي، الشركة المصرية للطباعة والنشر، مصر،

١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م ص ١٦٣.

(٢) المصدر السابق: ص ١٦٥.

- ٧- حَفِظَ الْمَالِ أَيْسَرُ مِنْ بُغَاةٍ وَسَيْرٌ فِي السَّبَادِ بِغَيْرِ زَادٍ
٨- وَإِصْلَاحُ الْقَلِيلِ يَزِيدُ فِيهِ وَلَا يُبْقَى الْكَثِيرُ مَعَ الْفَسَادِ
يُقَالُ: فَسَدَ الشَّيْءُ فَسَادًا وَفُسُودًا، وَصَلَحَ صَلَاحًا وَصُلُوحًا.

قصيدة المرقش الأكبر (*)

قال ابن قتيبة في حديثه عن أقسام الشعر: «وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه...»

من هذا الضرب أيضًا قول المرقش:

هَلْ بِالْدِّيَارِ أَنْ تُجِيبَ صَمَمٌ لَوْ أَنَّ حَيًّا نَاطِقًا كَلَّمَ
يَأْبَى الشَّبَابُ الْأَقْوَرَيْنِ وَلَا تَغْبِطُ أَحَاكَ أَنْ يُقَالَ حَكَمٌ

والعجب عندي من الأصمعي إذ أدخله في مُتَخَيَّرِهِ، وهو شعْرٌ ليس بصحيح الوزن ولا حسن الرّوي ولا لطيف المعنى^(١)»

وذكر ابن قتيبة أحياناً من القصيدة كان قد استجادها الأصمعي هي البيت (٦ - ١٥) والقصيدة مسطورة في اختيارات المفضل الضبي. ولا يوجد ذكر للمرقش الأكبر في الأصمعيات.

وفي شرح المفضليات قال الأصمعي^(٢): «إنها للأصغر:

١- هَلْ بِالْدِّيَارِ أَنْ تُجِيبَ صَمَمٌ لَوْ كَانَ رَسْمٌ نَاطِقًا كَلَّمَ
٢- الدَّارُ قَفْرٌ وَالرُّسُومُ كَمَا رَقَّشَ فِي ظَهْرِ الْأَدِيمِ قَلَمٌ

(*) هو عمرو بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس... من بني بكر بن وائل. انظر: المؤلف

والمختلف: ص ١٨٤. ومعجم الشعراء: ص ٢٠١.

(١) الشعر والشعراء: ابن قتيبة: ج ١ ص ٧٢.

(٢) شرح المفضليات: التبريزي: تحقيق: علي محمد الجاوي: ج ٢ ص ٨٦٤. وتحقيق: د. فخر

الدين قباوة: ج ٢ ص ١٠٥٤.

قالوا: سُمي مُرْقَشًا بهذا البيت، والقصد إلى تشبيه الرسوم بكتابة مُنَمَّقة. شَبَّه آثار الدَّارِ بِأثرِ القلمِ في الأديم.

٣- دِيَارُ أَسْمَاءَ الَّتِي تَبَلَّتْ قَلْبِي، فَعَيْني مَاؤُهَا يَسْجُمُ

تَبَلَّتْ قَلْبُهُ: أَصابته بتبلي، يسْجُمُ: يُقْطِرُ.

٤- أَضْحَتْ خَلَاءً نَبْتُهَا تُبْدُ نَوْرَ فِيهَا زَهْوُهُ فَاعْتَمَّ

خَلَاءً: خاليةً. وَالثَّدُّ: النَّدِيُّ. وَزَهْوُهُ: لَوْنُهُ من أحمِر وأصفر وأبيض. وَاعْتَمَّ: كَثُرَ وَاسْتَدَّ خَصَاصُهُ.

٥- بَلْ، هَلْ شَجَّتْكَ الظُّعْنُ بِأَكْرَهُ كَأَنَّهِنَّ النَّخْلُ مِنْ مَلْهَمٍ؟

ملهم: موضع. وَالشَّجَا: الحُزْنُ. وَالظُّعْنُ: النساءُ بموادجهن.

مَلْهَمٌ: قَرْيَةٌ باليمامةِ لبني يشكر، وَأَخْلَاطٌ من بني بكر، موصوفةٌ بكثرةِ النخْلِ.

٦- النَّشْرُ مِسْكٌ وَالْوُجُوهُ دَنَا نَيْرٌ وَأَطْرَافُ الْأَكْفِ عَنَّمْ

النَّشْرُ: الرِّيحُ. وَالعَنَمُ: شَيْءٌ أَحْمَرٌ يَنْبُثُ فِي شَجَرِ السَّمَرِ، وليس منها. وَيُقَالُ: العَنَمُ: شَيْءٌ يَنْبُثُ بِالْحِجَازِ يَلْتَوِي عَلَى الشَّجَرِ، وَهُوَ أَحْضَرُ تَعْشَاهُ حُمْرَةٌ، كَأَنَّهُ أَطْرَافُ الْأَصَابِعِ.

٧- لَمْ يَشْخُ قَلْبِي مِنَ الْحَوَادِثِ إِلَّا لِصَاحِبِ الْمِثْرُوكِ فِي تَعْلَمِ

شجَاه يشجوه، إِذَا أَحْزَنَهُ. وَتَعْلَمٌ: قِيلَ هِيَ أَرْضٌ بَعِيدَةٌ مُضِلَّةٌ. وَقِيلَ: هُوَ اسْمٌ لِلدَّاهِيَةِ. فَهِيَ فِي أَسْمَاءِ الدَّوَاهِي كَتَحْوُطٌ فِي أَسْمَاءِ السَّنِينِ وَقِيلَ: مَوْضِعٌ.

٨- تَعَلَّبُ ضَرَابُ الْقَوَانِسِ بِالسِّدِّ حَيْفٌ وَهَادِي الْقَوْمِ إِذْ أَظْلَمَ

تعلب: أَرَادَ بِهِ تَعَلَّبَ بَنَ عَمْرُو بَنَ مَالِكِ بَنَ ضَبِيْعَةَ بَنَ قَيْسِ بَنِ ثَعْلَبَةَ، وَكَانَ لِقَبِهِ الْحُشَامُ. وَالْقَوَانِسُ: أَوْسَاطُ الرُّؤُوسِ، وَالوَاحِدُ قَوْنَسٌ. وَهُوَ مِنَ الْقَرْسِ عَظْمٌ تَحْتَ النَّاصِيَةِ. وَقِيلَ: الْقَوَانِسُ أَيْضًا: الْحَدِيدَةُ الطَّوِيلَةُ فِي وَسْطِ الْبَيْضَةِ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا هَذِهِ الْحَدِيدَةُ فَهِيَ تَرَكُّ. وَمَعْنَى أَظْلَمَ: صَارَ فِي الظَّلَامِ لِإِشْكَالِ الرَّأْيِ.

٩- فَاذْهَبْ، فِدَى لَكَ ابْنُ عَمِّكَ لَا خَالِدَ إِلَّا شَابَهُهُ وَإِرْمَ

اذهب: إظهار يأس من ليثه، وليس بأمر، إنما هو استسلام. وقوله: فِدَى لَكَ ابْنُ عَمِّكَ: ظاهرُهُ الدَّعَاءُ لَهُ، والمعنى تبيينُ رضاه عنه مُدَّةَ حياته. وقوله: لَا خَالِدَ إِلَّا شَابَهُهُ وَإِرْمَ؛ هذا تَسْلٌ ورضا بالمقدور. وشَابَهُهُ وَإِرْمَ: جبلان.

١٠- لَوْ كَانَ حَيٌّ نَاجِيًّا لَنَجَا مِنْ يَوْمِهِ الْمَرْزَمُ الْأَعْصَمُ

المرزم: الوعل. والأعصم: الذي في يديه بياض، ومنه قيل للفرس: أعصم إذا كان في إحدى يديه بياض.

١١- فِي بَادِيَاتٍ مِنْ عَمَائَةٍ أَوْ يَرْفَعُهُ دُونَ السَّمَاءِ حَيْمَ

الباديات: الجبال الطوال. وقوله: عَمَائَةٍ وَحَيْمَ: أسماءُ جبال.

١٢- مِنْ دُونِهِ بَيْضُ الْأَنْوِقِ وَفَوْ قَهُ طَوِيلُ الْمُنْكَبِ أَشْمُ

قوله: مِنْ دُونِهِ: أي من دون هذا الوعل بَيْضُ الْأَنْوِقِ. وَالْأَنْوِقُ: الرَّحْمَةُ، وهي لَا تَبْيِضُ إِلَّا فِي أَعْيُنِهَا مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَمْكِنَةِ، فَيُرِيدُ أَنَّ الرَّحْمَةَ تَقْصُرُ عَنْ بَلُوغِ هَذَا الْجَبَلِ الطَّوِيلِ. طَوِيلُ الْمُنْكَبِ: يَرِيدُ جَبَلًا. وَالْأَشْمُ: الْمَشْرِفُ، وَمِنْهُ رَجُلٌ أَشْمٌ: إِذَا ارْتَفَعَتْ أَرْزَبَتُهُ وَأَشْرَفَتْ.

١٣- يَرْفَاهُ حَيْثُ شَاءَ مِنْهُ وَإِمَّ نُنْسِيْنُهُ مَيْتَةً يَهْرَمُ

نُنْسِيْنُهُ: تُؤَخِّرُهُ، وَمِنْهُ سُمِّيَتْ النَّسِيْنَةُ نَسِيْنَةً. وَيُرْوَى: يَرْتَادُ مِنْهُ حَيْثُ شَاءَ.

١٤- فَعَالَهُ رَبُّ الْحَوَادِثِ حَا سَى زَلَّ عَنْ أَرْزَادِهِ فَحَطِمَ

الأرزاد: جمع رَيْد، وهي حَيْوُدٌ فِي الْجَبَلِ، أَيْ تُتَوَّءُ فِيهِ. وَحَطِمَ: تَكَسَّرَ.

١٥- لَيْسَ عَلَى طَوْلِ الْحَيَاةِ نَدَمٌ وَمِنْ وَرَاءِ الْمَرْءِ مَا يَعْلَمُ

الأصمعي: أراد ليس على فَوَتْ طُول الحياة نَدَمٌ. وقوله: من وراء المرء ما يَعْلَمُ: يقول: من عملَ شيئاً وجَدَه. وقوله: ووراء: هاهنا أمام وهو من الأضدادِ.

١٦- يَهْلِكُ وَالِدٌ وَيُخْلَفُ مَوْ لُودٌ وَكُلُّ ذِي أَبِي يَيْتَمُ

١٧- وَالْوَالِدَاتُ يَسْتَفِدْنَ غِنًى ثُمَّ عَلَى الْمِقْدَارِ مَنْ يُعْغَمُ

أي على المقدارِ مَنْ يُجْرِمُ الْوَالِدَ مِنْهُنَّ.

١٨- مَا ذُنُبْنَا فِي أَنَّ عَزَا مِلْكٌ مِنْ آلِ جَفْنَةَ حَارِثٍ مُرْغَمٌ

قوله: مُرْغَمٌ: يُرْغَمُ عَدُوَّهُ.

١٩- مُقَابِلٌ بَيْنَ الْعَوَاتِكِ وَالْغُلْفِ لَا نِكْسٌ وَلَا تَوَامٌ

قوله: مُقَابِلٌ: كَرِيمٌ الْأَبِينِ. وَالْغُلْفُ: يَرِيدُ غُلْفَاءَ، وَسَلْمَةٌ، عَمِّي امرئ القيس. وَالنِّكْسُ: اللَّئِيمُ. وَالتَّوَامُ: يَكُونُ ضَعِيفًا، لِأَنَّهُ يِقَارَنُ آخَرَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ. وَالْعَوَاتِكُ: جَمْعُ عَاتِكَةٍ، وَيَكُونُ مِنْ أَسْمَاءِ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، وَكُلُّ قَدِيمٍ كَرِيمٍ: عَاتِكَةٌ. وَرَوَايَةٌ أَبِي عَمْرٍو: غُلْفٌ. وَرَوَايَةٌ الْأَصْمَعِيِّ، غُلْفٌ، فَمَنْ رَوَى الْغُلْفَ: أَرَادَ وَكَلَّدَ غُلْفَاءَ مَعْدِي كَرِبٍ. وَمَنْ رَوَى الْغُلْفَ: أَرَادَ وَكَلَّدَ عِلَافٍ مِنْ قُضَاعَةَ.

٢٠- حَارِبٌ وَاسْتَعْوَى قَرَاظِبَةً لَيْسَ لَهُمْ مِمَّا يُحَازُ نَعَمٌ

اسْتَعْوَى: اسْتَدْعَى. وَالْقَرَاظِبَةُ: الْوَاحِدُ: قُرْضُوبٌ أَوْ قُرْضَابٌ، الَّذِينَ لَا مَالَ لَهُمْ. وَالتَّقْدِيرُ: لَيْسَ لَهُمْ نَعَمٌ مِمَّا يُحَازُ، أَي مِمَّا يَصِيرُ لَهُ حَيٌّ.

٢١- بَيْضٌ مَصَالِيْتُ وَجُوهُهُمْ لَيْسَتْ مِيَاهُ بَحَارِهِمْ بِعَمَمٌ

قوله: الْمَصَالِيْتُ: الْمُتَجَرِّدُونَ فِي أُمُورِهِمْ، النَّافِذُونَ فِيهَا. وَالْمَعْنَى أَنَّ مَاءَ الْكَرِيمِ فِي وَجْهِهِمْ.

٢٢- فَاَنْقَضَ مِثْلَ الصَّفْرِ يَقْدُمُهُ جَيْشٌ كَعْلَانِ الشَّرِيفِ لَهُمْ

قوله: العُلَانُ: جمع غَالٍ، وهي أوديةٌ فيها شَجَرٌ. واللَّهْمُ: الذي يلتهم كل ما مرَّ به لكثرتِه. والشُّرَيْفُ: مكان، وهو ماءٌ لبني ثُمَيْرٍ. وهو وادٍ مما يلي المشرق من وادي الشرير بنجد.

٢٣- إِنْ يَعْضِبُوا يَعْضِبُ لِدَاكِ كَمَا يَنْسَلُ عَنْ حِرْشَائِهِ الْأَرْقَمُ

الحِيَّةُ: حِرْشَاؤُهَا: جلدُها، أي وينسل كما تنسل الحية عن حِرشائها.

٢٤- فَنَحْنُ أَخْوَالُكَ عَمْرُكَ وَالْخَالُ لَهُ مَعَاظِمٌ وَحُرْمٌ

قوله: عَمْرُكَ: يَحْلِفُ بِعَمْرِهِ.

٢٥- لَسْنَا كَأَقْوَامٍ مَطَاعِمُهُمْ كَسَبُ الْخَنَاءِ وَنَهْكَهُ الْمَحْرَمُ

الخناء: الفسَادُ. أي لا نَحْوِ النَّاسِ لِيُعْطُونَا.

٢٦- إِنْ يُخْصِبُوا يَعَيِّرُوا بِخُصْبِهِمْ أَوْ يُجْدِبُوا فَهُمْ بِهِ الْأَمُّ

يقول: إِنْ نَالَهُمْ خَيْرٌ بَطَرُوا، وَإِنْ نَالَهُمْ ضَيْقٌ ذَلُّوا.

٢٧- عَامٌ تَرَى الطَّيْرَ دَوَاخِلَ فِي بُيُوتِ قَوْمٍ مَعَهُمْ تَرْتَمُ

قوله: ارتمامُها: طَلَبُهَا الشَّيْءَ تَأْكُلُهُ مِنْ شِدَّةِ السَّنَةِ.

٢٨- وَيَخْرُجُ الدُّخَانُ مِنْ خَلَلِ الشَّوْرِ كَلَوْنِ الْكُوْدُنِ الْأَصْحَمِ

قوله: الكودن: الْبِرْدُونُ الْبَطِيءُ فِي السَّيْرِ. وَالصُّحْمُ: حَمْرَةٌ إِلَى بِيَاضٍ. مِنْ خَلَلِ السَّوْرِ: مِنْ فُرُوجِهِ. وَالْأَصْحَمُ: الْأَسْوَدُ لَيْسَ بِشَدِيدِ السَّوَادِ وَفِيهِ صَفْرَةٌ.

٢٩- حَتَّى إِذَا مَا الْأَرْضُ زَيْنَتْهَا الـ سَبَبْتُ وَحَنَّ رَوْضُهَا وَالْأَكَمَّ

قوله: الرَّوْضُ: جَمْعُ رَوْضَةٍ. وَحَنَّ: عَلَا، وَطَالَ، وَالتَفَّ: وَالْأَكَمَّةُ: الْأَكَمَامُ.

٣٠- دَأَفُوا نَدَامَةً فَلَوْ أَكَلُوا الـ حُطْبَانَ لَمْ يُوحِذْ لَهُ عُلْقَمٌ

قوله: الخطبان: الحنظل الذي قد صار فيه خطب صفرة وخضرة والعلقم: شجر الحنظل. يقول: في صدورهم من العداوة ما لو أكلوا معه الحنظل ما وجدوا له مرارة، وكُلُّ مُرٍّ فهو علقم.

٣١- لَكِنَّا قَوْمٌ خَلَاتِقْنَا تَزِينُهَا عَفَافَةٌ وَكَرَمٌ

٣٢- أَمْوَالُنَا نَقِي النَّفُوسَ بِهَا مِنْ كُلِّ مَا يُدِينِي إِلَيْهَا الدَّمُ

٣٣- لَا يُبْعِدُ اللَّهُ التَّلْبُوبَ وَالْغَارَاتِ إِذْ قَالَ الْحَمِيسُ نَعَمٌ

قوله: لا يُبْعِدُ اللَّهُ: أي لا كان آخر عهدي. والحميس: الجيش. والنعم: الإبل. والتلبوب: التردّي بالسيوف، أو لبس السلاح كله. المعنى هذا نعم فأغبروا عليه.

٣٤- وَالْعَدَوَ بَيْنَ الْمَجْلِسَيْنِ إِذَا آدَ الْعَشِيُّ وَتَنَادَى الْعَمُ

العم: الجماعة من الناس. وتنادوا: تجالسوا في التدي، وذلك وقت مجيء الأضياف. وآد العشي: مال.

٣٥- يَأْتِي الشَّبَابُ الْأَقْوَرِينَ وَلَا تَغْبِطُ أَحَاكَ أَنْ يُقَالَ حَكَمٌ

قوله: الأقورين: الدواهي، والأمور العظيمة. وهذا كما قيل الشباب شعبة من الجنون، وذلك لأنّ الشباب يركب المشاق، ويهوى الأمور الداعية إلى الخطر. وقوله: ولا تغبط أحاك أن يقال حكم: يريد أنّ الرجل إذا شاخ وكبر وتحاكم إليه الناس لكبرته وتجربته فليس بمغبوط، لأنّ ما فاته من عصارة الشباب ولذات العيش هو أعزُّ مما حصل له، وأجدى عليه.

قصيدة مُضَرَّس بن رِبْعِيّ الأَسدي (*)

ورد في الخزانة عند الحديث عن الشاهد الحادي والعشرين بعد الشامخة وهو:

«وَقُلْنَ عَلَى الْفِرْدُوسِ أَوَّلَ مَشْرَبٍ أَجَلُ جَبْرِ إِنْ كَانَتْ أُبِيحَتْ دَعَائِرُهُ

والبيت أورده أبو محمد بن أحمد بن الخشاب مع بيت قبله، وهو:

تَحْمَلُ مِنْ ذَاتِ التَّنَانِيرِ أَهْلَهَا وَقَلَّصَ عَنْ نَهْيِ الدَّفِينَةِ حَاضِرُهُ

وهما من قصيدة لمضرس الأسدي، وأردهما الأصمعي في الأصمعيات وهي قصائد اختارها لهارون الرشيد فاشتهرت بالأصمعيات.

وأورد منها ابن المستوفي في شرح أبيات المفصل ستة عشر بيتاً^(١)»

ولا يوجد ذكر لمضرس بن ربيعي في الأصمعيات أو في كتاب الاختيارين.

ويتبع ترجمة الشاعر والبيت موضع الشاهد في كتب التراجم واللغة والأدب يمكن ترتيب القصيدة على النحو الآتي:

١- تَحْمَلُ مِنْ وَادِي أَشِيقَرِ حَاضِرُهُ وَالْوَى بِرَيْعَانِ الحِيَامِ أَعَاصِرُهُ

قوله: الأشيقر: جبلٌ باليمامة، وقرية لبني عكل. والحاضر: الحي العظيم. وألوى بالشبيء: ذهب به. والرّيع: النّماء والرّيادة، وأرضٌ مريعةٌ أي مخصبة.

٢- وَمَ يَنْقُ بِالوَادِي لِأَسْمَاءِ مَنْزِلُ وَحَوْرَاءِ إِلَّا مُزْمُنُ العَهْدِ دَائِرُهُ

قوله: دائره: الدائر: الهالك.

٣- وَلَمْ يَنْقُضِ الوَسْمِيّ حَتَّى تَنْكَرْتُ مَعَالِمُهُ، وَاعْتَمَّ بِالتَّبْتِ حَاجِرُهُ

(*) هو مُضَرَّس بن رِبْعِيّ بن لقيط بن خالد... من بني أسد، شاعر محسن متمكن. انظر: المؤلف

والمختلف: ص ٩١. ومعجم الشعراء: ص ٣٩٠. والخزانة: ج ٥ ص ٢٢.

(١) خزانة الأدب: ج ١٠ ص ١٠٣.

رواية إثبات المحصل: [لم ينفض... تغيرت]

قوله: الوَسْمِيُّ: مطرٌ أولُ الربيعِ لأنَّه يَسِمُ الأرضَ بالنباتِ فيصيرُ فيها أثرًا في أولِ السنة. الحاجرُ: مَنبِتُ الرَّمثِ ومُجْتَمَعُه ومُسْتَدَارُه.

٤- فلا تهلكنَّ النَّفْسَ لَوْمًا وحَسْرَةً على الشَّيءِ سَدَّاهَ لغيرِكَ قَادِرُهُ

٥- ولا تَيَّاسُنْ من صَالِحٍ أن تَنَالَهُ وإن كَانَ بُؤْسًا بَيْنَ أَيْدٍ تُبَادِرُهُ

٦- وما فاتَ فاترُكُهُ إذا عَزَّ واصطَبِرَ عن الدَّهرِ إذا دَارَتْ عليك دَوَائِرُهُ

رواية المؤلف والمختلف: [عن الدهر إن ...]

٧- فَإِنَّكَ لا تُعْطِي امرأً حَظًّا غيرِهِ ولا تَعْرِفُ الشَّقَّ الَّذِي العَيْثُ مَاطِرُهُ

٨- وَمَا الوَحْشُ أَبْكَنِي وَلَكِنْ ضَعَائِنُ دَعَاهُنَّ رُوَادُ المِلا وَمَصَايِرُهُ

قوله: الوَحْشُ: كُلُّ شَيْءٍ من دَوَابِ البَرِّ مما لا يُسْتَأْنَسُ به. رُوَادُ: الرائدُ الَّذِي يُرْسَلُ في التماسِ النَّجْعَةِ وطلبِ الكَلأِ والجمع رُوَادٌ. المَصِيرُ: الموضع الَّذِي تصيرُ إليه المِياه، والصَّيْرُ: المِياهُ يحضره الناس.

٩- دَعَاهُنَّ تَنوُمٌ وَسِدْرٌ شَجَّ بِهِ حَلوقُ الشَّعَابِ نَاعِمٌ النَّبْتِ ناضِرُهُ

قوله: التَّنوُمُ: شجرةٌ غبراءُ يأكلها التَّعامُ والظباءُ. والسِدْرُ: شجرُ النَّبَقِ. والشَّعْبُ: ما انفرجَ بينَ جبلين، وقيل: هي الطريقُ في الجبلِ، والجمع: الشَّعَابُ، وقيل الشَّعْبُ: مَسِيلُ المِياهِ في بطنِ الوادي.

١٠- تَحْمَلُ من ذاتِ التَّنَانِيرِ أَهْلُها وَقَلَّصَ عن هَمِي الدَّفِينَةِ حَاضِرُهُ

رواية إثبات المحصل:

[..... الجراميز..... من نو القرينة ظاهره]

قوله: ذاتِ التَّنَانِيرِ: قال ابنُ المستوفى: هو مَوْضِعٌ، وقال العيني: هي عَقَبَةٌ بجِزاءِ زُبالة، وقيل مُعَشَى بَيْنَ زُبالةِ والشقوقِ. وَقَلَّصَ: ارتفع. النَّهْيُ: العَدِيرُ. والدَّفِينَةُ: قال العيني: هو مَوْضِعٌ، وقال ابنُ المستوفى: هو فِعلَةٌ من قولهم: دَفَنْتُ الشَّيءَ، فهو مَدْفُونٌ ودَفِينٌ، وركبةٌ

دَفِينٌ إِذَا اندَفَنَ بَعْضُهَا وهذه الكلمة غير موجودة في معجم البكري، وفيه الدَّفين بلا هاء، قال: وهو وادٍ قَرِيبٌ من مكة. والحاضر: الحَيُّ العظيم.

١١- تَرَبَّعَنَ رَوْضَ الحَزْنِ حَتَّى تَعَاوَرَتَ سِهَامُ السَّفَا مُرِيَانُهُ وَظَوَاهِرُهُ

قوله: الحَزْنُ: قال الأزهري في بلاد العرب حَزْنَان: أحدهما حَزْنٌ بني يربوع، والحزْنُ الآخر ما بين زُبالة فما فوق ذلك مصعدًا في بلاد نجد، وهو الغليظ من الأرض في ارتفاع. ويقال: تَرَبَّعُوا وارتبعوا أصابوا رَبِيعًا، وتربعت الإبلُ في مكان كذا وكذا أي أقامت به. ويقال: تَرَبَّعْنَا الحَزْنَ والصَّمَانَ رَعِينَا. وتعاورت: اعتورا الشيء وتعاوروه: تداولوه.

ويقال: سَفَّتَ الرِّيحُ الترابَ تَسْفِيهِ سَفْيًا. دَرَّتَهُ، وقيل حَمَلَتْهُ فهو سَفْيٌ، وتَسْفِي الورق اليس سَفْيًا. وَمَرَنَ بَمَرْنٌ: هو لَيْتٌ في صلابَةٍ. والظَّوَاهِرُ: أشرافُ الأرض، ويُقال: هاجتْ ظُهُورُ الأرضِ وذلك ما ارتفع منها ومعنى هاجتْ: يَسَّ بِقُلُوبِهَا.

١٢- فَلَمَّا رَأَيْنَ الحَزْنَ قَلَّتْ لَطَافُهُ وَهَافَتْ لِأَيَّامِ الحُرُورِ أَبَاعِرُهُ

قوله: هَافَتْ: هَفَا في المشي هُفْوًا: أسرعَ وَخَفَّ فيه، وهو في الإبل: ضَوَّالُهَا كَهواميها. والحُرُورُ: الرِّيحُ البَارِدَةُ بالليل، وقد تكون بالنهار، وقيل: الحُرُورُ: استيقادُ الحرِّ ولفحُهُ. وهو يكون بالنهار والليل.

١٣- تَحَاتَّتْنَ وَاسْتَعَجَلْنَ كُلَّ مُقْلَصٍ مِنَ العَيْشِ يَلُوي بالسُّدُولِ تَحَاسِرُهُ

قوله: تَحَاتَّتْنَ: النون ضمير الطعائن. والْحَتُّ: الإسراعُ، تَحَاتَّتْنَ: تَسَارَعْنَ. واستعجلن: استعجلت زيدا طلبت عجلته. والمُقْلَصُ: القَلُوصُ من الإبل: الشَّابَةُ إلى أن تُثْنِي ثُمَّ هي ناقةٌ والجمع: قَلَائِصٌ وَقُلُصٌ. والسُّدُولُ: ما جُلِّلَ به الهودج من الثياب والسديل: ما أُسْبِلَ على الهودج والجمع: السُّدُلُ والسَّدائلُ، والسُّدِيلُ: شيءٌ يُعْرَضُ في شقة الخباء. والحَسْرُ: والحَسْرُ والحُسُورُ: الإعياءُ والتَّعبُ وأحسرَ القومُ نزل بهم الحَسْرُ، حَسِرَتِ الدابةُ إِذَا تَعِبَتْ حتى تُنْقَى.

١٤- فَلَمَّا تَعَالَتْ بالمَعَالِيَتِ جِلَّةٌ لَهَا سَائِقٌ لَا يَخْفِضُ الصَّوْتِ شَاهِرُهُ

رواية معجم البلدان [.....حلة لها سابق...]

قوله: بالمعاليق: كُلُّ شَيْءٍ عُلِقَ بِهِ شَيْءٌ، فهو معالِقَةٌ، ومَعَالِيقُ العُقُودِ والشنُوفِ ما يُجْعَلُ فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ما يَحْسُنُ فِيهِ. والجِلَّةُ: بالكسرِ عِظْمَاءُ سَادَةٌ ذُوو أخطارٍ.

١٥- تَلَاقِيْنَ مِنْ ذَاتِ التَّنَانِيْرِ شَرْبَةً عَلَى ظَهْرِ عَادِيٍّ كَثِيرٍ سَوَافِرُهُ

رواية معجم البلدان [تلاقيين...سربة]

قوله: تَلَاقِيْنَ: تَدَارَكُنْ. وَظَهْرُ عَادِيٍّ: المَاءُ العِدُّ الرَكِيٌّ، وَقِيلَ القَدِيمَةُ مِنَ الرَكَايَا. سَوَافِرُهُ: السَّفِيرُ: ما سَقَطَ مِنْ ورقِ الشَّجَرِ وَنَحَاتٍ، وَسَقَرَتِ الرِّيحُ الثَّرَابَ والورقَ تَسْفِرُهُ سَفْرًا كَنَسْتَهُ، وَقِيلَ ذَهَبَتْ بِهِ كُلٌّ مَذْهَبٍ. والسَّفِيرُ: ما تَسْفِرُهُ الرِّيحُ مِنَ الورقِ.

١٦- تَبَيَّنَتْ أَعْنَاقُ المَطِيِّ وَصُحْبِي يَقُولُونَ مَوْقُوفُ السَّعِيرِ وَعَامِرُهُ

رواية إثبات المحصل [..... السَّفِيرِ وَعَامِرُهُ]

قوله: المَطِيُّ: المَطِيَّةُ: الدَابَّةُ تَمْطُو فِي سَبِيلِهَا جَمْعُهَا مَطَايَا وَمَطِيٌّ. والسَّعِيرُ: يُقَالُ لِلرَّجُلِ إِذَا ضَرَبَتْهُ السَّمُومُ فَاسْتَعَرَّ جَوْفُهُ بِهِ سَعَارًا، وَسَعَارُ العَطَشِ: التَّهَابُهُ. والسَّعِيرُ والسَّاعُورَةُ: النارُ، وَقِيلَ لَهْبِهَا.

١٧- فَلَمَّا لَحِقْنَاهُمْ قَرَأْنَا عَلَيْهِمْ حَيَّةَ مُوسَى رَبِّهِ إِذْ يُخَاوِرُهُ

١٨- وَقُلْنَ عَلَى الفِرْدَوْسِ أَوَّلُ مَشْرَبٍ أَجَلَ إِنْ كَانَتْ أُبِيحَتْ دَعَائِرُهُ

رواية إثبات المحصل:

[وَقُلْنَ أَلَا الفِرْدَوْسِ أَوَّلُ مَحْضَرٍ مِنْ الحَيِّ إِنْ كَانَتْ أُبِيرَتْ دَعَائِرُهُ]

قوله: الفِرْدَوْسُ: مَاءٌ لَبَنِي تَمِيمٍ عَنِ يَمِينِ الحَاجِ مِنَ الكُوفَةِ. وَأُبِيرَتْ: أُصْلِحَتْ. والدُّعُورُ: الحَوْضُ المِثْلَمُ. والمِشْرَبُ: مَوْضِعُ الشُّرْبِ.

١٩- فَأَمَّا الأَصِيلُ الحَلِمُ مَنَا فَرَاجِرٌ خُفَافًا جَلالًا أَوْ مُشِيرٌ فَذَاعِرُهُ

رواية شرح المفصل والأشموني [...] خُفَافًا جَلالًا أَوْ مُشِيرًا فَذَاعِرُهُ

قوله: فَرَاجِرٌ: الرَّجْرُ: المنع والنهي والانتهاز. وخُفَافٌ: في التَّوَقُّدِ والدَّكَاةِ وجمعها خُفَافٌ، وخَفَفَ فلانٌ لفلان إذا أطاعه وانقاد له. وجرَّ فلانٌ يجرُّ بالكسر، جلاله أي عَظُمَ قَدْرُهُ فهو جليلٌ.

٢٠- فَأَمَّا بُعَاةُ اللَّهِو مِنَّا وَمَنَّهُم مع الرَّبْرِبِ الحِسانِ مَحَاجرُهُ

رواية إثبات المحصل:

[إلى السلف الماضي وأجر قاصرٍ]

قوله: الرَّبْرِبُ: القطيع من بقرِ الوَحْشِ، وقيل من الظبَّاءِ، ولا واحد له. والمحاجرُ: حُجْرُ العين ما يبدو من التَّقَابِ.

٢١- فَلَمَّا رَأَيْنَ بَعْضَ مَا كَانَ مِنْهُم آذِيَّ القَوْلِ مَحْبُوءٍ لَنَا وَهُوَ آخِرُهُ

قوله: آذِيٌّ بالمدِّ والتشديد: الموجُّ الشديد.

٢٢- صَرَفْنَا وَلَمْ نَمْلِكْ دُمُوعًا كَأَنَّهَا بَوَادِي جُمَانٍ بَيْنَ أَيْدِي تَنَائِرُهُ

قوله: بَوَادِي جُمَانٍ: الجُمَانُ: اللُّؤْلُؤُ، أو هَنَوَاتُ أَشْكَالِ اللُّؤْلُؤِ من فَضَّةٍ الواحدة جُمَانَةٌ.

٢٣- فَأَلْقَتْ عَصَا التَّسْيَارِ عَنْهَا وَخَيَّمَتْ بِأَرْحَاءِ عَدَبِ المَاءِ بِيضِ حَفَائِرُهُ

رواية اللسان (سير)

[..... منها بيضٌ حَفَائِرُهُ]

قوله: التسيار: تفعال من السَّيْرِ وسَيْرُهُ أي جَرَّاه فَتَسَايارا. وخَيَّمَتْ: خَيَّمُوا بالمكان: أقاموا. حَفَائِرُهُ: الحَفِيرَةُ والحَفِيرُ والحَفَرُ: البئرُ الموسَّعةُ فوقَ قَدْرِها.

مصادر النص:

١- المؤتلف والمختلف: الأبيات: ٤، ٥، ٦، ٧. ص ١٩١.

- ٢- شرح المفصل في صنعة الإعراب: البيت: ١ ج ٤ ص ١٠٢. وبهامشه ورقتان من مخطوط [إثبات المحصل: ١٨٧-١٨٨] فيهما الأبيات: ١ ومن: ٨ إلى ٢٣.
- ٣- معجم البلدان: الأبيات: ١، ٢، ٣، ٤. ج ١ ص ٢٠٣. والأبيات ١٤، ١٥، ١٦. ج ٢ ص ٤٦.
- ٤- شرح المفصل: ابن يعيش: الأبيات: من ١٧ إلى ٢٣. ج ٨ ص ١٢٢.
- ٥- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك: الأبيات: من ١٧ إلى ٢٣. ج ٤ ص ٣٧٨.
- ٦- خزنة الأدب: الأبيات: ١٠، ١٨. ج ١٠ ص ١٠٣.

نتائج البحث:

يمكن القول بعد تناول النصوص السابقة:

إنّ الأصمعيّات المتداولة بين أيدي الدارسين ليست النسخة التي اعتمد عليها صاحب الاختيار في تأديب أولاد الخليفة العباسي هارون الرشيد حين إقامته في بغداد، وكان ذلك قبل نكبة أولاد برمك حيث غادر الأصمعي بغداد بعد مقتل جعفر البرمكي سنة (١٨٧هـ) ولم يرجع إليها. الأصمعيّات المنشورة هي التي أحلت بها المفضليات.

ولعل النسخة المنشورة الآن هي نسخة مجازة لبعض تلاميذه.

وإن نصوص الأصمعيّات أصبحت (١٠٤) أربعاً ومئة قصيدة بدلاً من (٩٢) اثنتين وتسعين قصيدة.

وإنّ عدد شعرائها (٨١) واحد وثمانون شاعرًا بدلاً من (٧١) واحدٍ وسبعين شاعرًا. وذلك بزيادة اثني عشر نصًّا لاثني عشر شاعرًا.

ورد لشاعرين منهما اختيار في الأصمعيّات المنشورة هما: أبو دواد الإيادي وله قصيدتان الأصمعية (٦٥، ٦٦). والمتلمس الضبعي وله الأصمعية (٩٢). في تحقيق شاكر وهارون ومن تلاهما.

مصادر البحث

- ١- إثبات المحصل في نسبة أبيات المفصل (مخطوط): أبو البركات المبارك بن أحمد الإربلي المعروف

بابن المستوفي.

٢- أخبار النحويين البصريين: السيراني، تحقيق: طه محمد الزيني، وعبد المنعم خفاجي، ط١، مكتبة مصطفى الحلبي، ١٣٧٤هـ-١٩٥٥م.

٣- الاختيارين: الأخفش الأصغر، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

٤- الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني: طبعة دار الكتب المصرية.

٥- الاقتضاب في شرح أدب الكتاب: البطلبوسي، مراجعة: عبد الله أفندي البستاني، المطبعة الأدبية، بيروت ١٩٥١م.

٦- البيان والتبيين: الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة مكتبة الهلال، بيروت، ١٣٦٧هـ-١٩٤٨م.

٧- جمهرة اللغة: ابن دريد.

٨- خزنة الأدب: البغدادي، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، دار الرفاعي، الرياض، ١٤٠٣هـ-١٩٨٢م.

٩- ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق: د. حسين نصار، ط١، ١٣٧٧هـ-١٩٥٧م.

١٠- ديوان التلمس، تحقيق: حسن كامل الصبري، الشركة المصرية للطباعة، مصر، ١٩٧٠م.

١١- سمط اللآلئ: أبو عبيد البكري، تحقيق: عبد العزيز الميمني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، ١٣٥٤هـ-١٩٣٦م.

١٢- شرح اختيارات المفضل الضبي: التبريزي، تحقيق: محمد علي الجاوي، دار نخصة مصر للطباعة والنشر.

١٣- شرح اختيارات المفضل: تحقيق: د. فخر الدين قباوة، مطبوعات مجمع اللغة العربية دمشق، دمشق، ١٣٩١هـ-١٩٧١م.

١٤- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٢، مصر، ١٣٦٥هـ-١٩٤٦م.

١٥- شرح المفصل: ابن يعيش النحوي، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

١٦- شرح المفصل في صنعة الإعراب الموسوم بالتحميم: القاسم بن الحسين الخوارزمي، تحقيق: د.

- عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، ط١، بيروت، ١٩٩٥م.
- ١٧- شعر أبي دواد الإيادي: غوستاف غزنيانوم، ترجمة: د. إحسان عباس وآخرون، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٥٩م.
- ١٨- طبقات فحول الشعراء: محمد بن سلام الجمحي، شرح: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة.
- ١٩- الطرائف الأدبية، تحقيق: عبد العزيز الميمني الراجكوتي، المكتبة الأزهرية، ١٩٣٧م.
- ٢٠- الكامل: المبرد، تحقيق: أحمد شاكر، ط١، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٦هـ-١٩٣٧م.
- ٢١- لسان العرب: ابن منظور.
- ٢٢- المستقصى في أمثال العرب: الزمخشري، ط٢، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.
- ٢٣- معجم البلدان: ياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٩م.
- ٢٤- معجم الشعراء: المرزباني، تصحيح: كرنكو، ط٢، مكتبة القدسي، لبنان، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- ٢٥- المفضليات: المفضل الضبي، تحقيق: أحمد شاكر وعبد السلام هارون، ط٨، دار المعارف، مصر، ١٩٩٣م.
- ٢٦- المؤلف والمختلف: الأمدي، تصحيح: كرنكو، ط٢، مكتبة القدسي، لبنان، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- ٢٧- الموشح: المرزباني، وقف على طبعه: محب الدين الخطيب، ط٢، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٨٥هـ.
- ٢٨- وفيات الأعيان: ابن خلكان، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٣٦٨هـ-١٩٤٨م.

أنباء جمعية وثقافية

حفل استقبال

الأستاذ مروان البواب

عضوًا في مجمع اللغة العربية

في الساعة السادسة من مساء الأربعاء ١٥/٢/١٤٣٠ هـ - ١١/٢/٢٠٠٩ م احتفل المجمع باستقبال الأستاذ مروان البواب، عضوًا في مجمع اللغة العربية، في جلسة علنية، حضرها نخبة من رجال السياسة والعلم والأدب وأصدقاء المجتفئ به.

بدأ الحفلُ بكلمة الأستاذ الدكتور مروان المحاسني، رئيس المجمع، التي رَحَّب فيها بالسادة الحضور، وهنأَ الزميل المجمعي الجديد، بانضمامه إلى مجمع الخالدين، متمنيًا له مسيرة طيبة حافلة بالعطاء.

ثم ألقى الأستاذ الدكتور محمد مكي الحسني الجزائري، أمين المجمع، كلمة الترحيب بالزميل الجديد. فتحدث عن سيرته، ومكانته العلمية، وجهوده في خدمة العلم.

ثم ألقى الأستاذ مروان البواب كلمته، التي تحدث فيها عن سلفه الراحل الأستاذ الدكتور عبد الرزاق قدورة، ونشر فيما يلي كلمات الحفل:

كلمة الدكتور مروان المحاسني رئيس المجمع
في حفل استقبال
الأستاذ مروان البواب

أيها الحفل الكريم

لقد كثر اللَّغَطُ وكثر التجريح واجترأ بعض الكُتَّاب وتناولوا على لغتنا العربية فقالوا «إننا نعيش على حمالة لغة مريضة» وأن ليس لدينا لغة «لدينا حَشْرَجَات من لغة قتيلة غابرة».

إنني أربأ بصحافتنا أن تكتب مثل هذا الكلام وكأنها تُحْضُنَا على الانتقال إلى لغة أخرى وانتحال جلدة غير جلدتنا.

إنَّ نظرةً إلى هذه الوجوه النضرة، التي اعتادت مشاركتنا استقبال الرصفاء الجدد، الذين ينضمون إلى مجمعنا تبشّر باهتمامٍ متجدد لدى المثقفين بكل ما يخص لغتهم القومية، وتطلّع إلى تشجيع مجمعنا في مسيرته نحو الارتقاء باللغة العربية. إنه تجاوبٌ مع ما ندعو إليه من حسن استعمال لغتنا في جميع متطلبات الحداثة لنتمكّن من قطاف ثمارها من منطلقاتها، فلا نكتفي بظواهرها المخالبة، وبذلك يمكننا الولوج بلغتنا إلى المجالات الحيّة التي تُعيد لها لغةً علمية علمية كسابق عهدها.

ونحن إذا تكلمنا عن المشكلات المحيطة باللغة العربية إنما نتكلم عن مشكلاتٍ طارئة نابعة من ظروف محلية وعالمية جديدة، وفي طليعتها العولمة التي تسلك كلَّ

السبل الموصلة إلى فرض ثقافةٍ وحيدة على جميع الثقافات الأخرى.
نحن لا نتصدى في مسعانا هذا لمشكلات بنوية تخص صميم لغتنا، أو نُحِلُّ
بمكانتها لغةً اجتازت القرون وتخطت الغزوات والاجتياحات، وبقيت صامدةً في
مواجهة صروف الدهر، حاملةً لحضارة لم يخبُ ضياؤها.
قال الأعشى:

كناطح صخرةً يوماً ليفِ لِقَها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعلُ
فإن مسعانا للتطابق مع مقتضيات الحداثة لا يعني خروجاً على ما للغة العربية
من أصالة في تراكيبها، وفي تقاليد حروفها وفي تناغم أصواتها، بل إن ما نواجهه في
هذا الصدد هو ضرورة مواكبة التطور المعرفي العالمي، وإقرار اللغة العربية حاملاً دقيقتاً
للبحوث العلمية، وهذا ما يتطلب منا التزاماً حتمياً بإيجاد تخطيط لغوي يُتيح للغة
العربية الوصول إلى شاطئ الأمان في عالم الغد.

لقد تعددت مجهوداتنا في آفاق التخطيط اللغوي، تارةً عن طريق تسهيل تعليم
النحو، وتارةً عن طريق حماية الفصحى من التلوث بالأعجميات، وتارةً أخرى بإقامة
السدود المنيعّة دون جعل العامية لغةً مكتوبة.

ولاشك بأن الوسيلة المثلى للوصول إلى تخطيط علمي للغتنا هي الإفادّة من
علوم الحاسوب السائرة في طريق تطوّر لا متناهٍ، واعتماد النظم الحاسوبية للوصول إلى
فهم عميق لحقائق اللغة العربية وطاقاتها المخزونة.

لقد كان من أوائل من استعملوا الحاسوب لدراسة اللغة العربية العالم المغربي
الأستاذ أحمد الأخضر غزال رحمه الله. عرفته في الرباط عام ١٩٦٦ حين كنا نعمل
في المعجم الطبي الموحد، وكان في طليعة المهتمين بالتعريب، شريطة أن يكون التعريب
بالمستوى اللائق كما كان يقول.

وجدته مُنكبًا على قُصاصات مرتبة في أدرج صغيرة، يُعدُّ القوائم بالألفاظ الأجنبية الدخيلة على العربية في المغرب، محاولاً إيجاد المقابلات العربية المناسبة لها. وهو الذي بذل مجهودًا كبيرًا لتطويع الحروف العربية ليُمكن إدخالها في الحاسوب، بأن قام بتحويل أطوال الحروف الواردة في آخر الكلمة، حتى أوصلها إلى الشكل الذي نعرفه تترابط فيه الحروف متسقة حسب موقعها من الكلمة، وذلك بإلغاء ذيل كل من الحاء والعين وغيرهما. وكان حاسوبه متواضعًا في طاقاته، وهذا ما ألزمه تخزين معظم معطياته في مركز فراسكاتي في إيطاليا.

إنَّ حاسوبنا المتكامل اليوم هو وريثٌ بعيدٌ للبطاقات المثقوبة التي كنا نستعملها في الإحصاءات العلمية، حيث يقوم الباحث بتحديد بطاقةٍ عديدة الثقوب لموضوع البحث، ثم يفتح بعض الثقوب المخصَّصة لجزء من أجزاء البحث، حتى إذا أُدخل سُفودٌ في مجموع البطاقات سقطت تلك التي فُتحت ثقوبها المناسبة لذلك الجزء من البحث، وتمَّ إحصاؤها.

إنها طريقة بسيطة يدوية تفيد في إحصاءات محدودة، وقد كانت سبقتها وسائل ميكانيكية كالجهاز الذي صمَّمه باسكال الفرنسي، أو الجهاز الذي صمَّمه بابج الإنكليزي، ولم تكن مطابقة للغرض. ذلك أنَّ بابج مثلاً قد جعل منها جهازًا لتحليل العناصر وأسماء جهازًا للتفريق، كما أنه استعمله جهازًا حاسبًا في الوقت ذاته، وقد كانت هذه الأجهزة في حقيقتها رتَّاباتٍ لتنظيم العناصر وإعادة فرزها وتسريع الحسابات الكبيرة.

أما ما نَعْمُ به اليوم من حواسيب أفادت من القفزة النوعية التي أحدثتها الدارات الإلكترونية ثم الترانزستور، فهي أجهزةٌ تخزِين، وفرز، وحساب، وتتمتع بذاكرةٍ تعطي مُخرَجًا يتطابق مع مُدخلاتها، بعد أن يكون قد تم التعامل فيها مع ما تحتوي عليه من معطيات.

لذلك فالحاسوب اليوم مستندٌ عميقُ الأثر في البحوث وفي دراسة اللغة العربية بخاصة، وهو ركيزةٌ لكل تقدم علمي وتقني. والحاسوب وسيلةٌ ممتازة لدراسة تطوّر مفردات اللغة العربية، بأن تُجمع فيه الآلاف من الألفاظ المباشرة في معاجمنا وفي ترانثنا، لنجعل منها مُدوّنَةً نسمّيها الذخيرة اللغوية، وهي التي تُعتمد أساسًا لصنع معجمٍ تاريخيٍّ يحكي قصة تطور الألفاظ، ويسمح بدراسة المؤثرات المؤدية إلى ما حدث من تغيرات، كما أنه يُتيح فرصةً نادرةً لكشف عناصر الاقتراض اللغوي، ومتابعة ما يطرأ عليها حتى تُصبح الألفاظ عربيةً السّمات العربية الجرس.

وما إن بزغت شمس التخاطب العالمي عن طريق الحواسيب المرتبطة بالشابكة (إنترنت)، تلك الرابطة العالمية بين الحواسيب، حتى برزت وسائلٌ جديدةٌ لتسريع التبادل بين العاملين في الدراسات اللغوية. فما بقيت مجامعنا تنتظر حلولاً موعد مؤتمراتها السنوية ليتاح لها الاطلاع على ما يدور في الجامعات الأخرى من بحوث، يبقى التطور اللغوي محجورًا بين دقّات الكتب. إنّ التقانات الحديثة تفتح لنا فرصًا غير مسبوقةٍ إذ يجري تبادل المعلومات تبادلًا يكاد يكون فورًا مهمًا تكن المسافات، وهذا أمر بالغ الأهمية في ميدان المصطلحات، للتفادي من تكرار الجهود، وضمان الاتفاق على مدلول كل كلمة تستعمل في العلوم. إنّ الحاسوب اليوم هو أساس العمل في المعجمية أي علم الألفاظ، وفي القاموسية أي صناعة المعاجم، تلك العلوم التي كانت تتطلب سنواتٍ طويلاً من أسلافنا أصحاب المعاجم وكتب الألفاظ التراثية.

إنّ الجامعات ومراكز البحوث قد أخذت تُكوّن لنفسها قواعد بيانات تحتوي على الألوّف من الألفاظ في المجالات المختلفة، وهي ميسورةٌ دون مقابل لكل من يطرّق بابها. إنّها بنوك المعلومات التي تنطوي على مخزونٍ لغوي جاهز للاستعمال والدراسة.

وتختص بعض هذه البنوك بمجال المصطلحات العلمية، فقد أنشئ في المغرب ما يسمى «المعربي» في جامعة محمد الخامس، كما أنشئ «باسم» في المملكة العربية

السعودية، وأنشئ كذلك بنك أردني، وحَقَّقت جامعة الدول العربية قاعدةً بيانات في مكتب التعريب في الرباط.

لاشك بأن اللغة العربية تحتاج إلى مرصدي لغوي عربي علمي يلتقط المستجدات في المصطلحات ليقوم بتخزينها وفرزها وتقديمها للدراسة، وذلك أسوةً باللغة البرتغالية التي رفضت المصطلحات الإنكليزية فأنشأت مرصداً ليقوم بتقديم الأبدال وجعلها في تصرف المترجمين.

إنَّ المرصد الذي نريد إنشائه في سورية سوف يكون في لب النشاط المصطلحي، تُفيد منه المراكز العربية، لتتعاون على إنجاز مشروع التعريب الشامل المتكامل. وإنَّ ندرة المترجمين المتضلعين من اللغات الأجنبية إلى جانب إتقانهم للغة العربية، قد فتحت الباب أمام محاولات للوصول إلى الترجمة الآلية، وقد اختصت بها بعض المراكز العالمية، إلا أنها ترجمةٌ لم تصل بعد إلى المستوى الذي يمكِّنها من ترجمة النصوص ترجمةً نهائيةً دون أن تتطلب تصحيحاً بشرياً.

أيها الحفل الكريم

إنَّ اللغة هي «نظام الأنظمة الرمزية» في حياة البشر، ولذلك فإنَّ كلَّ ما يدخل لغتنا يصبح مستنداً للمجتمع في تضمينه رؤيته للعالم المحيط. فإنَّ وصول تلك الروافد الفكرية إلى المجتمع يرتقي به إلى مستوى فهم الحداثة على حقيقتها، لكي يكون له موقفٌ انتقائي منها بدلاً أن يكون مُنجرفاً وراء تقليد عناصرها مبهوراً بظواهرها.

لا وجودٌ للغة خارج الزمان والمكان، فالمتكلم يطبِّعها بمعطياته الذاتية، ليصبح قادراً على التعبير عما يجول في خاطره من رواسب الثقافة المحيطة به والخاضعة لمؤثرات متعددة، وهي تُعبَّر عن نظرتة لنفسه وللعالم من حوله.

إنَّ قيمة اللغة لا تكون في داخلها وفي أنظمتها بل فيما يضعه مستعملوها فيها. وإنَّ الفرص المتاحة لنا عن طريق المعلوماتية هي مفتاحٌ لمستقبلنا، إذ إنها تسمح

بمُحضورِ فَعَالٍ لِلإنسان العربي في ساحات الصراع بين الثقافات، وهي مركزُ نافذٍ في مجال تثبيت الهوية، والحفاظِ على ثقافةٍ تراثيةٍ تُنير مستقبلنا في عالم سريع التغيّر. لقد عرفتم ولاشك أنّ حديثي اليوم عن الحاسوب والمعلوماتية مرتبطٌ بالعضو الجديد الذي انتخبه مجلس المجمع تقديرًا لعمله في هذا المجال، إذ إنّ الأستاذ مروان البواب قد أوضح لنا تطبيقات الحاسوب على اللغة العربية في بحث رائد نظر فيه إلى جمع المؤنث السالم وتشعباته، وبذلك فتح لنا آفاقًا جديدةً نأمل أن تكتمل وتُشجّر على يده ويد زملائه.

والدكتور مكّي الحسني، وهو من المتحمسين للمعلوماتية، سيعطينا المزيد عن السيرة الذاتية للأستاذ مروان البواب.

كلمة الدكتور مكي الحسني أمين المجمع
في حفل استقبال
الدكتور مروان البواب



أيها السيد رئيسُ المجمع، الأستاذ الدكتور مروان المحاسني
أيها السادة الزملاء المجمعين الأكارم
أيها الحفل الكريم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته
يسعدني أن أشارككم في هذا الاحتفال، الذي يقيمه مجتمعنا لاستقبال السيد
الأستاذ مروان البواب عضواً جديداً في هذا المجمع.

- ويطيب لي أن أحدثكم عن صديقي الأستاذ مروان: عن سيرته وأعماله العلمية.
- الأستاذ مروان من مواليد دمشق عام ١٩٤٦.
 - حصل في سنة ١٩٦٨ على إجازة في الرياضيات من جامعة دمشق.
 - وفي السنة التالية حصل على دبلوم في التربية من جامعة دمشق أيضاً.
 - درّس مادة الرياضيات في ثانويات دوما وداريا ويوسف العظمة بدمشق.
 - بعد ذلك تطوّر في الجيش العربي السوري ضابطاً جامعياً برتبة الملازم الأول سنة ١٩٧٠، وعيّن في فرع الشفرة وأمن الوثائق.

- شارك سنة ١٩٧٣ في حرب تشرين التحريرية.
- شغل منصب رئيس مكتب الشفرة، ثم رئيس قسم الشفرة ١٩٧٥ - ١٩٨١.
- في عام ١٩٧٨ أتبع دورتين في اللغة العبرية في مدرسة المخابرات الحربية، مدتهما سنة ونصف، وحصل على شهادة معلّم للغة العبرية.
- عُيّن منتدبًا لدى مركز الدراسات والبحوث العلمية ١٩٧٧ - ١٩٨١.
- وفي عام ١٩٨١ نُقل إلى مركز الدراسات والبحوث العلمية، حيث شغل منصب رئيس وحدة الصوتيات في معهد بحوث الإلكترونيات ١٩٨٦ - ١٩٩٣، ثم رئيس مجموعة اللغة العربية في المعهد العالي للعلوم التطبيقية والتكنولوجيا ١٩٩٣ - ٢٠٠٤، وبقي في المركز المذكور إلى أن أُحيل على التقاعد برتبة العميد سنة ٢٠٠٤.
- في عام ٢٠٠٢ انتُخب عضوًا مراسلًا في مجمع اللغة العربية بدمشق.
- قام الأستاذ مروان قبل انتدابه إلى مركز الدراسات والبحوث العلمية بمجموعة من المهام منها:

- ١- إعداد قاموس تشفير لتأمين الاتصالات مع الوحدات والتشكيلات.
- ٢- إلقاء محاضرات في القيادة السرية وترميز الخرائط في الأكاديمية العسكرية العليا.
- ٣- تدريب عدّة دورات على أجهزة التشفير وطرائقه.
- ثم بعد انتدابه ونقله إلى مركز الدراسات والبحوث العلمية، قام بالأعمال الآتية:
 - ١- دراسة إحصائية لدوران الحروف في اللغة العبرية.
 - ٢- ثلاث دراسات إحصائية لدوران حروف اللغة العبرية، تناولت حساب تردد الحروف الأحادية والثنائية والثلاثية، والاحتمالات الشرطية لورود الحروف والحركات. وكذلك الاحتمالات الشرطية لتتابع الحروف والحركات.
 - ٣- درّب عدّة دورات على لغة البرمجة BASIC.
 - ٤- وُضِعَ برنامجًا حاسوبيًا لكسر النصوص المشفرة بطريقة فيجنير Vigenère.

٥- وَضَعَ برنامجًا حاسوبيًا لتحويل النص المكتوب إلى نصّ منطوق به.
- أما أهمُّ أعماله، فكانت في معالجة اللغة العربية بالحاسوب. وكانت جميع هذه الأعمال بالمشاركة مع فريق عمل، تكوّن من عددٍ من المختصّين في اللغة العربية والمعلوماتية. من هذه الأعمال:

١- نظام الاشتقاق والتصريف: وهو برنامج حاسوبي يولّد الأفعال والأسماء المشتقة والمصادر القياسية والصفات انطلاقًا من جذورها، ويصرّف الأفعال في صيغة الماضي والمضارع والأمر، والأسماء في جميع حالاتها: الإفراد والتثنية والجمع، والتذكير والتأنيث، والتعريف والإضافة. ورّعت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم هذا النظام عام ١٩٩٨ مع أحد أعداد المجلة العربية للعلوم التي تصدرها هذه المنظمة. وقد حصل فريق العمل على ثناءٍ من المدير العام لمركز الدراسات والبحوث العلمية تقديرًا لهذا الإنجاز. وفي عام ٢٠٠٧، طوّر هذا النظام ليصبح مفتوح المصدر، ويعمل في أنظمة تشغيل حاسوبية مختلفة.

٢- برنامج إعراب الأفعال في اللغة العربية. وهو برنامج حاسوبي تفاعلي، يعرض قوائم شجريةً تتضمّن جميع الحالات الإعرابية للأفعال في صيغة الماضي، والمضارع المرفوع والمنصوب والمجزوم والمؤكّد، وكذلك الأمر المؤكّد وغير المؤكّد. وعند اختيار إحدى هذه الحالات (المضارع المنصوب بالأداة «لن» مثلاً)، يعرض الحاسوب مجموعةً من الأمثلة يتضمّن كلٌّ مثالٍ فعلاً مضارعاً منصوباً بالأداة «لن»، وقد لُوّن هذا الفعل بلونٍ مغاير زياداً في الإيضاح.

٣- برامج تعليمية حاسوبية في قواعد اللغة العربية: تضمّنت خمسة دروسٍ في قواعد اللغة العربية لمرحلة التعليم الأساسي، هي: (الأفعال الخمسة، والأسماء الخمسة، وكان وأخواتها، وإن وأخواتها، والحال). رُوعي فيها توفّر الإنتاج الجيد علمياً وتربوياً

وفنياً. وعُرضت فيها القواعدُ بطريقة تفاعلية وبأسلوبٍ شائقٍ مُحَبِّبٍ ومُيسِّرٍ، يثيرُ اهتمامَ الناشئةِ ويجذبُهمُ إليها. يشتمل كلُّ درسٍ منها على مقدمةٍ قصيرةٍ مشوّقة، ولوحةٍ رئيسيةٍ تحتوي على مجموعة أزرار يستطيع الطالبُ بواسطتها التحوُّلُ في أنحاءِ البرنامجِ والاطلاعَ على جميع محتوياته؛ من تعريفٍ وأحكامٍ وأمثلةٍ وفيديو ومكتبةٍ وتدرّياتٍ واختبار. حُزِّنتْ هذه الدروس على قرصٍ متراصٍ CD، وعمّمته المنظمةُ العربية للتربية والثقافة والعلوم على وزارات التربية في الأقطار العربية سنة ١٩٩٨.

٤- المعجم العربي الحاسوبي: وهو مشروع ضخم، بدأ العمل فيه حديثاً، يشترك في إنجازه عدد من الجهات العلمية، منها: مجمع اللغة العربية بدمشق، والمعهد العالي للعلوم التطبيقية والتكنولوجيا بدمشق، ومدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية بالرياض، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في تونس. وعُقدتْ له ورشّتا عمل، شارك فيها عددٌ من الخبراء من الأقطار العربية (كان الأستاذ مروان وأنا من بينهم)، قُدِّمت فيها عدّة دراساتٍ وبحوثٍ تتعلّق بإنجازه. وكتب صاحبُ هذه السيرة عدداً من المقالات تتعلّق بمنهج إعداد هذا المعجم ومزاياه ومواصفاته.

- وأما في مجال التأليف، فقد شارك الأستاذ مروان في تأليف مجموعةٍ صالحةٍ من الكتب، منها:

- ١- كتاب (إحصاء الأفعال العربية في المعجم الحاسوبي).
- ٢- وكتاب (دليل الأخطاء الشائعة في الكتابة والنطق)، طُبِعَ مرتين.
- ٣- ومعجم مصطلحات المعلوماتية. صدر عن الجمعية العلمية السورية للمعلوماتية. (شارك فيه الأستاذ مروان إشرافاً، وترجمةً، ومراجعةً لغويةً، وتنسيقاً، وإخراجاً).
- ٤- وكتاب (الجلسات العملية لقسم اللغة العربية في جامعة دمشق).
- ٥- وكتاب (دليل جموع التكسير).

- وكان للترجمة من الإنكليزية إلى العربية حظٌ وافر من إنتاج الأستاذ مروان العلمي؛ فقد ترجم:

- ١- في موضوع علم التعمية، كتاب (أنظمة التشفير) CIPHER SYSTEMS.
- ٢- وفي سير الأعلام، ترجم كتاب (إسحاق نيوتن والثورة العلمية) ضمن سلسلة علماء عباقرة.

Isaac Newton And the Scientific Revolution, Gale Christianson.

٣- وفي إدارة الأعمال، ترجم كتاب (من سرق مبيعتي؟ ٢٣ درسًا في عقد الصفقات).

WHO STOLE MY SALE? ٢٣ Ways To Close The Deal, TODD DUNCAN.

وكتاب (لا تأخذ القطعة الأخيرة: قواعد جديدة في آداب السلوك في إدارة الأعمال).

Don't Take the Last Donut, New Rules of Business Etiquette, Judith Bowman.

٤- وفي سلسلة كتاب الجيب العلمي، ترجم كتاب (كيف تُعدُّ خطة عملك).

Creating a Business Plan, Pocket Mentor Series.

٥- وكذلك ترجم بعض المقالات في مجلة العلوم الكويتية، وفي مجلة الثقافة

المعلوماتية، التي تصدرها الجمعية العلمية السورية للمعلوماتية.

- أعدد الأستاذ مروان عشرين بحثًا ومقالاً (بعضها بالمشاركة)، قُدم قسمٌ منها إلى مؤتمراتٍ وندواتٍ وورشاتٍ عملٍ عقدت في دمشق وتونس والكويت وليبيا والسعودية. وألقي قسمٌ آخر في مؤتمرات مجمع دمشق (من الثالث حتى السابع)، ونُشر قسمٌ ثالث في مجلة مجمع دمشق، والمجلة العربية للعلوم في تونس، والمجلة العربية للعلوم والهندسة في السعودية، ومجلة التقدّم العلمي في الكويت، ومجلة المعلوماتي: الحاسوب والتقنيات في دمشق، ومجلة المعلوماتية التي تصدرها الجمعية العلمية السورية للمعلوماتية في دمشق، ومجلة التعريب التي تصدر عن المركز العربي للتعريب والترجمة

والتأليف والنشر بدمشق.

أما مواضيع هذه البحوث، فيتعلّق معظمها بمعالجة اللغة العربية بالحاسوب، وسائرها بحوثٌ في اللغة والتعمية والمصطلح والتعليم.

- ثمة لوْنٌ آخرٌ من إنتاج الأستاذ مروان العلمي، وهو مراجعة الكتب العلمية المترجمة والمؤلفة؛ فقد راجع عددًا من الكتب بطلبٍ من الجمعية العلمية السورية للمعلوماتية، والمركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر، وغيرهما من المؤسسات العلمية ودور النشر. من هذه الكتب:

- كتاب (هندسة البرمجيات) يقع في جزأين كبيرين.
- وكتاب (مفاهيم نظام التشغيل) في جزأين أيضًا.
- وكتاب (مسرد مصطلحات المعلوماتية).
- كتاب (الشبكات العصبونية بين النظرية والتطبيق).
- وكتاب (الاقتصاد الهندسي).
- وكتاب (التصميم الرقمي).
- وكتاب (المعلومات الطبية عن طريق الإنترنت).
- وسلسلة علم التعمية واستخراج المعنى عند العرب. وهي ستة أجزاء مترجمة إلى الإنكليزية.

Series on Arabic Origins of Cryptology, Volume ١-٦

- وكتاب (التحكم الكهربائي الصناعي والآلي)، جزءان.
- وكتاب (الأتمتة الصناعية والمؤتمتات القابلة للبرمجة PLC).
- وكتاب (المفاهيم المالية الأساسية للمديرين).
- وكتاب (أسس التصميم الكهربائي).
- والمجلد الأول من معجم تاج العروس، طبعة الخيرية.

• وكتاب (معجم أسماء الأفعال في اللغة العربية).

- ومن نشاطات الأستاذ مروان الأخرى في مجال اللغة العربية، العناية بأعمال لغويين معروفين:

الأول: هو الأستاذ يوسف الصيداوي، رحمه الله؛ وكان صديقاً مشتركاً للأستاذ مروان ولي. وحين كان الأستاذ الصيداوي يُعدُّ كتابه المهم - الذي سمَّاه عند إنجازه: (الكفاف، كتاب يعيد صوغ قواعد اللغة العربية) - كان يعرض علينا أفكاره وآراءه، الجريئة أحياناً ليرى أثرها فينا، وذلك أثناء ممارستنا رياضة المشي في الأمسيات. ولقد أشار الأستاذ الصيداوي في مقدمة كتابه المذكور، إلى المساعدة العظيمة التي قدّمها الأستاذ مروان لهذا الكتاب فقال: «وما أدري - والله - كيف أشكره!! فقد أحسن إلى هذا الكتاب من كلِّ وجه: زوّدي بما احتجّت إليه من الإحصاء في عملي، قبل أن يُصدر هو وزملاؤه كتابهم (إحصاء الأفعال العربية). وكان صنع دليلاً لجموع التفسير، فأفدت من تصميمه وتخطيطه. وكان من إحسانه أن صنع فهرس الكتاب، وأخرجه، ونسّقه وصحّح تجاربه، وأثار خلال ذلك من الأسئلة، ما لا يثيره إلا القارئ الخبير، حتى لقد كنتُ أقول عنه لإخواني: الأستاذ مروان البواب قارئٌ خاصٌّ يصعب تكراره!! وقد قرأ الكتاب خلال إخراجِه، قراءةً البصير بما يقرأ، الحريص على ما بين يديه. وهو في كلِّ ذلك لا يرى لنفسه مزية، ولا لعمله فضلاً!! كما لا ترى المياه لجريانها مزيةً، ولا فضلاً؛ وفَتَشْتُ معجم العرفان بالجميل والشكر عليه، باحثاً عن كلمة تكون كفاءاً كلِّ هذا، أو تعبّر عما يختلج في صدري لكلِّ هذا، فما وجدت. وإني لأعترف بعجزِي عن شكره، فانظر إلى عجزِي عن الشكر يكون شكرًا!!». انتهى.

وحلّف الأستاذ الصيداوي ثلاثة كتبٍ أخرى، لم تكتحل عيناه بها في حياته. فبادرنا، الأستاذ مروان وأنا، إلى العناية بها بالاتفاق مع ابنه المهندس تمام. وهذه الكتب مُعدّة الآن للطبع؛ وهي: (المتدارك: مجموعة مقالات ومحاضرات)، و(على

هامش اللغة في القرآن الكريم)، و(مسائل في اللغة والنحو والصرف).

أما اللغوي الثاني فهو الأستاذ صلاح الدين الزعبلوي، رحمه الله. فقد ترك عاشقُ العربية هذا ثروةً كبيرةً من بحوثٍ كان نشرها في كتبٍ أربعة، فضلاً على مقالاتٍ قصيرة نُشرت في جريدة الثورة التي خصّصت لها ركنًا ثابتًا. ولا يظنُّ أحدٌ أن نشرها في جريدةٍ يقلُّ من قيمتها العلمية الكبيرة، ذلك أن الأستاذ الزعبلوي ناقده لغويٌّ واسع العلم ونافذ البصيرة.

قام الأستاذ مروان بإعداد هذه التركة العظيمة للطبع، فعاد إلى المظانّ الكثيرة لاستكمال الشواهد وضبط الألفاظ غير الواضحة في الجريدة، وإعداد الفهارس الرائعة الخمسة.

وحين بدأ هذا العمل رغب في إطلاعي على ما ينجزه أولاً بأول لأشاركه في إبداء الملاحظات - إن كان ثمة مجال - أو لأذكر تعليقاً لمجمع القاهرة أو لأحد أعلام اللغة. ولما انتهى هذا الجهد الكبير اقترح له الأستاذ مروان اسمًا موقّفًا هو: (معجم أخطاء الكتاب)، والحقيقة أن هذا المعجم من أفضل ما ألف في هذا الباب. وبعد، فإن أهم عمل يشغل الآن بال الأستاذ مروان هو المعجم العربي الحاسوبي، ذلك المشروع الضخم الذي يشارك مجمعنا في إعداده.

أخيرًا أودُّ أن أذكر أن الأستاذ مروان إنسانٌ متعدّد المواهب ويُحسن توظيفها باقتدار. ثم هو إلى ذلك إنسان طيّب العشرة، كريم الأخلاق، شديد التواضع. لذا كان ضمُّ المجمع إياه إلى عضويته كسبًا كبيرًا.

أكرّر ترحيبي بالصديق العزيز الأستاذ مروان البواب، متمنيًا له موفور الصحة ودوام التوفيق.

أشكر لكم حسن استماعكم والسلام عليكم ورحمة الله.

كلمة الأستاذ مروان البوّاب في حفل استقباله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيها السيد رئيس مجمع اللغة العربية، الأستاذ الدكتور مروان المحاسني
أيها السادة المجمعيون الكرام
أيها الحفلُ الكريم
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أحييكم أحسن تحيةٍ وأطيبها، وأرحّب بكم أجمل ترحيبٍ وأكرمّه، وأشكر لكم
تفضُّلكم بالحضور والمشاركة.

كلمتي بين يديكم ذاتُ أغصانٍ ثلاثة: شكرٍ، وبيانٍ، وترجمة.
أما الشكر: فإلى أساتذتي الأجلاء: الأستاذ الدكتور عبد الله واثق شهيد،
والأستاذ الدكتور موفق دعبول، والأستاذ الدكتور محمد مكّي الحسني، الذين هُمِّلْتُ
من علمهم يومَ كنتُ طالبًا في كلية العلوم في جامعة دمشق قبلَ خمسٍ وأربعين سنة،
وأفدتُ من خِبراتهم وتوجيهاتهم يومَ كنتُ باحثًا في مركز الدراسات والبحوث العلمية،
ويومَ كنتُ عضوًا مراسلًا في مجمع اللغة العربية.

إلى هؤلاء الأساتذة الأفاضل، وإلى أعضاء مجمع اللغة العربية الذين تَوَسَّموا في
الأهلية والكفاءة فرشّحوني لعضوية المجمع، أتقدّم بخالص شكري وتقديري، وصادق
مودّتي واحترامي، وأرجو أن أكون عند حسن ظنّهم بي، عاملاً مخلصًا في خدمة
العربية، على خير وجهٍ وأرضاه.

فلو أنّني آتِي بكلِّ قصيدةٍ عذراءٍ مِن عُزْرِ القِصائِدِ باكِـرِ
 وِجَلْوَتُهَا فكأنّما هي غادةٌ حَلِيئُهَا مِن مَدْحِكُمْ بأَساورِ
 لم أقضِ حقَّ الشكرِ مِن إحسانِكُم لكنْ أطاولُـه بِبِاعِ قاصِرِ
 هاتيكُم الأيدي التي لا يَنْقضي مدحُ الجميلِ لها وشُكْرُ الشاكِرِ

كلماتٌ شكرٍ قليلة، ذاتُ معانٍ جلييلة، باقيةٌ ما بقي الليلُ والنهار.

فإلى الغصن الثاني؛ وقد جعلته تمهيداً بين يدي ترجمة العلامة الدكتور عبد الرزاق قدورة رحمه الله. وفيه إجابةٌ عن تساؤلٍ قد يخطر في الأذهان؛ وهو أن هذا المجمع هو مجمع اللغة العربية، فاسمُهُ يقتضي أن يكون أعضاؤه من المختصين في علوم العربية. فكيف كان الدكتور عبد الرزاق قدورة، هذا العالمُ الفيزيائيُّ، عضواً فيه؟

أقول: إن اللغة العربية، هي لغةُ العلم والأدب، والثقافة والحضارة؛ وليس صحيحاً ما يزعمه المشنّعون أنها لغةٌ عاجزةٌ قاصرة، وأنها إنما تصلح للشعر والوصف، والمدح والمهجاء، والوقوف على الأطلال، والتعبير عن حياة الأعراب في بواديهم، فلما مضى زمنهم، مضى زمنها.

وليس صحيحاً ما يدّعونه بأنها - لعجزها وقصورها - لا تواكب التطوُّر التّقنيَّ السريع في العالم، وما يطرأ فيه من اكتشافات، وما ينشأ فيه من مُستَحدثاتٍ في الصناعة والتجارة، والطبِّ والعلوم، والفضاء والبحار.

إن هذه الدعوى هي دعوى بغير دليل، ولو أن أصحابها عرّفوا مزايا اللغة العربية وخصائصها، لما رمّوها بهذه الاتهامات، ولما نعتوها بتلك الأوصاف!

وليس المقام الآن مقام الدفاع عن العربية، أو الردّ على هذه الدعوى الباطلة، ولكنّ حسي أن أدكّر بواقع عمليّ، يَعْرِفُهُ القاصي والداني، وَيَشْهَد لصحته العدوُّ قبل الصديق. وهو أن العربية مرّت بتجربةٍ مماثلةٍ عندما أُلقي بها في القرنين الثاني والثالث

المجربين في بحر زاخرٍ من الحضارات والعلوم، والفلسفات والفنون، وكلِّ صنوف المعرفة التي ابتكرتها الأمم المتاخمة للجزيرة العربية كالفرس والروم، والأمم البعيدة عنها كالهنود والصينيين، فصمدت لهذا التحدي، ولم يمضِ إلا وقتٌ يسير، حتى نقلت العربية كلَّ ما وجدت عند هذه الأمم إليها، فاستطاع أهلها أن يتمثلوها، واستطاعوا بعد ذلك أن يشاركوا في التأليف والابتكار. فصار ما كتبه المفكرون والعلماء العرب بلغتهم العربية منذ القرن الثالث، نبراساً استضاءت به شعوب العالم.

وحملت العربية لواء العلم والحضارة والأدب قروناً عديدة. ولئن تخلقت العربية اليوم عن ركب العلم والحضارة، إنَّ مردَّ ذلك إلى تقاعس أهلها وتوانيهم، لا إلى قصورٍ أو عجزٍ فيها؛ فالقصور والعجزُ فينا، لا في لغتنا. واللوم إنما يقع علينا، لا عليها.

وهاهو ذا التاريخُ يحكي لنا قصة قومٍ شدَّاذٍ أحيوا لغتهم بعد أن كانت هباءً منثوراً، بفضل تعلُّقهم بها وتفانيهم في خدمتها، لأسبابٍ ودوافعٍ ليست بأشدَّ مما يربطنا بلغتنا.

- ومن هنا أن كانت نشأة مجمع اللغة العربية بدمشق في العقد الثاني من القرن الماضي.
- ومن هنا أن كان اسمه وَفْتَنَدِ المجمع العلمي العربي.
- ومن هنا أن كانت رسالته النبيلة، وغايته الشريفة: المحافظة على سلامة هذه اللغة، وجعلها وافيةً بمطالب الآداب والعلوم والفنون، وملائمةً لحاجات الحياة المتطورة.
- ومن هنا أن كان تنوع اختصاصات أعضاء المجمع، يُكْمَل بعضها بعضاً؛ ففيهم الطبيب الحاذق، واللغويُّ المحقق، والخبيرُ التربوي، والفيزيائيُّ المتبحر، فيهم العالمُ بالرياضيات، والمختصُّ بالنبات، والنايةُ باللسانيات، والمهندسُ المِقَنَّ، فيهم الكاتبُ الأديب، والصيدليُّ المتمكِّن، والشاعرُ المجدِّد، والراويُّ المحدث، فيهم القانونيُّ اللامع، والباحثُ في الاجتماع، والمعجميُّ المدقق، والعالمُ بالفلسفة، وفيهم وفيهم...

أيها السادة الأكارم:

بقي من حديثي في هذا الغصن الثاني ورقةً واحدةً تحمل همسةً تؤدُّ لو أنها تَبْلُغُ آذاننا وتباشرُ قلوبنا وعقولنا. وهي أننا نعيش الآن في عصر المعلوماتية، التي فرضتْ نفسها في جميع مناحي حياتنا. وهي وسيلةٌ إن أحسنَّا الاستفادةَ منها، كانت خيرَ مُعينٍ لنا في تجديد لغتنا وتطويرها لتواكب ركب العلم والحضارة، وإلاَّ فأتتنا فرصةٌ ما لها مثيلٌ ولا نظير، ولن يكون لها مثيلٌ ولا نظير.

تُرى ماذا سَيَحُلُّ بلغتنا إن نحن قصّرنا في خِدْمَتِها؟

الجواب هو أن لغتنا وتراننا وإبداعنا سيصبح تحت رحمة العولة المتربّصة بنا، وسيزداد تأخرنا تأخراً، وستزداد الهوة بين لغتنا ولغات العالم عمقاً واتساعاً: في صناعة معجماتها، وفي تعليمها، وفي تعلّمها، وفي مصطلحاتها، وفي تقييسها، وفي معالجتها الآلية...

الثوبُ إن أسرع فيه البلى أعيأ على ذي الحيلة الصانع
كنا نداريها وقد مُرّقت واتسع الخرق على الراقع

أيها السادة:

الأملُ معقودُ الآن على مجمع اللغة العربية في أن يَحْتَّ الخطأ للنهوض بمعالجة اللغة العربية بالحاسوب. ففي ذلك تجديدٌ للغتنا، وتطويرٌ لها، وتحبيبٌ بها. وإني لأرجو أن يكون انضمامي إلى هذا المجمع إسهاماً ومؤازرةً في هذا السبيل.

والآن إلى الغصن الثالث، إلى ترجمة العلامة الدكتور عبد الرزاق قدورة.

ويطيب لي أن أبدأ ترجمته بتصوير المشهد الآتي:

الزمان: أوائلُ سنةٍ تسعينٍ وتسعمئةٍ وألف.

المكان: مدينة بنغازي في ليبيا.

المناسبة: المؤتمر الأول للكتابة العلمية باللغة العربية.

كان عددُ المشاركين في هذا المؤتمر يربو على المئتين. وقد اجتمعوا خارج الفندق لركوب الحافلات التي ستقلُّهم إلى حيثُ كانت مواقعُ المجاهد عمر المختار. فراعني في هذا الجُمعَ منظرُ رجلٍ في الستين من عُمره يلبس قميصًا أبيض، مُشمَّرًا عن ساعديه، مع أن الطقسَ كان باردًا نسبيًا. رأيتُه وهو يتنقَّلُ بينهم بحيوية الشباب ونشاطهم، ووقار الشيوخ وهيبتهم. وكان الشاعر قد عناه في قوله:

تَمَيَّتُ أَنْ الشَّيْبَ عَاجَلَ لِمَتِّي وَقَرَّبَ مِنِّي فِي صَبَايَ مَزَارُهُ
لَأَخْذَ مِنْ عَصْرِ الشَّبَابِ نَشَاطَهُ وَأَخْذَ مِنْ عَصْرِ المَشِيبِ وَقَارُهُ

سألتُ عنه، فقبل لي: إنه الدكتور عبد الرزاق قدورة.

اقتربتُ منه وسَلَّمْتُ عليه، وعَرَفْتُهُ بنفسِي، فردَّ عليَّ السلام، وحيَّاني وكأنني صديقٌ قدسَمَ لِقِيَّه بعد فراقٍ طويل. فتملكني شعوران:

شعورٌ غبطةٍ وسرور، لما لقيته من حفاوةٍ وترحيب،
وشعورٌ فخرٍ واعتزاز، لأن شخصًا بمنزلة طلابه حطى بشرف لقاءٍ أستاذٍ قدير،
وعالمٍ جليل.

فقلتُ في نفسي: صدقَ من قال: كلما ازداد المرءُ علمًا وفضلًا، ازداد تواضعًا ونُبلاً.

وَيَمْضِي أَقْلٌ مِنْ سَنَةٍ، فَيَحْصُلُ مَشْهُدٌ آخَرُ، إِلَيْكُمْ صُورَتُهُ:

الزمان: تشرين الأول، سنة تسعين وتسعمئة وألف.

المكان: المدرسة العادلية، المقابلة للمكتبة الظاهرية.

المناسبة: حفلُ استقبال الدكتور عبد الرزاق قدورة عضوًا جديدًا في مجمع اللغة العربية.

كانت تلك المرة الأولى التي أُدخِل فيها المدرسة العادلية، وكانت هذه المناسبةُ فاتحةً عهدي بمجمع اللغة العربية. وبعد الانتهاء من مراسم الاستقبال والاستماع إلى

كلمات الخطباء، توجهتُ مع جملة الحضور لتهنئة الدكتور قدورة. فسلم عليّ بمودّةٍ ومحبةٍ، وأضفى على هذا السلام البهجةَ والسرورَ أنه مازال يذكر لقاءنا الأول في بنغازي، فزددتُ سعادةً وإشراقاً.

لقد حَضَرْتُ ذاك الحفلَ، ولم يُدْرَ في خَلْدِي أُنِي سأصبح في يومٍ من الأيام عضواً في هذا المجمع، غير أن إرادةَ الله تعالى شاءت أن تتحقّق هذه العضوية، وأن أكون خَلْفاً لهذا العالمِ الجليل، بعد نحوِ عَقْدَيْنِ من استقباله، وسنةٍ من رحيله.

فَكَمَ لِلَّهِ مِنْ تَدْبِيرِ أَمْرِ طَوْتُهُ عَنِ الْمَشَاهِدَةِ الْغُيُوبِ

أيها السادة الأكارم:

إنه لشرفٌ عظيم أن تُرجمَ لهذا العالمِ الجليل والأستاذِ القدير الدكتور عبد الرزاق قدورة، الذي انعقدتُ خناصرُ أهل العلم على خصاله الحميدة، ومزاياه الفريدة.

وقد سبقني إلى ترجمته مَنْ هو أَعْرَفُ به مِنِّي؛ فقد ترجم له في حفل استقباله أستاذه المهندس وجيه السمان. وبالأَمْسِ (قبل نحو سنة) تَرَجَمَ له الأستاذُ الدكتور مروان المحاسني رئيسُ مجمع اللغة العربية، وكذلك تَرَجَمَ له أستاذنا الدكتور عبد الله واثق شهيد في كلمةٍ ضافيةٍ مؤثّرة ألقاها في حفل تأبين الدكتور قدورة.

لذلك سأكتفي بعرضٍ لَمَعٍ وومضاتٍ تدلُّ على واسعِ علمه، وعُلُوِّ هِمَّتِهِ، وتفانيه في عمله. وقبل ذلك سأقرأ عليكم شيئاً من سيرته الذاتية.

- وُلِدَ الدكتور عبد الرزاق قدورة في دمشق سنة ثمانٍ وعشرين وتسعمئةٍ وألف.
- وَفَدَّتْ أَسْرَتُهُ مِنْ لِيبيَا قَبِيلِ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَى.
- كَانَ الْأَوَّلَ بَيْنَ أَقْرَانِهِ فِي الشَّهَادَةِ الثَّانَوِيَّةِ. فَأُوفِدَ إِلَى بَلْجِيكَا، وَحَازَ فِيهَا دَبْلُومًا فِي الْمَهْنَدَسِيَّةِ الْكَهْرِبَائِيَّةِ. ثُمَّ أُوفِدَ إِلَى بَرِيْطَانِيَا، وَنَالَ شَهَادَةَ الدَّكْتُورَاهِ فِي الْفِيْزِيَاءِ النَّوَوِيَّةِ عَامٍ وَاحِدٍ وَسَتَيْنِ.

- بعد عودته من الإيفاد درّس الفيزياء في كلية العلوم في جامعة دمشق، حيث أصبح أستاذاً فيها، ثم عُيّن وكيلاً لكلية الهندسة، فعميداً لها، فوكيلاً لجامعة دمشق، فريئساً لها مدة ثلاثة أعوام؛ من سنة ثلاثٍ وسبعين إلى سنة ستٍ وسبعين.
 - انتُخبَ عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق في سنة خمسٍ وسبعين، غير أن حفلَ استقباله تأخّر إلى سنة تسعين بسبب سفره.
 - عُيّن مديراً عاماً مساعداً لمنظمة اليونسكو سنة ستٍ وسبعين، وبقي في هذا المنصب إلى أن أُحيل على التقاعد سنة ثمانٍ وثمانين.
 - توفي رحمه الله تعالى في شهر تموز عام ألفين وسبعة.
- كان الدكتور قدوةً عضواً في عددٍ غير قليلٍ من الاتحادات، والمجالس، والجمعيات، واللجان الدولية؛ منها:

١. اتحاد المهندسين البلجيكين،
٢. اتحاد الفيزيائيين الأمريكيين،
٣. الجمعية الأمريكية لتقدم العلوم،
٤. اللجنة الدولية لتنمية التربية،
٥. مجلس حكام الوكالة الدولية للطاقة الذرية،
٦. اللجنة الاستشارية لجامعة الأمم المتحدة،
٧. اللجنة الاستشارية لإعداد البرنامج المتوسط الأجل لليونسكو،
٨. مجلس إدارة المركز العربي السعودي للعلم والتكنولوجيا،
٩. لجنة جائزة الملك فيصل العالمية للعلوم،
١٠. اللجنة الثقافية الاستشارية لمعهد العالم العربي بباريس،
١١. أكاديمية العالم الثالث، التي كان يرأسها العالم الباكستاني محمد عبد السلام.
١٢. لجنة دراسة استراتيجية التربية في البلاد العربية (كانت ألفتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم).

إن نظرة عَجَلَى إلى هذه المناصبِ التي تَسَنَّمها الدكتور قدوة هي أصدقُ تعبيرٍ عن مكانةِ هذا الرجل العلمية، وأعظمُ شهادةٍ من العرب وغيرهم على علوِّ كعبه. على أن هذه المناصبَ العلمية التي تقلَّدها، والأعمالَ الكثيرةَ التي مارسها، لم تترك له متسعاً من الوقت للتأليف والكتابة، ومع ذلك فقد كانت له مؤلَّفاتٌ ومشاركاتٌ منها:

- نشراتٌ علميةٌ بالإنكليزية في الفيزياء النَّووية بين عامي تسعةٍ وخمسينٍ واثنين وسبعين.
- المشاركةُ في ترجمة بعض الكتب الفيزيائية والهندسية الجامعية، من الفرنسية والإنكليزية.
- كتابُ «الفيزياء الحديثة» للجامعات.
- ترجمةُ كتاب «الميكانيك» لمؤلَّفه تيموشنكو.
- المشاركةُ في إعداد «المعجم الكهربائي الإلكتروني». يقع هذا المعجم في مجلَّدين كبيرين، يتضمن أكثرَ من ستةِ آلافِ مصطلح، بأربعِ لغات: العربية والإنكليزية والفرنسية والروسية. وكان الأول من نوعه في العالم العربي.
- المشاركةُ في تأليف كتاب «تعلم لتكون». وهو كتابٌ تربويٌّ مازال يحتلُّ مكانةً رفيعةً بين كتب التربية. شارك الدكتور قدورة في تأليفه برفقة ستةٍ من العلماء العالميين، بإشراف إدغار فور السياسيِّ الفرنسيِّ المعروف. أُلِّف هذا الكتاب عام اثنين وسبعين، وتُرجم إلى العربية عام تسعةٍ وسبعين. وهو يتناول موضوعَ التربية من الناحية الإنسانية، ويتضمَّن دراساتٍ إحصائيةً عن مستويات التعليم في مختلفِ بلاد العالم، ويقترح الحلولَ لما يعترئها من مشكلات.

وأخيراً أسوق إليكم نُتقاً من سيرة الدكتور قدورة تشهد له كريمَ خصاله، ودمائه أخلاقه، وشِدَّتَه على نفسه، اقتبسْتُ معظمها من الترجمة التي تَرَجَّمه إياها أستاذنا الدكتور عبد الله واثق شهيد:

- عندما وقعت حربُ تشرينِ التحريرية سنةً ثلاثٍ وسبعين، كان الدكتور قدورة

رئيسًا لجامعة دمشق، فأظهر فيها ما انطوى عليه من نبيل وإخلاصٍ وتفانٍ في خدمة الوطن. فلزم مكتبه طوال مدة الحرب، واتخذ من هذا المكتب غرفةً عمليات، ومقرًا جهزه بسريرٍ من المستشفى يقضي فيه بعض ساعات النوم القليلة في تلك الليالي.

- كان كريمًا وفيًا، وكان يُهدي إلى أصدقائه وهو في فرنسا، ما يجد نشره من الكتب التي يقدر اهتمام كل منهم بموضوعاتها.
- كان رؤوفًا بالطلاب حريصًا على تحسين إعدادهم للحياة علميًا وأخلاقيًا واجتماعيًا. يقدم لهم النصح والإرشاد في أمورهم العلمية والاجتماعية.
- عندما كان رئيسًا للجامعة، لم يُحيط نفسه بما اعتاد بعض أصحاب المناصب إحاطة أنفسهم به، وكان بائه مفتوحًا للجميع.
- كان لا يستعمل في تنقلاته ضمن المدينة وسائل النقل مهما كان الطقس حارًا أو باردًا، وأبى أي عرضٍ ممن يلمحه من المعارف والأصدقاء في الطريق لإيصاله إلى حيث مبتغاه.
- كان عالي الهمة، كريم الأخلاق، حسن السيرة، جميل العشرة.
- جمعت كتاباته العلم والأدب في آنٍ معًا؛ من ذلك مثلاً: الكلمة التي ألقاها في المؤتمر الأول للكتابة العلمية باللغة العربية؛ تقرأها بعين الكاتب الأديب، فترى فيها البيان الناصع والأدب الرفيع، وتقرأها بعين الباحث العالم، فترى فيها بحثًا علميًا رصينًا.
- كان يُتقن الإنكليزية والفرنسية إتقانه للعربية، وكانت له معرفةٌ جيدةٌ بالألمانية والروسية، وإلمامٌ بالإيطالية.
- مُرَّهف الحس، شديد الانفعال بما يُخْدش كرامته. يتجنب من أساء إليه، ولا يسعى للانتقام منه، ولا يعدو في مخاطبته إياه عباراتٍ شديدة التهذيب.

- شديدُ الحرص على الحضور في الموعد المحدّد تمامًا؛ لا قبله، ولا بعده. وكثيرًا ما يَحْضُرُ قبل الموعد المضروب للزيارة، وينتظر قريبًا من باب المزور إلى أن يَحِينِ الوقتُ المحدّد، فيقرعُ الجرسَ وَيَسْتَأْذِنُ بالدخول.
 - كان يَحْصُصُ أيامًا من الأسبوعِ يَسْتَقْبَلُ فيها زائريه في ساعاتٍ محدّدة. وللرياضة في نظام حياته حقٌّ معلوم، وأغلبُ الظنِّ أنه كان لا يأكل إلا مرّةً واحدةً في اليوم، لا يأكل ولا يشرب بعدها شيئًا أبدًا.
 - إذا دخلت بيته وجدت على مكتبه المتواضع: القرآن الكريم، والكتاب الذي وقع عليه الاختيار في مخطط قراءته، ومجلة "نيتشر Nature" أو غيرها من المجلات العلمية، ومكبّرةٌ يَسْتَعِينُ بها على القراءة أحيانًا. وهو لا يقرأ إلا ما أدرجته في برنامج القراءة الخاصّ به.
 - ذاكرته القوية هي مكتبته الثمينة المتنقّلة، وهي شديدةُ التّوَعُّعِ، عظيمةُ الاتساع.
 - من الكلمات التي أثرت عنه يومَ حفل استقباله قوله: «هل نرى يومًا قريبًا تُترجم فيه الكتبُ العلميّةُ الحديثةُ بسرعةٍ وإتقان؟»
- وأختم هذه الترجمة بوصف الأديب السوداني الكبير الطيب صالح للدكتور قدورة؛ قال: «وَرِعٌ بلا تكلف، صافي الذهن، يملك قدرةً هائلةً على التعلّم. وجهه يَشِعُّ بنور القرآن. وحركاته وسكناته وأسلوبه في العيش كأنها أصداءُ آياتِ القرآن المبين. رجلٌ فَدٌّ يُذَكِّرُ بعلماء المسلمين في عصور التنوير الأولى».

أيها الحضور الكرام،

أشكر لكم حُسنَ استماعكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

حفل استقبال

الأستاذ الدكتور عمر شابسيغ

عضوًا في مجمع اللغة العربية

في الساعة السادسة من مساء الأربعاء ٢٣/٢/١٤٣٠ هـ - ١٨/٢/٢٠٠٩ م احتفل المجمع باستقبال الأستاذ الدكتور عمر شابسيغ، عضوًا في مجمع اللغة العربية، في جلسة علنية، حضرها نخبة من رجال السياسة والعلم والأدب وأصدقاء المحتفى به وطلابه.

بدأ الحفل بكلمة الأستاذ الدكتور مروان المحاسني، رئيس المجمع، التي رُحِبَ فيها بالسادة الحضور، وهنأ الزميل الجمعي الجديد، بانضمامه إلى مجمع الخالدين، متمنيًا له مسيرة طيبة حافلة بالعطاء.

ثم ألقى الأستاذ الدكتور موفق دعبول كلمة الترحيب بالزميل الجديد. فتحدث عن سيرته، ومكانته العلمية، وجهوده في خدمة العلم.

ثم ألقى الأستاذ الدكتور عمر شابسيغ كلمته، التي تحدث فيها عن سلفه الراحل الشيخ سعيد الكرمي.

وننشر فيما يلي كلمات الحفل:

كلمة الدكتور مروان المحاسني رئيس المجمع
في حفل استقبال
الدكتور عمر شابسيغ

أيها الحفل الكريم

تواجه المجتمعات في منطقتنا من العالم ضرورةً ملحةً هي ما نطلق عليه التحديث، ويجب أن يعنى لنا هذا المفهوم تحركاً في اتجاه اللحاق بما يطرأ على عالمنا من تغيّرات متسارعة، لا أن نعتبره تنكراً لماضيها أو استخفافاً بحاضرنا. فنحن أبناء حضارة لا يُنكرُ فضلها على الثقافات الأخرى إلا كلُّ جاحدٍ تُحرّكه عصبية أو عنجهية لا تُغيّر في حقائق التاريخ شيئاً.

تمر الأيام وينتقل الإنسان من شباب إلى كهولة إلى شيخوخة، حاملاً معه إرثاً ثقافياً يَنُمُّ على ما يجول في مجتمعه، وقد يكون أضاف إليه بعض التجارب الشخصية، أو اطلاعاً انتقائياً جعله يَنغمس في مجالٍ محددٍ يَتَّبِع فيه حاجاته الفكرية أو يحترّفه ممارسةً ومعايشاً.

إلا أنّ الحركة العلمية العالمية الحديثة، وما نتج عنها من تقانات مُذهلة في مختلف مجالات الحياة اليومية قد جعلتنا نتساءل: ما هي مشاركتنا في هذا المسار؟ وما هي السبل المثلى التي تُعيدنا إلى مكائنا في عالم سريع التطور؟

ونحن في مواجهة صريحة مع هذا الواقع لنا أن نتساءل: هل تشيخ المؤسسات كما يشيخ الأفراد؟ وما هي بوادر هذه الشيخوخة وتداعياتها في المجتمع، وما هو

تأثيرها على المؤسسات الأخرى؟ وهل تؤدي شيخوخة المؤسسة إلى تعطل في طاقاتها وتراجع في تأثيرها في حياة المجتمع؟
لقد بلغ مجمعنا العقد التاسع من عمره حاملاً لواء العربية، مدافعاً عنها، وسالماً كل ما تراءى له من سبيل تنفيذ في تحقيق أهدافه.

فبعد أن ساهم مساهمة كبرى يوم إنشائه في تعريب الدواوين واستبعاد الألفاظ التركية ليُجَلَّ محلها ألفاظاً عربية مستقاةً من تراثنا، وقد درجت هذه على الألسنة واختفى معظم الألفاظ التركية، تطرَّق في المرحلة ذاتها إلى تعريب العلوم التي أخذت الجامعة السورية على عاتقها آنئذ أن يكون تدريسها باللغة العربية. كما أنه ثابر على تحقيق أمهات كتب التراث كاشفاً الغطاء عن الكثير من مكنوناتها، وكان أهمها تاريخ ابن عساكر.

فهل بلغ مجمعنا شيخوخة مُعَطَّلة تجعله يكتفي بمنجزاته ويتلَهَّى بإصدار مجلته وعقد اجتماعات يناقش فيها مجلسه مشكلات لغوية أزلية تمتد من حروف الجر إلى تعدي الأفعال؟

إن مجمعنا مازال في علاقة تبادلية بمجتمعه وبالعلم الذي نعيش فيه، وقد ثابر أعضاؤه على بذل عطاءاتهم في المجالات المصطلحية تسهياً لدخول العلوم الغربية إلى اللغة العربية، وخدمةً للمتربصين الراغبين في نقل الثقافات الغربية إلى المجتمع العربي. وقد دخل في عداد أعضائه في العقود الثلاثة الأخيرة ثلثة من المتخصصين بالعلوم الدقيقة والتطبيقية، إلى جانب اللغويين المسؤولين عن دقائق استعمال اللغة العربية.

وهكذا قامت لجان متخصصة تعيد دراسة المصطلحات العلمية لتنسّق بين استعمالاتها ونَحْلٍ إشكالات الخلاف القائمة بينها، التي مرَّدها إلى الخلفيات الثقافية المؤثرة في خيارات مدرسي الجامعة لمصطلحات العلوم التي يدرسونها.

إن هذا العمل التنسيقي مازال قائماً يتكامل لنتمكن من نشر عدد من المعجمات العلمية في الكيمياء والفيزياء والنبات والجيولوجيا وغيرها خلال عام ٢٠٠٩. وقد شهدتم استقبال ثلاثة من الأعضاء الذين انتخبهم مجلس المجمع، وكان أولهم عالمٌ في النبات، وثانيهم لغوي يصنّف معاجمَ جديدة، وثالثهم متخصص بالمعلوماتية وتطبيقاتها على اللغة العربية.

إن هذه خطوات أولى في طريقنا إلى تحديث مجمعنا لنجعله قادراً على المشاركة في معظم مجالات العلوم الحديثة، بأن يهيئ المصطلحات ويصنف المعجمات، فاللغة العربية ما تزال تحتاج إلى السيطرة على التقانات الجديدة، وعلى ما يصل إلينا من كشوف كونية، وما تتفتّق عنه الأدمغة من تطبيقات عملية لعلوم جديدة.

وها نحن نتصدى لبعض المشكلات التي تعترض طريقنا إلى التحديث كما برزت في السنوات الأخيرة.

أولها ما شعرنا به من عزلةٍ أبعدت أخبار ما يقوم به المجمع من أعمالٍ ونشاطاتٍ عن جمهورنا. وهذا ما دفعنا إلى الاحتذاء بما رأيناه في مؤسسات أخرى، وهو إنشاء مكتب إعلامي يضع أعمال المجمع في متناول وسائل الإعلام، كي تبقى الصلات موفورةً مع المهتمين بشؤون العربية.

ونحن لا نكتفي بتزويد وسائل الإعلام بكشوفٍ عما يدور في المجمع من نشاطات تُنشر أخبارها في الوسائط الإعلامية التي أحب بعضنا أن يطلق عليها اسم الوسائط نحتاً من وسائط وإعلام، بما يشير إلى سعة انتشارها، بل إننا أحببنا أن نتطلع إلى الإفادة من التقانات الحاسوبية الجديدة، ما دمننا في عصر اجتذبت فيه شاشات الحواسيب عقولَ شبابنا، وفتحت أمامهم آفاقاً تزيدهم ثقافةً، وتشدّب ذائقهم الفنية والأدبية، أي إننا رأينا الدخول في علم الاتصالات الحديث.

لاشك بأن اللغة هي وسيلة الاتصال الأولى بين الأفراد والجماعات، وقد سبقتها ورافقتها أحياناً وسائل أخرى، كالإيماء والإشارة وإشعال النيران على التلال، وإطلاق أعمدة الدخان في الهواء، ومن أحصها ذلك الدخان الأبيض الذي يُطلق في روما عند انتخاب البابا الجديد.

إلا أن مفهوم الاتصالات الحديث، بعد أن تجاوز الخطوط الهاتفية، ثم النقل اللاسلكي للصوت على الأمواج الهرتزية عبر البحار، كما حققته تجربة ماركوبي الشهيرة، قد توصل في القرن الماضي إلى نقل الصور حيّة بين القارات معتمداً السواتل الجائلة حول كرتنا الأرضية، فأدخلها إلى بيوتنا عن طريق التلفزة اتصالاً فورياً مع ما يجري في العالم.

وأما المفهوم الحديث للاتصالات فيعتمد المبدأ الرقمي الذي يستطيع أن يستوعب الرسائل بجميع أنواعها حروفاً أو صوراً ليخترنها بحيث تبقى قريبة التناول عن طريق البرامج الحاسوبية الذكية.

فنحن في عصر يتخاطب فيه الإنسان مع الحاسوب، وتتخاطب الحواسيب بعضها مع بعض، ما سمح بنقل العلم نقلاً يكاد يكون فورياً إلى أقاصي الدنيا، وحتى إلى مجاهل القارات الشاسعة.

فهل يجوز أن يبقى معظم جيلنا في أمة حاسوبية لا تسمح له بالإفادة من حقائق علمية مبذولة أمام من يريد قطفها؟ وهل ما يدّعيه بعضنا أن الصعوبة تكمن في عدم اعتيادنا التخاطب بين الإنسان والآلة، مهما بلغت من الذكاء في التجاوب معه؟

إن لدينا برنامجاً طموحاً يوصلنا إلى تدوين رقمي لجميع وثائق مجمع اللغة العربية منذ تأسيسه، وهذا ما يُرِجنا من الهفوات والإهمال. وبذلك تبقى أمور المجمع قريبة المنال على الشبكة الداخلية intranet، إضافةً إلى بسط نتاج أعمالنا على موقع المجمع في الشبكة العالمية internet.

ومن مستندات التحديث أيضاً أن أدخلنا في ملاك المجمع هيئةً فنيةً من الجامعيين الحاملين لشهادة دراسة عليا إضافةً إلى إجازاتهم الأصلية. والمهمة الرئيسة لهذه الهيئة هي فتح خطوط بحثية أكاديمية بإشراف أعضاء المجمع، الذين يختارون الموضوعات، ويضعون مخططات البحث. إنها بحوث تبقى ضمن نطاق مهام المجمع المتركة على خدمة العربية، إذ هي تستكشف المشكلات التي تعترض طريق جعل اللغة العربية حاملاً دقيقاً للعلوم العصرية، وتعيد الاتصال مع كنوزنا التراثية، وهي سوف تُعتمد لتسهيل تعليم التقانات الحديثة في المعاهد والجامعات.

وإن إدخال البحوث العلمية إلى المجمع لا يكون على حساب البحوث التي يجب أن تقوم بها الجامعات ومراكز البحوث، بل يكون هذا إضافة أكاديمية لنشاطات المجمع في سعيه إلى إيصال العلوم إلى جميع الناطقين بالعربية.

إن هذا التحديث عن طريق حوسبة أعمال المجمع، وفتح الآفاق البحثية أمام أعضاء مجمعنا، بالاعتماد على مشاركة أعضاء الهيئة الفنية، هو الذي سيعيد إلى مجمعنا موقعه الأصلي في مجالات تطوير اللغة العلمية. وسوف تجدون على موقع المجمع محتويات مجلتنا ومنشوراته وبذلك نفتح باب الحوار مع العاملين في المجالات التي يطرقها مجمعنا، ونجعل من موقعنا مَعِيناً يُعترف منه، وسيبلاً يرتوي منه العطاش.

إنّ التحديث هو انفتاحٌ على العصر، هو مباشرة حوارٍ مفتوح مع الجامع الأخرى ومع الراغبين من المثقفين العرب، وهو انفتاحٌ لا بد أن تكون له آثارٌ عميقة على مجتمعنا، كما أكدّه ماك لوهان حين بحث في التأثيرات النفسية للإعلام، إذ أثبت وجودَ تأثيرٍ عميقٍ له في طرائق المعيشة في المجتمع.

إن هذا التأثير واضحٌ في مجتمعنا، حيث بدأت تظهر تياراتٌ متقاطعة في نظرتها لقيمة الوسائط الإعلامية، كما ظهرت تحركاتٌ مجتمعية تحاول درءَ أخطار ما يدخل البيوت والعقول، وتحديد المستوى المقبول لذلك البث المستمر.

أيها الحفل الكريم

كنت قد طرحت سؤالاً في مطلع حديثي ولا بد أن أعطي جواباً عنه. فحين تساءلت عن شيخوخة الجامع أسوة بشيخوخة أبناء البشر فاتني أن أؤكد أمراً لا يخفى على أحد، ألا وهو أن الجامع في أي بلد من البلدان الراقية لا تُنتج شيئاً.

إن إنتاج الجامع مربوطٌ بجمّة أعضائها، هو إنتاج أفرادٍ يكتنفهم موقع علمي اجتماعي، قد جرى اصطفاؤهم من قبل أقران لهم، وما عليهم سوى المثابرة على ما كانوا يقومون به من بحوث قبل انضمامهم إلى المجمع، مستفيدين مما يمثله المجمع من صلاتٍ وتنوّعٍ علمي وفُرصٍ لمناقشات تجري على أعلى المستويات، في مجهودٍ علميٍّ جماعي.

ونحن إذ نُرحب اليوم بالدكتور عمر شابسيغ عضواً جديداً في مجتمعنا نريد أن نُؤكد التزامنا بالعصْرنة في جميع تفرعاتها.

فالدكتور شابسيغ مهندس قد اختص بعلم الاتصالات، وقضى سنواتٍ عديدةً يمارسه، وسوف يعطيكم الدكتور موفق دعبول المزيد عن حياته وأعماله.

فاسمحوا لي أخيراً أن أقول: إن مجتمعنا لن يشيخ ما دمنا نحظى بانضمام الرصفاء الجدد، حاملين خبراتٍ فيما اشتقوا لأنفسهم من مساراتٍ علمية متميزة، جاعلين البحث والدراسة محوراً لحياتهم.

فالجامع لن تشيخ مهما رماها الدهر بسهمه، وقصدها بصرفه، فإن نُضرتها لن نُحول، وهي تبقى تدعي الصبا أو كما يقول الشاعر:

فُلٌ للكرام بباينا يلجوا ما في التصابي على الفتى حَرْجٌ

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كلمة الدكتور موفق دعبول عضو المجمع
في حفل استقبال
الدكتور عمر شابسيغ



أيها الأستاذُ الدكتور رئيسُ مجمع اللغة العربية
أيها السادة أعضاء المجمع
أيها الحضور الكريم
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

يطيب لي في هذه الأمسية أن أقدم إليكم عضوًا جديدًا في مجمع اللغة العربية هو الأستاذ الدكتور عمر شابسيغ، المتخصص في الهندسة الكهربائية والعلوم التقنية، والمعروف بغيرته على العربية، يبرز محاسنها، ويبيّن قدرتها، ويثريها في إطار اختصاصه. غير أنني قبل ذلك، أودّ أن أشير إلى وجود الكثيرين من العُبر على العربية، الذين يؤرقهم الحال الذي آلت إليه، من عدم احترام أبنائها لها، وسعيهم بقصدٍ أو دون قصد، إلى الخطّ من شأنها، بل وإلى إهمالها، مفضلين التحدث بغيرها في المؤسسات العلمية وفي الصناعة والتجارة وغير ذلك. لقد أخذ هؤلاء العُبر يرددون، بصوتٍ خافت، أنّ المجمع قد تضاءل عطاؤه، وتدنى تأثيره في حماية اللغة العربية والعناية بها،

والاهتمام بالمصطلحات العلمية وتوحيدها، والحثُّ على إجراء البحوث التي تبرز مدى ما فيها من روعة، وما تنعم به من خصائص تجعلها قادرةً على الحياة، واستيعاب متطلبات التطور في العلم والاقتصاد والحياة العامة. وهم يفعلون ذلك بدافع من الحرص على لغتنا، التي هي عنوان هويتنا، وعلى هذا المجمع الذي يأملون منه أن يكون رائدًا مؤديًا دوره في الحفاظ على لغتنا وتطويرها لمواكبة التقدم العلمي الذي يستحدث، يوميًا، مصطلحات جديدة لا بد لنا من إيجاد مقابلات ملائمة لها، بطريقة أو أخرى.

وليست مسببات هذه الحالة من الداخل فقط، بل هي من الخارج أيضًا، كما هو معلوم لكل متابع مطلع. ولعلَّ من أهمِّ هذه الأسباب الحالة النفسية للمغلوب (أو المتخلف) أمام الغالب (أو المتقدم).

وفيما يخصُّ المجمع فإنَّ هناك شأنًا آخر، يتجاوز هذا الشأن العام، وهو أنَّه يعملُ في وسطٍ تفصله عن المجتمع، وعن أهدافه، مسافةٌ تزدادُ اتساعًا مع الزمن. وأكتفي هنا بالإشارة إلى أنَّ مجلس المجمع قضى مدةً من الزمن يهيئ لمشروع قرار يعالج فيه حالة الاغتراب في اللافتات، والإعلانات، ووسائل الإعلام، ولوحات المتاجر. لكنَّ هذا المشروع لم يُبصر النور، وحُبس في الأدراج، وقد يكون مرْدُّ ذلك إلى انشغال أولئك الذين حبسوه في أمورٍ أخرى ضاغطة عاجلة.

أضيف إلى ذلك عدة ملاحظات:

الملاحظة الأولى: إنَّ سورية لا تنفرد وحدها بهذا الوضع، بل إنَّ الحال في جلِّ الدول العربية الأخرى أشدُّ إيلاَمًا، وأفدحُ مصابًا، ويُذَرُّ بضياغ الهوية. إنَّنا ننسى، ونحن نسير في بعض شوارع مدن العالم العربي، أنَّنا في بلدٍ عربي، وإنَّ التعليم العالي في الكثير من الجامعات العربية لا يقدِّم بلغةً عربية، بل بلغةً لا هي عربية ولا هي

أجنبية، يمكن تسميتها لغةً فرانكو عربية أو أنكلو عربية. ثم إنَّ لغةَ المراسلاتِ بين الشركات العربية غالبًا ما تكون بغير العربية.

أمَّا في سورية، فإنَّ لغةَ التعليم، في جميع مراحلها، هي اللغة العربية، مع بعض الاستثناءات البسيطة التي يجري معالجتها. وإنَّ لغةَ الصحافة اليومية هي أقرب إلى السلامة.

الملاحظة الثانية: إنَّ اهتمامَ السيد الرئيس الدكتور بشار الأسد باللغة العربية، وحرصه على أن تكون خطبه بلغةً عربية فصيحة، وإلحاحه في مناسباتٍ شتى على الحفاظ على لغتنا الأم، اللغة العربية السليمة، مع ضرورة إتقان لغة أجنبية، كلُّ ذلك يجعلنا أمام فرصة ذهبية نعالج فيها ما أشرتُ إليه من الظواهر السلبية.

وتجدر الإشارةُ هنا إلى المشروع الذي قدمه السيد الرئيس إلى مؤتمر القمة العربية الأخير، الذي انعقد في دمشق في آذار عام ثمانية وألفين، ونال موافقة المؤتمر، وحظي باهتمام الجامعة العربية، هذا المشروع الذي يدعو إلى تعزيز مكانة اللغة العربية، ومعالجة الاعتلال الذي داهمها، واستعمال التقانات الحديثة.

الملاحظة الثالثة: رغبةً من السيد الرئيس في تمكين اللغة العربية، أصدر قرارًا رئاسيًا بتكوين لجنة لهذا التمكين، حملها فيه مسؤولية معالجة مظاهر الضعف في التعليم والإعلام والاقتصاد وغير ذلك، وجعل هذه اللجنة برعاية السيدة نائب رئيس الجمهورية الدكتورة نجاح العطار، التي أكدت، في مشروع الأمة الحضاري في الثلاثين من حزيران عام ثمانية وألفين ٢٠٠٨، أنَّ اللغة العربية هي خط الدفاع الأول عن الأمة في وجه الحملات التي تتعرض لها، لكونها الرابط الأساسي والعمود الوثقى التي تجمع أبناء الأمة، التي تواجه غزوًا ثقافيًا خطيرًا، من طريق اختراق لغتها وثقافتها، لأن اللغة هي الحاضن والحامل لثقافة الأمة. ونتيجةً لجهود هذه اللجنة، أصبحت نسبةً عالية من اللافتات ولوحات المتاجر مكتوبة بالعربية، يُضاف إليها، أحيانًا، لغة أجنبية

بجسم أصغر. ثم إن الإعلانات الطرقية أصبحت، إلى حد ما، سليمة، فضلاً على الجهود المبذولة في التعليم والإعلام والاقتصاد.

الملاحظة الرابعة: أولت السيدة نائب رئيس الجمهورية المجمع عناية خاصة، استُهلَّت بإصدار قانونٍ جديدٍ لمجمع اللغة العربية، ينصُّ أحد بنوده على استكمالِ النقص في عددِ أعضائه.

رأى المجمع، وهو ينظر في اختصاصات الأعضاء الجدد، أن يتضمن الاختصاصات الهامة التي يحتاج إليها، ويأتي في مقدمتها علوم اللغة العربية وما يتصل بها. فكان من الأعضاء الجدد من هو متخصص في علوم الأحياء والهندسة والتاريخ واللسانيات والمعلوماتية. وإنَّ العضو الجديد الذي نحتفل باستقباله اليوم، وهو الأستاذ الدكتور عمر شابسيغ، متخصص في علوم الهندسة والعلوم التقنية.

أيها الحضور الكريم: اسمحوا لي بعد هذه المقدمة أن أقدم إليكم زميلنا الجديد، المولود في دمشق عام ١٩٣٦، والذي ينتمي إلى أسرةٍ محبة للعلم، فوالده الأستاذ أحمد حمدي مارس التعليم مدة ثلاثة وثلاثين عاماً، وخرَّج أجيالاً من المتعلمين. حصل الدكتور شابسيغ على درجة بكالوريوس في الهندسة الكهربائية من جامعة الإسكندرية عام ١٩٥٨، وعلى درجة الدكتوراه في العلوم التقنية من أكاديمية الاتصالات في روسيا عام ١٩٧٢.

التحق بالقوات المسلحة عام ثمانية وخمسين وتسعمئة وألف ١٩٥٨، وتقاعد برتبة عميد عام ستة وثمانين وتسعمئة وألف ١٩٨٦. شغل وظيفة باحثٍ رئيسي في مركز الدراسات والبحوث العلمية من عام ١٩٧٧ إلى عام ١٩٨١، ثم وظيفة معاون مدير فرع الصناعات الإلكترونية حتى عام ١٩٨٦ في المركز نفسه.

رأس من عام ١٩٨٦ إلى عام ١٩٩٩ شركة نظم الحاسبات المحدودة، ثم عمل استشاريَّ اتصالاتٍ وحوسبةٍ حتى وقتنا الحاضر.

ثم إنّه حاضر في جامعة دمشق - كلية الهندسة الميكانيكية والكهربائية - منذ عام ١٩٦٥ إلى وقتنا الحاضر.

قام الدكتور شابسيغ بتنفيذ أنظمة أتمتة واتصالات وتحكم، بلغ عددها ١٦ نظامًا، لذا حصل على شهادة تقدير، من مركز الدراسات والبحوث العلمية، لإنجازه تصميم وتنفيذ مودم لاسلكي معقد، لا يوجد له مثيل في الأسواق العالمية. هذا وقد نشر تسعة عشر ١٩ كتابًا في اختصاصاته، ألف بعضها، وترجم بعضها الآخر عن الروسية والإنكليزية، ومن بينها قاموس إلكتروني متعدد اللغات (شركسي - عربي - إنكليزي - ألماني - روسي - فرنسي) سيوضع على الشبكة.

ثم إنّه نشر ثمانية عشرَ مقالة علمية في مجال اختصاصه باللغات العربية والروسية والإنكليزية، وعددًا آخر من المقالات في الإدارة، ترجم أغلبها عن الإنكليزية أذكر منها: مساعدة الأشخاص على أن يصبحوا كما تريد، الرجل الكريه الذي يقول دائمًا لا، حرر نفسك من التوتر، لفتح داخل عقولنا، حلّ النزاعات، الدلالة على الذنب، قانون التأخير، اتهام شخص ما عند فشل مشروع، يبدأ التعليم من حيث وصل الآخرون. يضاف إلى ذلك مقالات عامة أخرى في التلوث والشأن العام. وكانت بعض مقالاته في اللغة العربية، أذكر منها: اللغة العربية من أجمل اللغات، اقتراحات حول استعمال العربية في الحياة العامة، التأثير السيئ لاستعمال اللهجات العامية، اللغة العربية في المدارس ووسائل الإعلام.

حضر الدكتور شابسيغ عددًا من المؤتمرات، وأشرف على عددٍ من المشاريع الجامعية، وألقى بعض المحاضرات التي تناولت جمال اللغة العربية، والتدريس الجامعي الخاص، والحفاظ على غوطة دمشق، وغيرها.

لقد قال الدكتور شابسيغ في محاضراته في جمال اللغة العربية: «اللغة العربية من أجمل اللغات في العالم وأنا لا أقول ذلك تعصبًا وإنما أقوله عن معرفة بخمس لغات

أخرى. إلا أنني متعصبٌ فعلاً للغة العربية لأسبابٍ موضوعية. جمالُ العربية هو في موسيقاها. جمالها في تحريكِ أواخرِ الكلمات حسب موقعِ الكلمة في الجملة. جمالها في تغييرِ شكلِ أواخرِ الكلمات حسب الجنسِ والعددِ والنحو مما يعطي جرساً موسيقياً للغة العربية تفتقر إليه أكثر اللغات الأخرى في العالم، ولا توجد من بين اللغات التي أعرفها ما يقارب هذا الأمر إلا اللغة الروسية، وإلى حدٍّ ما، الألمانية.»

وفي مقالته بعنوان «اللغة العربية من أجل اللغات» يقول: «يتمثلُ صمودُ العربية في أنَّ الإنسانَ يستطيعُ قراءةَ أيِّ نصٍّ يزيدُ عُمرُه عن ألفٍ وخمسمئة عام ويفهمه كاملاً، فاللغةُ العربية، التي كان يتكلم بها ويكتبها المسلمون الأوائلُ ومن قبلهم، هي اللغة العربية نفسها التي نعبرُ بها في كتاباتنا الآن. فتحتُ كتابَ كليلة ودمنة، الذي ترجمه ابن المقفع قبل ١٢٠٠ عام، فإذا بي أجد لغته هي لغتنا الحالية نفسها. أمَّا الذين دخلوا في ركبِ الحضارة متأخرين، كأهلِ أوربة، فتجد أنك لا تستطيع فهمَ النصِّ الأصلي لكتاباتِ شكسبير قبل أقل من ٥٠٠ عام، وهذا الأمر يسري على كلِّ اللغات الأوربية. ويأتي المستغربون من بيننا لينحنوا إجلالاً لتلك اللغات الأوربية التي لم تستطع الحفاظ على ثقافتها.»

اسمحوا لي أخيراً أن أقدم خالصَ التهاني إلى زميلنا الجديد لاختيار مجمع اللغة العربية له عضواً عاملاً، وصدور المرسوم الجمهوري بتعيينه.

إني، بما عرفت عن زميلنا الكريم من اهتمامٍ باللغة العربية، ومن إتقانٍ لعددٍ من اللغات، ونشاطٍ مميّز، وحرصٍ شديد على إتقانِ عمله، إضافة إلى حساسيته الواضحة لما يلحظ من سلباتٍ وأخطاء، يجعلني أعتقد أنَّ التحاقه بمجمعنا سيساهم في نهوض المجمع بمهامه، خصوصاً بعد أن لبّى الأستاذُ الكريم الدكتور عبد الرزاق قدورة، وهو الفيزيائي والمهندس الكهربائي، نداءً ربّيه. لذا فإنَّ الحاجةَ أضحت ماسة إلى اختصاصيه، هذا الاختصاص الذي يتقاطع مع اختصاص الدكتور شابسيغ.

أكرر ترحيبي به والسلام عليكم.

كلمة الدكتور عمر شابسيغ في حفل استقباله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سيدي الأستاذ الدكتور مروان المحاسني رئيس الجمع
الأستاذ الدكتور موفق دعبول
السيدات والسادة العلماء أعضاء الجمع
سيداتي آنساتي سادتي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أشكر الأستاذ الدكتور مروان المحاسني على
كلمته الطيبة في الترحيب بي عضوًا في الجمع، وللزميل الأستاذ الدكتور موفق دعبول
على تقديمه لي بهذه الطريقة الجميلة. كما أشكر السادة أعضاء الجمع الذين أولوني
هذه الثقة العالية في انتخابهم لي، لأكون زميلًا لهم في هذا الجمع الذي تفخر به
الأمة. وهذه الثقة تضع على كاهلي أمانة كبيرة أرجو من الله أن يُفدِرني على حملها
وأدائها كما يجب، وأن أكون عند حسن ظن من انتخبني.

قد يقول قائل أين هذا الشركسي الأصل من اللغة العربية؟ إلى هؤلاء أقول
فلنذكر المجالس العلمية للملك الأشرف قانصوه الغوري، التي كان يقيمها في بلاطه

وينظر بها علماء اللغة وعلماء الدين، وينظم الأشعار الرائعة باللغة العربية، والشاعر والمناضل الكبير محمود سامي باشا البارودي والأدباء مدحت عكاش وجودت الركابي وعزيز أباظة وثروت أباظة وفكري أباظة. ولا أقول ذلك تفاخراً بل محبة بالأمة العربية الإسلامية القادرة على احتواء الآخر بالحبّة. ثم لم نذهب بعيداً؟ فهل مؤسس هذا المجمع من أصل عربي؟ فوالده من أصل كردي ووالدته من أصل شركسي. ويعلم القاصي والداني ما أدّاه من خدمات للغة العربية وفي زمن قصير جداً في تعريب دواوين الحكومة والتعليم. إلا أنني أعترف لكم أنني كنت ولا أزال عاشقاً للعربية بالرغم من خلفيتي التقنية لاحقاً، والفضل في ذلك يعود إلى والدي رحمه الله الذي كان معلماً. إذ قالت لي والدي رحمه الله فيما بعد، أن والدي انتبه وأنا في الثالثة من العمر أنني لا أحسن العربية فأصدر قراراً يجعل اللغة العربية اللغة الوحيدة في المنزل مع إتقانه ووالدي ثلاث لغات أخرى. وكان رحمه الله يستعمل لهجة أقرب ما تكون من الفصحى في كلامه. أخذ والدي على عاتقه تقوية اللغة العربية لدي، فساعدني في المرحلة الابتدائية على قراءة كتب كامل كيلاني للأطفال بسلاسة صياغتها، وضبط كل كلماتها بالشكل. وهذه الكتب أوصلتني للتعرف بثقافات شعوب مختلفة وبعض العلوم. ثم جعلني أختتم القرآن معه عدة مرات مع التجويد. ومما ساعدني في دراستي هو أن والدي ترك لي الحرية في تعلم ما أشاء. وكان من أكبر هموم والدي هو أن أتعلم إلى أعلى مراحل التعليم. وقد ضحى والدي كثيراً في سبيل تعليمي. رحمهما الله.

كان لآخر آية الكرسي (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥])

ولآخر سورة الكهف ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ

تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿ [سورة الكهف: ١٠٩].

من سورة لقمان ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧] صدق الله العظيم، تأثير كبير في حيي للعلم ولا أزال، وكنت ولا أزال كلما قرأت هذه الآيات أدعو الله بأن يزيدني علمًا نافعًا. من طبعي أنني أحب المعرفة والأحقها كما أنني أحب نقل معارفي إلى كل الناس. وهذا ما جعلني منذ تخرجي من الجامعة مهندسًا إلكترونيًا، إلى جانب أعمال الهندسة، أبدأ بالترجمة العلمية وتعريب الكثير من المصطلحات التقنية وتثبيت التدريس باللغة العربية في كلية الهندسة الميكانيكية والكهربائية في جامعة دمشق مع عدم إغفال تعليم الطلاب المصطلحات باللغة الإنكليزية إلى جانب العربية. واتبعت نفس الطريقة في عملي في القوات المسلحة حيث قمت بتعريب كل مراجع الأجهزة في إدارة الإشارة وتجاوز عددها العشرين.

لا شك بأن عصرنا هذا هو عصر المعرفة والمعلومات. ومع تقدم وسائل المعرفة في الحاسوب والاتصالات تطورت الهجمة الشرسة التي تتعرض لها اللغة العربية نوعًا وكما. إن هذه الهجمة تستهدف اللغة العربية لأنها تجمع كل العرب مسلميهم ومسيحيهم مع ما يزيد عن مليار آخر من المسلمين. الهدف النهائي لهذا الهجوم هو تشتيت وتمزيق الأمة من قواعدها التي تجمعها وهي اللغة، واللغة، واللغة، فهم يريدون تثبيت اللهجات العامية كلغات محلية وربما يريدونها ليس على مستوى التقسيمات السياسية الحالية للدول العربية بل على مستوى اللهجات المحلية في كل بلد. كما أنهم يريدون تغيير الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني.

ولكن هل ما حصل ويحصل الآن في الإعلام وفي التربية وفي التعليم العالي هو

من صنع هؤلاء أم أننا نصنعه نحن؟ وهل من يتهاون في أمر اللغة العربية ويخرّبها هم أم نحن؟

وأنا لا أتفق مع الرأي القائل بأن اللغة العامية يجب أن تبقى، ولا أتفق مع من يدافع عن بقاء العامية ودعمها، لأن الغناء بالعامية أحلى. وهؤلاء مع الأسف مثقفون ويمسكون بمفاصل الإعلام والتعليم. وقد هالني ما ذكرته السيدة نحلة سوسو في مقالة لها في صحيفة الثورة في يوم (الحادي والثلاثين من شهر كانون الأول لعام ثمانية وألفين) ٢٠٠٨/١٢/٣١. هل وصلنا إلى هذا الدرك وهل هناك من يريد تشجيع العامية بعد؟؟؟

لقد نسي هؤلاء كل أغاني محمد عبد الوهاب وأم كلثوم وفيروز وصباح فخري وكاظم الساهر بالفصحى في عصرنا الحديث والتي يطرب لها ويتمايل بها طرباً كل الناس، حتى الشباب. ويقول هؤلاء أن العامية موجودة في كل اللغات. نعم هذا صحيح. ولكنك لن تجد مثقفاً واحداً يعرف القراءة والكتابة هناك إلا ويتكلم الفصحى حصراً: كل الحكومة وموظفي الدولة والقطاع الخاص والإعلام المسموع والمرئي. ويفتخرون بذلك.

وقد بدأ أعداؤنا يحققون بعض النجاح من وراء التغلغل في الإعلام المسموع والمرئي في العديد من البلاد العربية ومنها سورية، ومن خلال محاولات إفساد العربية عن طريق التعليم في المدارس، والسماح لمؤسسات أجنبية أن تكون لها الكلمة المسموعة في ذلك.

من الضروري تعديل قانون العقوبات ليشمل معاقبة من يسيء للغة العربية في وسائل الإعلام. وقد فعلتها بعض الدول للغات ولكنها تعتدي على اللغة العربية. هل

يعرف أحد منكم رجل دولة أجنبيًا يتكلم إلا بلغته الفصحى؟ هل سمع أحد منكم رجل دولة فرنسيًا يتكلم بعامية ال (آرغو)؟؟ أو رجل دولة بريطانيًا يتكلم بعامية ال (كوكني)؟؟ وقس على ذلك كل البلدان الأخرى إلا نحن العرب.

سأحاول وأنا في الجمع، إفادته من اختصاصي العلمي بإدخال الجمع إلى العلوم الهندسية، وإدخال أهم تقنيات الاتصالات والحوسبة إلى هيكلية الجمع في عهد رئيسه الجديد الأستاذ الدكتور مروان المحاسني.

الشيخ سعيد الكرمي

ما دفعني إلى البحث في سيرة الشيخ سعيد الكرمي هو أنني كنت من المعجبين بأبي سلمى الشاعر الكبير عبد الكريم الكرمي رحمه الله. ففي يوم من أيام العام (ثمانية وأربعين وتسعمئة وألف) ١٩٤٨ وكنت طالبًا في الصف السابع في تجهيز البنين الأولى في دمشق دخل علينا أستاذ للغة العربية لم نره سابقًا في المدرسة وعرفنا بنفسه. كان رحمه الله دمئًا ومثالًا للمعلم القدير وجعلنا نحب الشعر، وكنا نجلس متسمرين في مقاعدنا وهو يلقي علينا أحيانًا من شعره هو.

ولد الشيخ سعيد بن علي بن منصور في مدينة طولكرم في عام (سبعة وستين ومئتين وألف) ١٢٦٧ للهجرة الموافق لعام (اثنين وخمسين وثمانئة وألف) ١٨٥٢ للميلاد، وإليها نسبت أسرته منذ أن استوطنها جد والده.

وقد روى الشيخ سعيد لصاحب كتاب الأعلام خير الدين الزركلي، أن أسرته تنحدر من عرب اليمن الذين جاؤوا مع عمرو بن العاص لفتح مصر واستقروا فيها، وأول من جاء منهم إلى فلسطين جد والده في أواخر القرن الثامن عشر، كما يبدو.

أنهى الشيخ سعيد دراسته الابتدائية في طولكرم، ثم أرسله والده إلى الأزهر

لإكمال دراسته، وحضر دروس الشيخ جمال الدين الأفغاني، واتصل بالشيخ محمد عبده، وبقيت الصلة وثيقة بينهما بعد ذلك.

وبعد حصوله على شهادة العالمية من الأزهر عاد إلى بلده، وعيّن مفتشاً للمعارف في قضاء بني صعب بطولكرم، ثم أصبح مفتياً. ولما تشكلت الجمعيات الوطنية العربية انتمى الشيخ سعيد إلى حزب اللامركزية وأصبح معتمداً للحزب في قضاء بني صعب.

وعشية اندلاع الحرب العالمية الأولى في عام (أربعة عشر وتسعمئة وألف) ١٩١٤ وبعد اشتراك الدولة العثمانية فيها في تشرين الثاني من ذلك العام، أخذت السلطات العسكرية في ديار الشام تلاحق رجال الحركة العربية. وكان الشيخ سعيد الكرمي في عداد من سيق أمام المجلس العربي في عاليه في عام (خمسة عشر وتسعمئة وألف) ١٩١٥ وحكم عليه بالإعدام ثم أبدل حكم الإعدام عليه بالسجن.

وفي شباط من عام (ثمانية عشر وتسعمئة وألف) ١٩١٨ أصدرت السلطات العثمانية عفواً عاماً خرج الشيخ سعيد الكرمي على إثره من سجن القلعة في دمشق وبعد مدة قصيرة عاد إلى طولكرم.

ولما تألفت الحكومة العربية في دمشق في تشرين الأول من عام (ثمانية عشر وتسعمئة وألف) ١٩١٨ دعي إلى العاصمة السورية وعُين في شعبة الترجمة والتأليف من آذار حتى أيلول من عام (تسعة عشر وتسعمئة وألف) ١٩١٩، ثم عيّن عضواً في المجمع العلمي العربي في حزيران من عام (تسعة عشر وتسعمئة وألف) ١٩١٩ فنائباً لرئيس المجمع المذكور بين تشرين الأول من عام (عشرين وتسعمئة وألف) ١٩٢٠ ونيسان من عام (اثنين وعشرين وتسعمئة وألف) ١٩٢٢. وكان قد حضر المؤتمر

الفلسطيني الأول في شباط من عام (تسعة عشر وتسعمئة وألف) ١٩١٩، وشارك في بعض أنشطة الحركة الوطنية في تلك الحِقبة.

في (السادس) من أيار من عام (اثنين وعشرين وتسعمئة وألف) ١٩٢٢ غادر الشيخ الكرمي دمشق إلى عمان وعُين قاضيًا للقضاة في مجلس المستشارين ورئيسًا لمجلس المعارف، وبقي في عمان يشغل منصب قاضي القضاة حتى عام (سنة وعشرين وتسعمئة وألف) ١٩٢٦، وعاد بعد ذلك إلى مسقط رأسه واعتزل السياسة واشتغل في أواخر حياته مدرسًا في مسجد طولكرم. وقد توفي في يوم الأحد (الخامس) من ذي القعدة سنة (خمسة وخمسين وثلاثمئة وألف) ١٣٥٥ للهجرة الموافق (لثامن عشر) من آذار سنة (خمسة وثلاثين وتسعمئة وألف) ١٩٣٥ عن عمر ناهز (ثلاثة وثمانين) عامًا.

سعيد الكرمي المجمع

كان الشيخ سعيد الكرمي من الأوائل الذين اعتمدت عليهم الحكومة العربية في دمشق في حمل عبء النهوض باللغة العربية وإصلاح لغة الدواوين. فقد عيّن في (الثامن) من آذار من عام (تسعة عشر وتسعمئة وألف) ١٩١٩ عضوًا في الشعبة الأولى للترجمة والتأليف، ثم أصبح عضوًا في ديوان المعارف الذي حُول إلى مجمع علمي بتاريخ (الثامن) من حزيران من عام (تسعة عشر وتسعمئة وألف) ١٩١٩ وكان ممن حضر الجلسة الأولى للمجمع يوم (الثلاثين) من ذي القعدة من عام (سبعة وثلاثين وثلاثمئة وألف) ١٣٣٧ الموافق (لثلاثين) من تموز من عام (تسعة عشر وتسعمئة وألف) ١٩١٩.

عمل الشيخ سعيد الكرمي مع رفاقه في إقامة المجمع العلمي العربي على أسس

متينة. ولما أُسند منصب وزير المعارف إلى الأستاذ الرئيس محمد كرد علي، تولى الشيخ سعيد الكرمي نيابة الرئاسة فأدار أعمال المجمع وداري الآثار والكتب الظاهرية مدة سنة ونصف على أحسن وجه. مشرفاً على إصدار مجلة المجمع في مجلدَيْها الأول والثاني مشاركاً في تحريرهما. كانت هذه المهام الملقاة على عاتق الكرمي في تلك الأيام الأولى مهامً كبيرةً أخذت كل جهده ووقته.

جرى تكريم الشيخ سعيد الكرمي في الأول من أيلول من عام (واحد وعشرين وتسعمئة وألف) ١٩٢١ من قبل سلطة الانتداب الفرنسية بتقليده وسام جوقة الشرف. وكان الحفل برئاسة الأستاذ الرئيس محمد كرد علي ومن جملة ما قاله: (عالم كبير من علماء الأمة خدم مجتمعه لترقيته ونهوضه، وسعى لإحياء آدابها لينير بها الأفكار الخاملة المظلمة.)

وكان مما قاله الشيخ سعيد الكرمي في ذلك الحفل: (لقد صرت الآن، كاسمي، سعيداً وسأخطو في خدمة أمتي شوطاً بعيداً، فإني حُمِلت مِنَّةً أثقلت كاهلي وضاق عن شكرها لساني وقلمي، وسأواظب على الدعاء للوطن الذي شرفني خدمته وبجلني بغير استحقاق أهله.....). لا شك أن الشيخ كان يستحق كل تكريم لهُمته العالية في خدمة المجمع ونحن لا نشك في ذلك. ولكن دوافع منحه الوسام من قبل السلطة الفرنسية كانت لإظهار وجه حضاري للدولة المحتلة لسورية لرفع اسمها لدى الشعب. وربما كان هذا التكريم هو الذي دفع الشيخ لمغادرة دمشق بعد سبعة أشهر وتركه العمل في المجمع. فربما أبت نفسه الوسام من سلطة محتلة وهو من هو في دينه ووطنيته.

واستمر الشيخ سعيد الكرمي في إدارة المجمع والمشاركة في تحرير مجلته إلى نهاية شهر نيسان من عام (اثنين وعشرين وتسعمئة وألف) ١٩٢٢ يوم غادر إلى عمان،

وظل عضوًا مراسلاً له في الأردن وفلسطين. وهكذا نرى أن عمل الشيخ سعيد في المجمع كان عملاً إداريًا إلى حد بعيد، وإن كان ذلك عملاً هاماً جدًّا في مرحلة التأسيس ولا يستطيعه كل الناس.

وكان من أعمال الشيخ سعيد الكرمي الجمعية في مطلع إقامته في عمان محاولته مع لفيف من العلماء والأدباء المقيمين فيها ، تأسيس مجمع علمي هناك يكون نظيرًا لمجمع دمشق. وتم إقناع الأمير بذلك. وبتاريخ (الرابع) من ذي الحجة من عام (واحد وأربعين وثلاثمئة وألف) ١٣٤١ هجري الموافق (للسابع عشر) من تموز من عام (ثلاثة وعشرين وتسعمئة وألف) ١٩٢٣ صدر الأمر بإنشاء المجمع العلمي برئاسة الشيخ سعيد الكرمي وبإصدار مجلة باسم (مجلة المجمع العلمي في الشرق العربي) وبأن يكون المجمع هو الهيئة الإدارية لمصلحة الآثار.

تركة الشيخ الكرمي من المؤلفات قليلة، وذلك لانشغاله بالسياسة والمناصب الحكومية، وطبعت له في صدر شبابه رسالة في التصوف بعنوان (واضح البرهان في الرد على أهل البهتان). من أهم الموضوعات التي نشرها في مجلة المجمع بحث طويل بعنوان (الإعلام بمعاني الإعلام) وهو محاولة ترتيب جديد لكتاب (الاشتقاق) لابن دريد ونُشر في سبعة أجزاء من مجلدي السنتين الأولى والثانية. وله بحث بعنوان (اللغة والدخيل فيها) نُشر في المجلد الأول. كما ألقى محاضرة بعنوان (بماذا يكون انتظام المجتمع الإنساني) بتاريخ (الثامن من) تموز من عام (واحد وعشرين وتسعمئة وألف) ١٩٢١ في ردهة محاضرات المجمع ونُشرت في المجلة لاحقًا، هذا إضافة إلى أشعاره التي لم تُجمع.

عُرف عنه أنه خطيب مُفوّه وعالم بالتصوف والفقه وأسرار اللغة، وعلوم القرآن

والتاريخ والسيرة، وكانت له بين الناس حظوة مثلما كانت له مكانة رفيعة عند ذوي الشأن.

من أولاده الكاتب الأديب أحمد شاعر الكرمي، والشاعر المناضل عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى)، والإذاعي اللغوي حسن الكرمي إضافة إلى نبهان، وحسين ومحمود وعبد الله الكرمي.

أشكر لكم حسن استماعكم

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الكتب والمجلات المهداة
إلى مكتبة مجمع اللغة العربية
في الربع الثاني من عام (٢٠٠٩)

أ - الكتب العربية

د. سعد الدين المصطفى(*)

- أبحاث المؤتمر السنوي الثامن عشر لتاريخ العلوم عند العرب/ د. مصطفى موالدي، حلب، معهد التراث العلمي العربي، ٢٠٠٨.
- الأذان بين الأصالة والتحريف/ علي الشهرستاني، إيران، قم، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م.
- إسرائيليات/ إعداد اللجنة الشعبية لمقاومة التطبيع العربية السورية، دمشق، ٢٠٠٨م.
- الإصلاح المنشود/ د. عباس الجراري، المغرب، الرباط، الأكاديمية المغربية، ٢٠٠٥م.
- إمبراطورية الثورة/ جون ستيل جوردن، ترجمة: محمد مجد الدين باكير، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون، ٢٠٠٨م.
- أنماط الرواية العربية الجديدة/ د. شكري عزيز الماضي، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون، ١٩٩٠م.
- البحث عن الحصان العربي/ ل. أثبيتيادي مورس، ترجمة: عبد الله بن إبراهيم العمير، الرياض، دار الملك عبد العزيز، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- تاريخ التعليم في عهد الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود/ د. بصيرة بنت إبراهيم الداود، الرياض، دار الملك عبد العزيز، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- تطوّر الشعر العربي الحديث والمعاصر في المغرب/ د. عباس الجراري، الرباط، الأكاديمية المغربية، ٢٠٠٨م.
- خصائص الإيقاع الشعري/ العربي عمّيش، الجزائر: دار الأديب، ٢٠٠٥م.
- رواد الحركة الثقافية في الكويت/ د. عبد العزيز الرشيد، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون، والآداب، ٢٠٠٨م.

(*) عضو الهيئة الفنية في مجمع اللغة العربية.

- زواج أمّ كلثوم/ علي الشهرستاني، إيران، قم: دار الاجتهاد، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م.
- الرواية العربية، ممكات السرد/ أعمال الندوة الرئيسية لمهرجان القرن الحادي عشر، الكويت، ٢٠٠٨م.
- سبل المياه في مدينة دمشق القديمة/ عبد الرحمن بن حمزة النعسان، دمشق: المديرية العامة في وزارة الخارجية الفرنسية، ٢٠٠٨م.
- شعر دمشق في القرن الثاني عشر/ د. رياض عبد الحميد مراد، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ٢٠٠٧م.
- الشيف رمزي/ موسوعة المطبخ العالمي، لبنان: ٢٠٠٨م.
- غربة الروح قراءة في شعر إبراهيم السامرائي/ د. أحمد مطلوب، بغداد: المجمع العلمي العراقي، ٢٠٠٧م.
- في طرائق تدريس اللغة العربية/ د. محمود أحمد السيد، دمشق: كلية التربية، جامعة دمشق، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٨م.
- القصة القصيرة في لبنان/ د. ميشال جحا، الجامعة اللبنانية، بيروت: ٢٠٠٨م.
- قضايا للتأمل برؤية إسلامية/ د. عباس الجراري، الرباط: أكاديمية المملكة المغربية، ٢٠٠٠م.
- الكافي الوافي في علم القوافي/ عبد الملك بن جمال الدين العصامي، تحقيق: عدنان عمر الخطيب، دمشق: دار التقوى، ٢٠٠٩م.
- كتاب الإدغام من شرح كتاب سيبويه/ لأبي سعيد السيرافي، تحقيق: د. سيف بن عبد الرحمن العريفي، الرياض، ١٤٢٩هـ.
- كلمات تقديم: د. عباس الجراري، الرباط: الأكاديمية المغربية، ٢٠٠٦م.
- اللغة العربية وتحديات العصر/ د. محمود السيد، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ٢٠٠٨م.
- مختارات من نوح العندليب/ شفيق جبري، اختيار: فادية عيبور، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٨م.
- مع المعاصرين، أسماء وأثار في الذاكرة والقلب/ د. عباس الجراري، الرباط: الأكاديمية المغربية، ١٩٩٥م.
- معجم الحضارة الحديثة/ ناصر الشاوي، مراجعة: د. أحمد مطلوب، بغداد: المجمع العلمي العراقي، ٢٠٠٦م.
- معجم ما أُلّف عن مكة المكرمة عبر العصور/ عبد العزيز بن راشد السندي، الرياض، دار الملك عبد العزيز، ١٤٢٩هـ.
- المنهج الاستدراكي النقدي في اللغة/ علي الشهرستاني، إيران، قم: منشورات الاجتهاد، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
- منع تدوين الحديث/ علي الشهرستاني، إيران، قم: دار الغدير، ٢٠٠٥م.
- موانئ البحر الأحمر وأثرها في تجارة دولة المماليك/ خالد محمد سالم العمارة، الرياض: دار الملك عبد العزيز، ١٤٢٩هـ.
- هل الماعون/ هشام الغراوي، دمشق: مؤسسة النوري، ٢٠٠٨م.
- وضوء النبي، ﷺ، من خلال ملابس التشرية/ علي الشهرستاني، د. ت. د. م.

ب- المجلات العربية

أ. ماجد الفندي (*)

اسم المجلة	العدد	سنة الإصدار	المصدر
- الأسبوع الأدبي	١١٠١، ١١٠٢، ١١٠٣، ١١٠٤، ١١٠٥، ١١٠٦، ١١٠٧، ١١٠٨، ١١٠٩، ١١١٠، ١١١١، ١١١٢	٢٠٠٨ م	سورية
- بناء الأجيال	السنة ١٧ الأعداد ٦٦، ٦٧	٢٠٠٨ م	سورية
- الحياة المسرحية	العدد ٦٤	٢٠٠٨ م	سورية
- الضاد	السنة ٧٨ الأعداد ٥، ٦	٢٠٠٨ م	سورية
- عالم الذرة	العدد ١١٥	٢٠٠٨ م	سورية
- المعرفة	السنة ٤٧ العدد ٥٣٧	٢٠٠٨ م	سورية
- المعلم العربي	السنة ٦١ العدد ١	٢٠٠٨ م	سورية
- فكر وفن	السنة ٤٧ العدد ٨٨	٢٠٠٨ م	ألمانيا
- الأكاديمية	العدد ٢٣	٢٠٠٦ م	المغرب
	العدد ٢٤	٢٠٠٧ م	
- الأدب الإسلامي	العدد ٥٩	٢٠٠٨ م	السعودية
- الأمن والحياة	العدد ٣١١	٢٠٠٨ م	السعودية
- عالم الكتب	العدد ٥، ٦ مج ٢٨	٢٠٠٧ م	السعودية
- الفيصل	العدد ٣٨٤	٢٠٠٨ م	السعودية
- المجلة العربية	العدد ٣٧٨	٢٠٠٨ م	السعودية
- البيان	٤٥٦	٢٠٠٨ م	الكويت
- الدراسات الفلسطينية	٧٣	٢٠٠٨ م	لبنان
- التجديد	العدد ٢٣ مج ١٢	٢٠٠٨ م	ماليزيا
- صوت الأمة	٦، ٨ مج ٤٠	٢٠٠٨ م	الهند

(*) إجازة في المكتبات من جامعة دمشق.

النشرة الاجنبية:

رأى معدني (*)

I- Books:

- New Present Day English/ E.Frank Candlin.
- Tout Le Tissage/ A.Lambrette.
- Comment Se Faire des amis/ Dale Garnegie.
- English Scientific.
- An Audio-Visual English Course For secondary Schools/L.G.Alexander.
- Orient Express/ Graham Greene.
- Les Misérables/ Victor Hugo.
- Oil and Class Struggle/ Peter Nore.
- Inflation Proofing Your Investments/ Harry Browne.
- Cours de Langue Française/ Ch. Maquet.
- Étendez-Vous et Parlez/ Jean Eparvier.
- Le Français Fonctionnel/ Emile Fevrier.

II- Periodicals:

- The Islamic Quarterly, vol.٥١, Issue ١- ٢- ٣(٢٠٠٧).
- AL-Qantara, vol.٢٦, N.١-٢ (٢٠٠٥).
- Deutschland, N.٦ (٢٠٠٦), N.١-٢ (٢٠٠٧).
- Population and Development Review, Vol.٣٣, N.١ (٢٠٠٧).
- SGI Quarterly: Abuddhist Forum For Peace, Culture and Education, N.٤٨ (٢٠٠٧).
- The Muslim World, Vol.٩٧, N.٤(٢٠٠٧).

(*) إجازة في الأدب الفرنسي من جامعة دمشق.